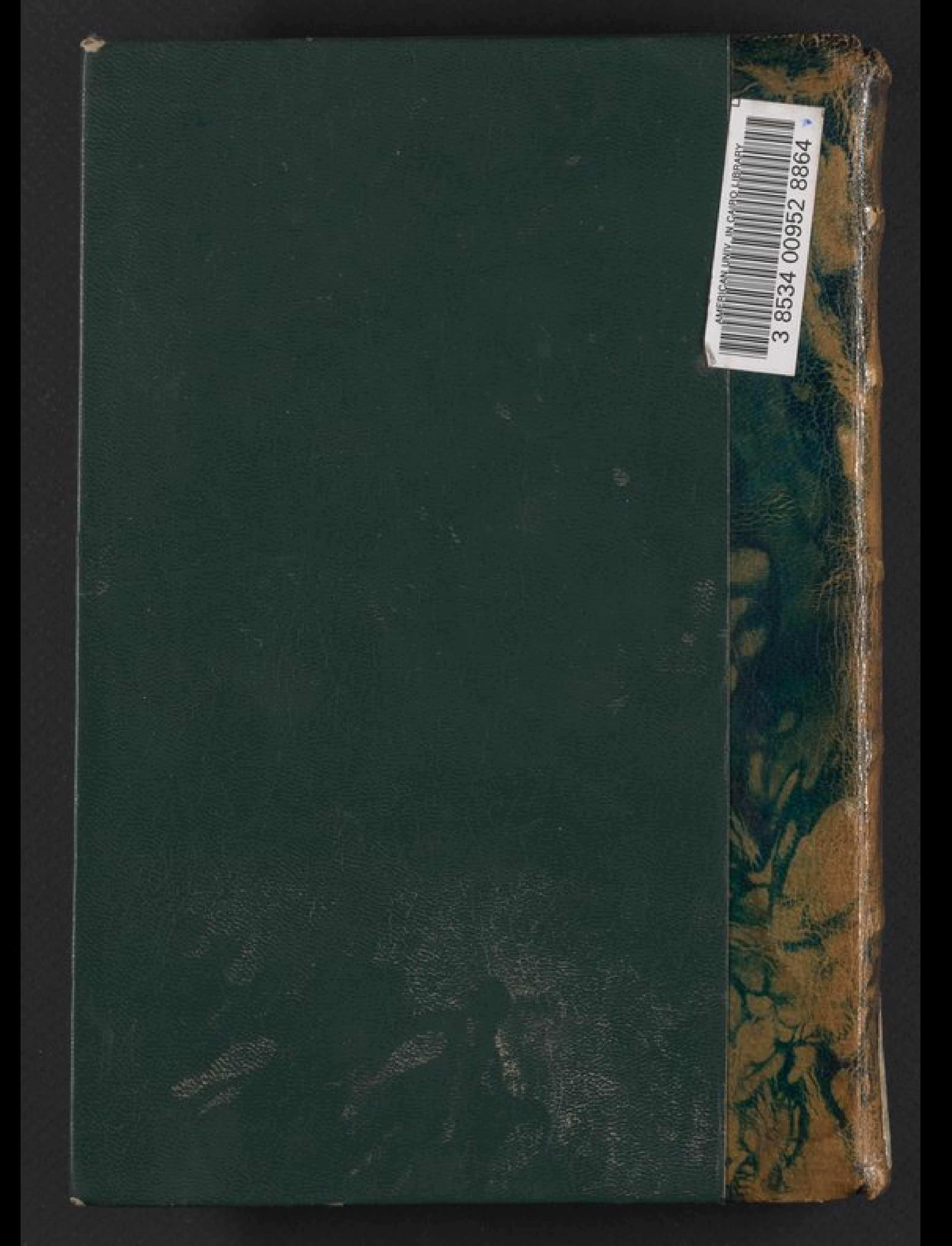

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00952 8864



عبد المنعم حماده

الأستاذ الإمام

محمد عبده

« حياة حافلة بالسعي لخدمة مصر والعالم الاسلامى ، وجهاد لم يعبأ بالصعاب ، وأمل لم ينطفىء ، ورسالة خالدة » .

« وفى ١١ يوليو من عام ١٩٤٥ تحل ذكرى الأربعين عاما على وفاة صاحب هذا كله ، لعلها أن تجد فى قلوب المصريين صدى يجدد تعاليم الامام وآماله » .

مطبعة الاستقامة

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى: بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها: مصطفى محمد

P. 48

الفهـــرس

صفحة

الفصل السادس

الفصل السابع

صفحة

الفصل الثامن

تم الفهرس

فهرس المراجع

١ ــ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الجزء الأول : حياته
» » » » » » » » الثانى : منشآته
» » » » » » » » الثالث : المراثى
للمرحوم السيد رشيد رضا .

٢ ــ الإسلام والتجديد فى مصر : للدكتور تشارلز آدمس وتعريب الأستاذ عباس محمود .

٣ ــ جمال الدين الأفغانى : للأستاذ محمد سلام مدكور .

٤ ــ الشيخ محمد عبده : للأستاذ أحمد الشايب .

٥ ــ » » » للدكتور عثمان أمين .

٦ ــ سعد زغلول : للأستاذ عباس محمود العقاد .

٧ ــ الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى : لصاحب العزة عبد الرحمن الرافعى بك .

٨ ــ خاطرات جمال الدين الأفغانى : لمحمد باشا المخزومى .

٩ ــ رسالة التوحيد : للمرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

١٠ ــ الاسلام والنصرانية : للمرحوم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده :

١١ ــ رسالة الرد على الدهريين : للمرحوم السيد جمال الدين الأفغانى وتعريب الأستاذ الإمام .

١٢ ــ حياة محمد : لمعالى الدكتور حسين هيكل باشا .

١٣ ــ محمد عبده : للأستاذ محمد صبيح .

١٤ — مصطفى كامل : لصاحب العزه عبد الرحمن الرافعى بك .

١٥ — مذكراتى فى نصف قرن : للمرحوم أحمد شفيق باشا .

١٦ — السيد عمر مكرم : للأستاذ محمد فريد أبوحديد .

١٧ — مصر الحديثة Modern Egypt. : بقلم اللورد كرومر .

١٨ — فى الصيف : لصاحب العزة الدكتور طه حسين بك .

١٩ — القديم والحديث : للأستاذ محمد كرد على .

٢٠ — تحت شمس الفكر : للأستاذ توفيق الحكيم .

٢١ — تاريخ مصر الحديث : للأستاذ عباس الخرادلى .

٢٢ — الشرق الاسلامى فى العصر الحديث : للأستاذ حسين مؤنس .

٢٣ — التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر : بقلم المستر ولفرد بلنت ـ تعريب جريدة البلاغ .

٢٤ — على فراش الموت : للأستاذ طاهر الطناحى .

٢٥ — تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى وبعده : بقلم تيودور روذستين وتعريب الأستاذ على أحمد شكرى .

٢٦ — الصحف اليومية : الأهرام ـ الجهاد .

٢٧ — الصحف الأسبوعية : الثقافة ـ الرسالة ـ السياسة الاسبوعية ـ الشباب ـ مجلة ثمرات الفنون ببيروت ـ الاثنين والدنيا .

الإهـــداء

مولاى حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول :

بوّأك الله يامولاى من هذه الأمة مقاما سامياً ، وأحلك فى صدور أبنائها مكان القلوب النابضة . أحبك شعبك يامولاى لأنك رمز آماله . . شمرت عن ساعدك القوىّ الفتىّ فأعززت الإسلام ورفعت رايته ، وبعثت الحمية الدينية فى قلوب شبابه وحملت شعلته ، وتقدمت إلى الأمام محيياً عهد جدك إسماعيل ، مترسماً خطوات والدك الكريم ، لتحل مصر بين الدول مكانها القديم ، وتعيد لها مجدها العظيم .

فاسمح لى يامولاى - وذكرى الأربعين عاما على وفاة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على الأبواب - أن أرفع إلى مقامك السامى صورة من حياة هذا الرجل وكفاحه ، اعترافاً بما كان لجلالة والدك الراحل طيب الله ثراه من عطف على ذكراه ، وإشادة بعصرك الزاهر ، آملا أن تجد ذكرى الامام من عطفك يامولاى ورعايتك ماوجدته عام ١٩٣١ من جلالة والدك رحمه الله ؟

عبد المنعم حماده

جلالة الملك «فؤاد»

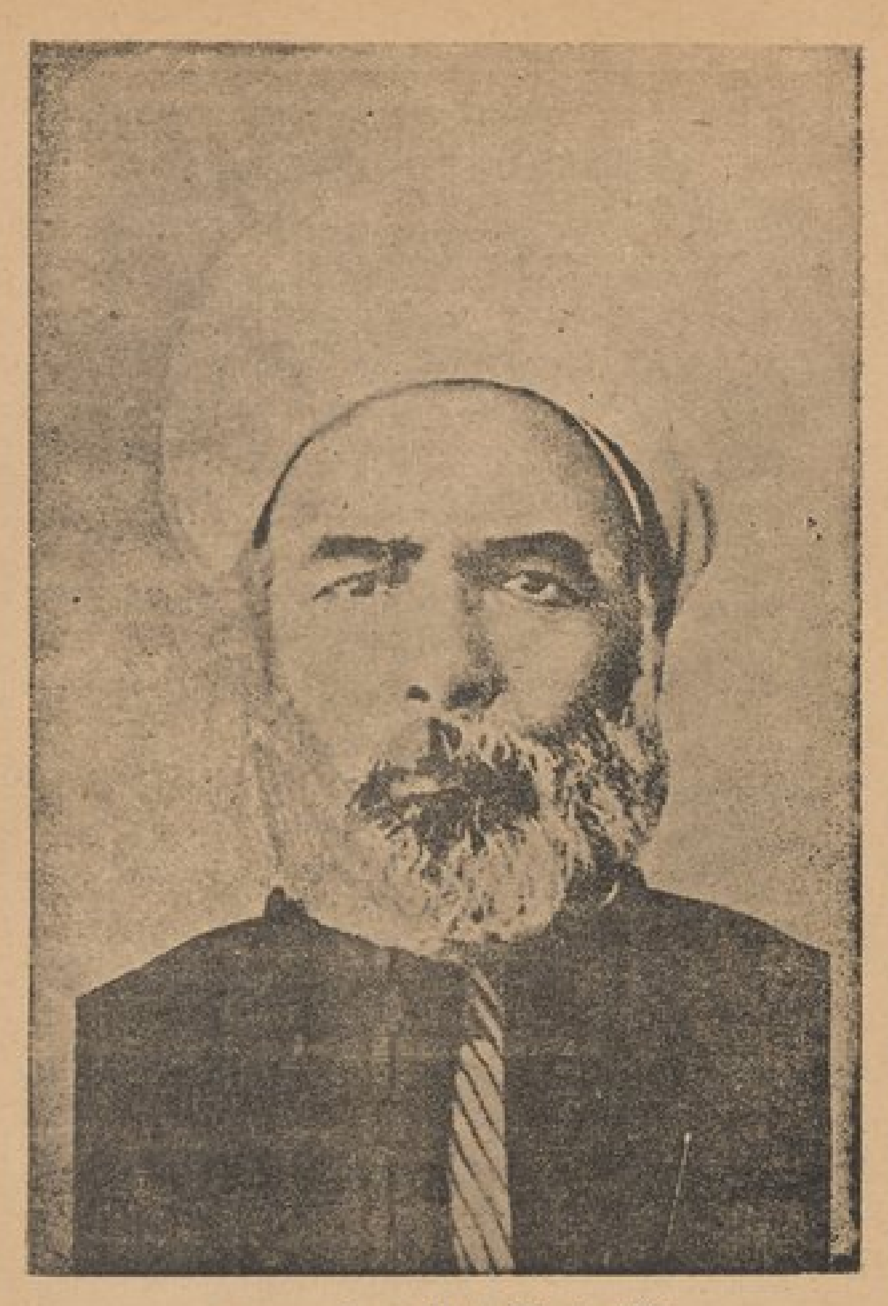
يعطف على ذكرى الأستاذ الامام

نطق ملكى كريم (١)

«إنى أريد أن أرى علماء الأزهر كعلماء الدين فى أوربا، لهم بجوار تعاليم الدين إلمام واسع بفلسفة الكون والحياة. وقد كان الشيخ محمد عبده مثالا واضحا للعالم الدينى الذى أريده للأمة. وأريد أن يلم علماء الدين بأساليب الحياة ويحرصوا على كرامتهم كما يحرصون على التمسك بمبادئ الدين ونشره للناس عامتهم وخاصتهم».

---

١ - كان سعادة عبد السلام الشاذلى باشا عام ١٩٣١ مديراً للبحيرة وفيها بلدة الامام، ورئيساً لمجلس المديرية. وقد تمكن سعادته بعد مشاورات طويلة من الحصول على موافقة مجلس المديرية على إيفاد بعثة الى أوربا تحمل اسم الامام – وكان لمعالى مصطفى عبدالرازق باشا أثر مشكور فى هذا الاتجاه – وفى ٥ أكتوبر من ذلك العام تشرف سعادته بمقابلة المغفور له جلالة الملك فؤاد ومعه الدكتور محمد البهى والدكتور محمد عبد الله ماضى الأستاذان بكلية أصول الدين الآن. وقد تفضل جلالة الملك الراحل فوجه لعضوى البعثة بعد أن امتدح ماقام به الشاذلى باشا لتخليد ذكرى الامام هذا النطق الملكى الكريم.



الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

المقدمة

لمعالى مصطفى عبد الرازق باشا

حضرة الأستاذ الجليل

حينما تلقيت كتابك تطلب إلىّ أن أكتب كلمة عن الأستاذ الإمام ، وجدت معانى شتى تتوارد إلىّ من تلك الآفاق الواسعة ، التى بث فيها الإمام من روحه وجهاده ، فما يدرى الناظر فيها أيتها يأخذ وأيتها يدع . والحق أن الشيخ الإمام لم يدع منفذا من منافذ الحياة المصرية أو الشرقية أو الإسلامية إلا ترك به أثرا من آثاره الجليلة ، فكان له فى السياسة وفى الصحافة أعظم مشاركة ومساهمة ، وفى الدين والفتيا كان زعيما للإصلاح والتجديد العادل المتزن ، وفى التعليم كان المجاهد الصادق ، إذ يعد عمله فى إصلاح الأزهر أقوى خطوة جريئة فى هذا السبيل يخطوها رجل يخلص لبلاده وثقافته ، غير عابىء بما يثار حوله من فتن ، وكانت دروسه التى تعقد حلقاتها فى الأزهر وغير الأزهر نموذجاً عاليا فى علوم التفسير والكلام والمنطق والبلاغة . وقد كان لى من شرف التلقى عنه نصيب.

إن ذلك النشاط الموفور الذى كان يحفز الإمام إلى معالجة جميع نواحى الحياة المصرية لم يمنعه وهو يزاول القضاء الأهلى ويعنى بأمره أن يختص القضاء الشرعى بقسط وافر من عنايته، ففكر فى إصلاحه وإنهاضه بعد عهد شاعت فيه فوضى التقاضى، ووضع تقريرا قيما لإصلاح المحاكم الشرعية، وأصدر من الفتاوى الهامة ما لا يزال نبراسا هاديا للمفتين والباحثين.

وأنت تنظر من زاوية أخرى فتلفيه ذا مشاركة كبيرة فى المناظرات الدينية التى كانت تدور فى عصره. ولا يزال ردّه على «هانوتو» مدوّيا يتردد فى الأسماع. ثم تراه داعية من دعاة البر والتعاون الاجتماعى، فهو رئيس للجمعية الخيرية الإسلامية، وهو عضو من أعضاء لجنة إعانة جرحى وأرامل وأيتام الجيش المصرى فى السودان، يهيب بذوى المروءة لنجدتهم وإنعاشهم، وهو يؤلف لجنة من أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية لإعانة منكوبى حريق ميت غمر، ويذهب بنفسه إلى دور الأمراء والأثرياء طالبا منهم المعونة والغوث.

وقد كان جهاد الامام فى منفاه لايقل روعة عن جهاده فى مصر ، فكوّن مع السيد جمال الدين جمعية العروة الوثقى ، وأنشأ معه صحيفة باسمها تؤدى رسالتها فى إحياء الجامعة الإسلامية والرابطة المصرية والسودانية . وكان لهذه الصحيفة من الأثر البالغ مادفع خصوم حركته إلى مصادرتها . واتصل الإمام فى منفاه بكبار رجال العلم والسياسة ، فكان خير داعية لمصر والشرق .

وهكذا كانت حياة هذا الرجل العظيم شعلة مضيئة ، ونهرا جاريا ، وقوة دافعة .

•

إنى لأجدنى فى حاجة إلى الحديث ، فليس الأستاذ الإمام ممن يتحدث المرء عنهم برهة أو ساعة ، ولكنه أفق واسع ، أنى تأملته وجدت مجالا للحديث والرأى والتعليق ، لأنه أفق الحياة .

إنى لأشكر لك أن مكنتنى أن أؤدى لأستاذى الإمام بعض حقه فى هذه الكلمة الموجزة ، وأشكر لك أيضا توجهك إلى الوفاء له بوضع هذا الكتاب . وإنى لأرى فيما كان لك من

حظوة التنشئة فى بيت الامام ، ومن وشيجة الرحم التى أظلتك بعطفه ورعايته ما يجعل لكتابك هذا قيمة خاصة ، ومعنى ساميا من معانى البر والولاء .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

مصطفى عبد الرازق

١٩ / ٢ / ١٩٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لو جاس الإنسان خلال عواصم الغرب ومدنه لأدهشته الآيات القائمة فى كل مكان لإحياء ذكرى العظماء الذين نعموا بالدار الآخرة بعد حياة قضوها فى أزمنة اختلفت فى أسباب الحضارة والرقى، كما اختلفت فى العادات والأخلاق، والظروف والأحوال.

والدول التى تحيى ذكرى أبطالها النابهين ورجالها المبرزين دول أدركت ما لهذا العمل من أثر وفائدة، فتخليد ذكراهم بالنصب أو التماثيل أو الرموز أوغيرها من الوسائل المختلفة إنهاض للشعوب، وبعث لصفحات من الجهاد بيضاء ناصعة، وإحياء لكتاب خالد يشهد بالعبقرية والتضحية فى سبيل المجموع، وكلها تنمى الشعور، وتوجد الثقة فى النفس، والاطمئنان للمستقبل، كما ترشد إلى الطريق السوى كلما أظلم الجو وتلبدت سحب الحوادث.

وإذا نحن قارنا ما يشاهده الإنسان فى مدن الغرب بما حرمت منه البلاد المصرية لمسنا ناحية من نواحى النقص، فان ما أقيم حتى الآن لتخليد ذكرى العظماء قليل، وعدد من هذا القليل لم يفكر فى إقامته إلا فى السنوات الأخيرة. ولا يرجع الاهمال فى إقامة رموز الوفاء التى تبعث ذكرى النابهين حية فى كل وقت الى فتور همة المصريين أو تقصيرهم فى العمل على تخليد

ذكرى أبطالهم ، ولا إلى انكارهم زعامة الزعماء وجهود المجاهدين ، وإنما ترجع الى الظروف التى أحدقت بمصر ، والمشكلات التى تعاقبت عليها فى السنوات الماضية فحولت جهود الأفراد إلى العمل على الخلاص من وطأة الاحتلال ، والكفاح فى سبيل الحرية والاستقلال ، ثم الى اختلاف الهيئات والأحزاب السياسية ومعارضة كل منها للآخر ، والعمل على إحباط مساعيه والحط من شأن رجاله فى نظر الناس ، وكذلك الى التهم التى يرمى بها المجاهد أو العظيم من خصومه وأعداء أفكاره للتقليل من شأنه انتظاراً لنفع يصيبهم أو مغنم يفوزون به

٭٭٭

وهذا الأستاذ الامام الشيخ «محمد عبده» قد وجه ضده كثير من الحملات التى كان لها أثر كبير فى انصراف بعض الناس عن صداقته فى حياته ، وعن تفهم آرائه ودراسة تعاليمه بعد وفاته ، ثم إهمالهم تخليد ذكراه وإعراضهم عن ذلك كلما دعا اليها داع أو هتف بها هاتف . وليس أدل على ذلك من قول معالى مصطفى عبد الرازق باشا :

«فى بعض سنوات الحرب ، شهدت فى الجامعة المصرية قبل ضمها إلى وزارة المعارف حفلة جمعت جمهرة من شباب العلم ، وخطب فيها طائفة من كبار الأدباء وكبار الأساتذة ، وكان يجرى على ألسنة الخطباء ذكر أئمة النهضة الحديثة فى مصر فى فروعها المختلفة من سياسية واجتماعية وعلمية فتهتف الجموع ويبلغ حماس الشباب أقصاه ، حتى إذا جرى ذكر الشيخ محمد

عبده خفت هنالك صوت الشباب وفترت حدة الهاتفين .

« انصرفت يومئذ حسيرا محزونا أكاد أتهم بقلة الوفاء بلداً ينسى فيه فضل الشيخ محمد عبده بعد سنين . لكن عتبي على شبابنا كان ممزوجا برحمة لأنهم لم يعرفوا من أمر الرجل شيئا يغريهم بأن يحبوه ويقدروه حق قدره .. ولعل قصارى ماكان يعرف طلاب العلم فى ذلك العهد من أمر الإمام أنه كان شيخا مكروها هو وآراؤه من الشيوخ »[1] .

كان الشيخ محمد عبده كما ذكر اللورد كرومر : « عالما من طراز آخر يختلف عن أصدقائه ومعاصريه من العلماء ، متميزا عنهم جميعا ، وكان أحد قادة الفكر الذين هيمنوا على الحركة العرابية إن لم يكن روحها »[2] .

وكان الإمام « من أحسن وأحكم الرجال العظماء »[3] كما قال المستر بلنت .

والواقع الذى لا شك فيه أن الأستاذ الامام كان قبسا من نور وهاج يضىء فى ظلمة تكاد تكون حالكة ، وكان الظلام يتكاثر عليه من كل ناحية .. ظلام الجهل الذى تفشى بين الناس فعاق البلاد عن التقدم والرقى ، وظلام الضلالة والفساد لطول الزمن الذى مر على عهد المصلحين من رجال الاسلام والمجتهدين فيه ، ولكثرة البدع والخرافات التى لحقت

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر ـ المقدمة لمصطفى عبد الرازق باشا .

٢ ـ مصر الحديثة الطبعة الانجليزية صفحة ٥٩٨ .

٣ ـ التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر صفحة ٨٠ .

به .. وظلام الضغينة والحسد الذى ملأ القلوب فحول أصحابها الى جامدين كارهين للاصلاح .. وكانت تهب على هذا القبس من النور آراء سخيفة، ومعتقدات باطلة، وأوهام كاذبة تحاول أن تطفئه أو تخفى ضوءه ليصفو لأصحابها الجو وتخلو أمامهم السبل، ولكن الامام كان قوى الايمان، راسخ العقيدة فمضى فى سبيله قدما معرضا عن الجاهلين.

وكثيرا ما كنت أصغى للقصص التى يرويها أفراد عائلتى عن الامام وجهوده فأعجب بذلك الجد العظيم الذى ناضل كل هذه الأهواء ثم اشترك أعداؤه مع أصدقائه بعد وفاته فى تقديره والإعجاب به والترحم عليه. وقد دفعنى إعجابى بهذا الجد وتقديره إلى دراسة حياته ونشرها رعاية لهذه الصلة وأداء لبعض دينه علىّ.

ولست أدعى أنى بهذا الذى كتبته عن الإمام قد وفيته حقه، وأحطت به من جميع نواحيه، وكشفت عن سر عظمته البالغة، فان ذلك كله لأعظم من أن يحصره كتاب صغير مثل هذا الكتاب. وكل ما أستطيع أن أقوله عن باكورة أعمالى الأدبية أنها مجموعة من المقالات كانت معانيها تجيش فى صدرى الفينة بعد الفينة، وكنت أدونها حتى أرجع إليها عند الحاجة، فلما تكاملت منها هذه الخطوط الواضحة بعض الوضوح عن حياة الامام سقتها حسب الحوادث وأخرجت منها هذا الكتاب.

وكان عمدتنا فى البحث كتابين أحدهما « تاريخ الأستاذ الامام » للسيد رشيد رضا صاحب المنار وأحد تلاميذ الامام وأصدقائه المقربين، وثانيهما

« الاسلام والتجديد فى مصر » للدكتور تشارلز آرمس المستشرق الامريكى والاستاذ بالجامعة الأمريكية . وقد ظهر فى العام الماضى وبعد إتمام بحثنا هذا كتابان الأول للاستاذ عثمان أمين ، والثانى للاستاذ محمد صبيح ، ولكننا مع ذلك لم نتوان عن الاطلاع عليهما والاستفادة منهما على قدر ماسمحت به الظروف .

وهناك كثير من الكتب تعرضت للامام وحياته أشير اليها فى الفهرس أضعها كلها وكتابى هذا بين أيدى القراء راجيا أن تحل الامام من قلوبهم المكان الجدير به من التقدير والاعجاب ، وتدفعهم إلى السعى لتخليد ذكراه .

° ° °

وأرى لزاما علىّ فى معرض الحديث عن ذكرى العظماء ونصيب الامام من هذه الناحية أن أذكر مع الشكر الجزيل ، والثناء العاطر ، ما كان لمعالى مصطفى عبد الرازق باشا من سعى متواصل لتخليد ذكرى الامام ، فان ما بذله من سعى متواصل كاد يكلل بالنجاح على عهد وزارة المرحوم حسن صبرى باشا لولا وفاة دولته الفجائية وما أعقب ذلك من مشاغل السياسة وأهوائها المختلفة . وهناك الصلة الروحية التى هى أهم من هذا كله لأنها معيار لمعدن النفوس ، فإن مصطفى عبد الرازق باشا يكاد يكون الوحيد فى مصر الذى لا يزال يرعى العهد لدار الامام ، ويحفظ الود لأفراد أسرته ، وإنه ليذكرهم بالخير الذى هو أهل لأدائه .

وأخيرا أقدم الشكر لصاحب العزة عوض ابراهيم بك الوكيل الأسبق لوزارة المعارف ، والأستاذ سيد قطب الكاتب والأديب المعروف على ما قدماه من إرشادات قيمة .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والسداد ؟

عبد المنعم حمادة

الفصل الأول

١ - أصل الامام ونسبه ٢ - مولده ونشأته
٣ - جيله وبيئته

أصل الإمام ونسبه

كثيرا ما يحتاج بعض النـاس إلى تلفيق نسبتهم إلى أصول عريقة وأحساب باذخة ليصلوا إلى مكانة فى الهيئة الاجتماعية ما كانوا ليصلوا اليها لولا هذا التلفيق، أو لينالوا احترام الأوساط التى تحيط بهم احتراما ما كانوا ليصلوا اليه لولا ادعاء النسب العريق، والحسب العريض، والجاه القديم .. ولا شك أن أمثال أولئك الناس محدثو نعمة يغريهم الجاه الكاذب ويستهويهم الزخرف الخادع .. غير أن العظيم العصامى الذى يبلغ أوج العظمة بجده واجتهاده، ويصل إلى السماكين بإخلاصه وإيمانه، لايغريه أن ينسب إلى شجرة قديمة المنبت، كثيرة الفروع، وارفة الظل، كما لا يضيره أن ينسب إلى أصله كما هو بغير إطار من الزخرف يبهر الناظر على ضلال وغش ..

وكان هذا شأن محمد عبده وقد بلغ مكان الإمامة، وغدا محط الأنظار لم يغره المنصب والجاه، والتفاف الناس حوله، وتعليق المسلمين آمالهم عليه وتوجههم بأبصارهم وقلوبهم اليه ..

لم يحاول محمد عبده ادعاء النسب العريض، وأبى وقد رفعه علمه، وسمت به نفسه، أن يسلم بكل ما قيل له عن هذا النسب، كما رفض أن يقبل كل الذى قيل له من غير بحث أو منـــاقشة، لأنه كان يعلم أن أكرم الناس عند الله أتقاهم لا أعظمهم حسبا وجاها، ولا أكثرهم مالا وولدا، ولا أرفعهم منصبا ومقاما، ولأنه كان يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ائتونى بأعمالكم ولا تؤتونى بأنسابكم » .

ينسب الإمام إلى أسرة تركمانية الاصل وفى ذلك يقول : « كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت التركمان، فسألت والدى عن ذلك فأخبرنى أن نسبنا ينتهى إلى جد تركمانى جاء من بلاد التركمان فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام بمديرية البحيرة مدة من الزمن، ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه، واتخذ له خلوة فى المحل الذى أسست فيه قرية محلة نصر . فلما توفى رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الفرنوانى أن يبنوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبـة ويسكنوها، ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون من مجموعها قرية محلة نصر »[1] .

وأما بيت والدته فيقال إنه ينحدر من سلالة عربية، ويقول الإمام فى

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٦ .

ذلك : « أما بيت والدتى فيقال إنه عربى قرشى وأنه يتصل فى النسب بعمر ابن الخطاب رضى الله عنه . ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها » [١] .

من هذا نرى أن محمد عبده لم يحاول تفخيم نسبه ولكنه ذكر ما سمعه من والده من غير تحريف أو زيادة ، ولم يعمد فى قصته إلى التنسيق وذكر الحواشى تعظيما لقدره وتفاخراً بأصله ، ولكنه قص ما رواه الناس الذين كثيرا ما يبعدون عن الصدق فيما يقولونه أو ينقلونه ، والذين كثيرا ما يتعرض النقل بسببهم إلى الزيادة أو النقص أو التحريف .

لم يأخذ محمد عبده لهذا بما سمعه أخذ الواثق المطمئن ، ولكنه ناقش ما وصل إلى آذانه عله يصل إلى بعض الحقيقة فقال : « إن ما أسمعه عن بيت والدى ووالدتى إنما هو روايات فى أفواه الأهل والأقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق إلى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيد فى الفضل ، غير أن ذلك يأتى فى الانتساب إلى قريش وعمر ابن الخطاب ، أما فى الانتساب إلى أصل تركمانى فلا أظن ذلك يأتى ، ولهذا يترجح عندى جانب صحة الخبر ويؤيده ما يرى فى أهل بيتنا من بعض الخصال التى لا يشاركهم فيها من يجاورهم فى مساكنهم » [٢] .

أما متى نزح أولئك التركمان إلى المكان الذى بنوا فيه القرية التى سميت

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٦ .

٢ - نفس المصدر صفحة ١٩ .

محلة نصر فلا يمكن تحديد تاريخه، ولم يذكر لنا الإمام فيما كتبه عن أصله ونسبه ما يسهل لنـــا طريق البحث عن هذا التاريخ .. وكل ما وصلنا اليه أنهم هبطوا تلك القرية وكان من ذريتهم جد محمد عبده وكان يسمى «حسن خير الله» وكان إلى جانبه من أهل بيته اثنا عشر رجلا ظلوا جمعا مكتملا وشملا موحدا حتى تفرقوا فى أواخر حكم «محمد على باشا الكبير»

ولتفرق وحدة هذه الجماعة ونزوح أفرادها عن البلد الذى استوطنوه والمكان الأول الذى هبطوا اليه، والذى فيـــه بيوتهم ومساكنهم قصة طريفة كتبها الإمام نفسه . وإن هى دلت على شىء فانما تدل على مقدار استهتار الحكام بحرية الأفراد فى ذلك العصر، ومقدار العنت الذى كان يصيبهم، وعدم مبالاة المسئولين بما كان يجرى فى الأقاليم النائية من ظلم وعدوان، يقول الإمام فى قصته :

«جدى لأبى كان يسمى حسن خير الله توفى عن أبى وعمى بالهواء الأصفر الذى فتك بسكان القطر المصرى فى أواسط القرن الماضى . ويقال إنه كان له قبل موته من بنى عمه وذوى عصبته نحو اثنى عشر رجلا وشى بهم واش من بيت آخر جاء البلدة، وسكن فيها، وحسد أهل الحسب من سكانها، فسعى بأهل هذا البيت «بيت خير الله» عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح، ويقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم فأخذوا جميعا وزجوا فى السجون واحدا بعد واحد، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتا، وكان جدى حسن شيخا بالبلدة وهو الذى بق

من البيت مع ابن أخيه ابراهيم .

« بعد وفاته طالت يد ذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة إلى سلب ما كان فى البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه ، فإنه لم يكن بقى إلا والدى فى سن الرابعة عشرة ، وعمى فى سن السادسة عشرة ، وابراهيم فى سن الثامنة عشرة ، والنساء ، فأخذ جميع ما كان فى البيت حتى الأبواب وبعض أخشاب السقوف ، فهاجر والدى وعمى ومن معهما من البلدة ولجأوا إلى خال والدى الحاج محمد خضر وكان عمـــدة فى قرية صغيرة تعرف بكنيسة أودين من مركز شبراخيت ، ولكنه لم يستطع إيواءهم عنده خوف الاضطهاد لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلت أحقاد الظلمة من الحكام والوشاة ، فأخذهم خفية وسار بهم إلى مديرية الغربية عند أحد أقاربه فى قرية يقال لها منية طوخ بمركز السنطة ، ثم انتقلوا إلى قرية بجانبها تسمى « شتراء » وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فى زراعتها إما بأنفسهم أو بشركاء يعملون بأيديهم ويقتسمون الريع معهم ، واشتهر والدى بالفتوة والبراعة فى الصيد بالسلاح وأحبه لذلك مصطفى افندى المنشاوى ومحمد أخوه وكانا موظفين فى دائرة المرحوم « اسماعيل باشا » الخديوى ، الأول فى وظيفة مفتش زراعة والثانى بوظيفة ناظر ، وطابت له صحبتهما وعدوه كأنه واحد من أهلهما ودام ذلك مدة سنين .

« ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر وضاقت بهم السبل ، كما كان ذلك

الواشى يسومهم من الخسف والذل أخذوا يتسللون بيتا بعد بيت يهجرون القرية ويذهبون ليقيموا فى جوار من سبقهم من أهلى ، فأحس الشق بإشراف القرية على الخراب وفى ذلك انتقاص منافعه وخسارة كبيرة فى مصالحه ، فجدد الوشاية بوالدى ومن معه ورفع شكوى إلى مدير البحيرة - وكان فى شبراخيت - يذكر فيها أن والدى مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية - وكان قد صدر أمر المرحوم « عبـــاس باشا الأول » بتجريد الأهالى من السلاح وحظر حمله عليهم - فكتب مدير البحيرة بذلك إلى مدير الغربية واتهم مع ذلك مصطفى أفندى المنشاوى بإيوائه بعض الفارين من العسكرية فأخذ الجميع على غرة وقبض عليهم فى بيوتهم وسيقوا إلى مديرية الغربية ، أما مصطفى افندى المنشاوى فأرسل إلى ليمان الاسكندرية ، وأما والدى ومن معه فأرسلوا إلى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك إلى أن يصدر الأمر فى شأنهم . ولم يزالوا فى السجن إلى أن توفى « عباس باشا » فأفرج عنهم وعن غيرهم . وبعد ذلك عاد والدى إلى مسقط رأسه فى أول ولاية المرحوم « سعيد باشا » ولم يجد شيئا مما كان يملكه غير جدران البيت مهدمة » (١) .

أفرج عن عبده خـير الله ، وما كاد يحس نسيم الحرية يهب عليه من جديد حتى عاد إلى وطنه الأول فرحا بنجاته سعيدا بحريته . . عاد عبـده خير الله إلى محلة نصر وكان قد سبقته اليها زوجه وولده محمد عبده . (٢) عاد

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٤ و ١٥ .

٢ - اعتمدنا فى قولنا هذا على رواية الامام وسنبين فى الفصل القادم كيف اختلف الكتاب فى تعيين المكان الذى ولد فيه .

عبده شامخ الأنف مرفوع الرأس بعد أن صقلته التجارب وعلمته الأيام .. عاد ناسيا كل شيء ، راغبا عن كل شيء إلا رعاية ولده ، والقيام على تربيته وتعليمه ، عاد بعد أن نسى كل شيء إلا العمل على إعادة ما كان لبيته من تقدير ومكانة نالها فى أعين الناس لما اتصف به أهله من الكرم والشجاعة والشهامة والإباء وعزة النفس .

وإذا كان عبده خير الله قد ضرب صفحا عن كل شيء فإن شيئا واحدا بقى يتردد على لسانه ، ذلك هو صورة أيام محنته وفراره من وجه الظلم والظالمين . وكثيرا ما كان يقص على الناس فى مجالسه الخاصة والعامة أنواع المحن التى قاساها حتى طبعت فى أذهان أولاده وأهل بيته وعشيرته صورة لذلك العصر تحدث بها بعضهم لبعض جيلا بعد جيل .

وإذا كان الإمام قد عرف فيما بعد بانتصاره للمظلومين ورغبته فى إنصافهم ، كما عرف بدعوته إلى التميز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة فإن بعضا من الفضل فى هذا يعود إلى تلك الأقاصيص التى كان يسمعها من والده ، وإلى تلك المحن التى طبعت فى مخيلته عن الشدائد التى قاساها ذلك الوالد البر الرحيم الذى أجله واحترمه وقدره منذ صغره .

مولده ونشأته

اختلف الكتاب والمؤرخون فى تحديد التاريخ الذى ولد فيه «محمد عبده» فذكر بعضهم أنه ولد عام ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩ م، [١] وذكر بعضهم أنه ولد عام ١٢٥٨ هـ - ١٨٤٢ م، [٢] وذهب بعض الروايات إلى أنه ولد عام ١٨٤٣ م [٣] أو ١٨٤٥ م [٤]. وكان لاختلاف المؤرخين فى تحديد هذا التاريخ أثر كبير فى تحديد عمره حتى لقد ذكر له ثلاثة أعمار، [٥] ولكننا نميل إلى الأخذ بالتاريخ الأول وذلك لأسباب كثيرة منها: أن صاحب الترجمة ذكره فى كثير من أحاديثه وإن كان قد ذكر عاما أسبق، [٦] ومنها أن أصدقاءه ومريديه وعلى رأسهم «حسن باشا عاصم» ذكروه فى مراثى التأبين التى ألقيت يوم الاحتفال بمرور أربعين يوما على وفاته، ومنها أن صديقه وتلميذه المرحوم «السيد رشيد رضا» ذكره فى مؤلفه الكبير دون أن يعترض عليه أو يناقشه.

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢١ .

٢ - نفس المصدر (هامش) وقد أخذه عن مجلة الضياء للشيخ ابراهيم اليازجى ومجلة الهلال لجورجى زيدان.

٣ - تاريخ الاستاذ الامام جزء ٣ صفحة ١٤٨ .

٤ - نفس المصدر صفحة ٩ و ١٣١ .

٥ - جاء فى بعض المراثى التى نشرت بعد وفاته أن عمره ٦٠ سنة ، وفى بعضها أنه ٦٢ سنة ، وذكر فى غيرها أنه ٦٥ سنة.

٦ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢١.

ولم يكن اختلاف الكتاب والمؤرخين فى تاريخ مولده وتحديد عمره وحدهما ولكنهم اختلفوا كذلك فى تحديد البلد الذى ولد فيه فذكر بعضهم وعلى رأسهم الإمام نفسه بلدة «شنراء» وهى قرية صغيرة من قرى مديرية الغربية هاجر اليها والده فرارا من ظلم الحكام كما بينا من قبل، ثم انتقلت به أمه بعد مدة قصيرة من ولادته الى مسقط رأس أبيه والبلد الذى هرب منه أهله ثم عادوا اليه بعد أن استقرت الأمور وخفت وطأة المظالم. يقول الأستاذ الإمام: «تقـدم أنه طالت إقامته ـ أى إقامة والده ـ فى مديرية الغربية، ويقال إن مدتها بلغت نحو خمس عشرة سنة، وفى أثنائها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشنراء، وعرف فيمن عرف بيت والدتى وهو بيت كبير فى بلدة تسمى (حصة شبشير) يعرف ببيت عثمان كان كبيره إذ ذاك جدى ابراهيم عثمان الكبير فتزوج والدتى ـ وكانت أيما ذات ولد يسمى ابراهيم ـ وأخذها إلى شنراء وفيها ولدت فى أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والألف من الهجرة.»[1].

وأما الفريق الآخر وعلى رأسه حضرة «محروس افندى عبده» ـ شقيق الإمام من والده ـ فيقول إنه ولد فى قرية «محلة نصر» وهى قرية صغيرة بمديرية البحيرة فى الطريق ما بين دمنهور ومركز شبراخيت يصل اليها المسافر عن طريق يمتد من بلدة لقانه على حافة ترعة تسمى الأنصارية،

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٥ و١٦ . وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكر فيها الامام هذا التاريخ وأشار اليها تشارلز آدمس فى كتابه.

ورغبة منى فى التأكد من هذا الأمر والوصول إلى الحقيقة، سألت حضرة محروس افندى وكنا جالسين فى شرفة داره بالريف فى صباح يوم من أيام صيف عام ١٩٣٩ عن السبب فى هذا الاختلاف فقال إنه سمع من والده أن هجرته إلى مديرية الغربية لم تكن واحدة، وإنما كانت هجرتين وأنه عاد من هجرته الأولى وزوجه فى الاشهر الاخيرة من الحمل ولزم قريته «محلة نصر» حتى ولد له «محمد عبده» ثم كانت الهجرة الثانية بعد أن ولد محمد عبده بقليل، ولكنها كانت قصيرة الاجل لأنه لم يمكث بشتراء وهى نفس البلد الذى هاجر اليه فى المرة الثانية غير مدة قصيرة عاد بعدها وقد بلغ الامام من العمر عاما ونصف عام، وخيل إلى الناس وقد رأوا الإمام محمولا على كتف أمه عند عودتها وزوجها أنه ولد أثناء هذه الهجرة الثانية.

ويستدل شقيق الامام على صدق ما ذهب اليه من أن محمد عبده ولد فى محلة نصر بقصة لا نرى مانعا من سردها على القراء لما فيها من طرافة .. يقول محروس أفندى إنه كان فى محلة نصر رجل ضرير يعتقد الناس فى صلاحه وتقواه .. وحدث ذات يوم والضرير يزور والد الامام فى منزله أن أسرع الرجل إلى عصاه فخط بها فى ناحية من المكان الفسيح الذى كانا يجلسان فيه دائرة وقال لمضيفه «أقم فى هذا المكان الذى خططته لك حجرة وستكون مباركة إن شاء الله». ولما سأله والد الإمام عن السبب الذى دعاه إلى أن يطلب منه ذلك قال: «رأيت فيما يرى النائم أن النبى عليه الصلاة والسلام جالس فى هذا المكان». واستبشر صاحب

الدار بما سمعه، ولم تمض أيام حتى أقام صاحب الدار الحجرة التى طلب منه إقامتها والتى ولد فيها الإمام بعد ذلك .. وقد سميت هى والمولود الذى فتح عينه لأول مرة على فضائها الضيق المحدود، ونورها الضعيف الخافت باسم النبي عليه الصلاة والسلام تيمنا وبركة.

وإذا كان الكتاب والمؤرخون قد اختلفوا فى تاريخ مولده، وفى تحديد سنه، وفى البلد الذى ولد فيه، فإنهم اتفقوا جميعا على أنه نشأ وتربى « بمحلة نصر ». يقول الأستاذ « أحمد الشايب :

« ولد محمد عبده فى بلدة أبيـــه أو أمه على خلاف بين المؤرخين، ولكنه على أية حال درج ونشأ فى محلة نصر لا يختلف فى هذا أحد ». (١)

واتفق الكتاب والمؤرخون كذلك على أنه نشأ كما ينشأ أطفال الريف عادة. غير أننا نلاحظ أنه كان يختلف عن أولئك الأطفال فى بعض النواحى، مثال ذلك أنه لم يترك للطبيعة تعمل عملها فيه، ولكنه لقى من رعاية والديه وعنايتهما به ما حفظ خلقه وصان صحته، ولم يهمل محمد عبده الإهمال الذى يسمح له بارتياد الأزقة والحارات، والتغيب فى الحقول طيلة النهار، والجرى وراء البهائم، وإنما عنى به والداه عناية ملحوظة ظهرت آثارها فيما بعد. يقول الأستاذ الشايب : « والظاهر أن هـــذا الطفل كان أحب أنجال أبيه اليه لوسامته أو مخايله المبكرة فلم يحملاه على سلوك سبيل الفلاحة كأخوته، بل تركاه مدللا لاعبا لا يكرهانه على الذهاب إلى

---

١ ـ الشيخ محمد عبده وهى رسالة صغيرة للاستاذ احمد الشايب صفحة ١٦ .

« المكتب » ذلك الذى كان مبغضا إلى أبناء القرى ولا يزال كذلك إلى اليوم لعقم الأسلوب التعليمى ، وأخذ الأطفال بالرهبة والاذى ، فدرج من المهد تحت سماء مصر الصافية ، وشمسها الساطعة ، وهوائها الطلق ورزقها الموفور ، ينعم بصحة وبسطة فى الخلق ، ويتغذى من شيم أبويه وآله بما كان أساسا صالحا لمستقبله »(١) .. وكان من دلائل هذه العناية أو هذا التدلل براعته فى السباحة والفروسية ولعب السلاح ، ولا تأتى هذه الأعمال وخصوصا الفروسية ولعب السلاح إلا من أبناء أصحاب البيوت المعروفة فى أمثال هذه القرى الصغيرة .

ولم يكن والدا الإمام من أثرياء الريف ، (٢) ولا من عظمائه ، ولا من أصحاب السطوة والجاه فيه .. ولم يكونا من العلماء الضليعين فى علمهم ، ولا من الباحثين الذين تحدث الناس بذكرهم ، ولكنهما كانا عاديين جمعا ما هو أفضل من هذا كله .. جمعا الخلق الكريم ، والفضل العظيم ، والكرم الحاتمى وقد حببتهما هذه الخصال الكريمة إلى الناس ، وجعلت لهما مكانا عاليا لا يناله إلا من صفا معدنهم ، وطهرت قلوبهم ، وخلصت سرائرهم ، يقول الدكتور « تشارلز آدمس » : « ويظهر أن أبوى محمد عبده كانا على خلق عظيم وأن لم يكن لهما حظ من العلم شأن الكثرة من العامة ومن أوساط الناس

---

١ — الشيخ محمد عبده صحفة ١٦ .

٢ — روى كاتب انجليزى انه كان يملك اربعين فدانا تقريبا أيام الثورة العرابية، وقد سمعت من احدى شقيقات الامام ان عبده خير الله كان من الملاك الزراعيين وانه هجر أرضه فرارا من ظلم الحكام وتعسفهم .

فى مصر حتى فى عصرنا الحاضر . وهو يتحدث عن أبيه فى الترجمة التى كتبها لنفسه - ولم يتمها لسوء الحظ - بعبارات مليئة بالاحترام العميق ، ويشير إلى أن أهل القرية جميعا كانوا يجلونه كل الاجلال ». [١] وفى أسباب احترام الناس لوالده وإجلال الولد لأبيه يقول الإمام : « أما عوامل هذا الإحترام وذلك الإجلال فأتذكر منها قلة الكلام أمامى ، ووقارا كان فى الحركات والأعمال والهيئة والتنزه عن مخالطة الصغار من الناس ، ومشاهدتى أهل بلده يحترمونه ويبالغون فى توقيرهم إياه ، وانفراده بالطعام دون والدتى وإخواتى فإن ذلك كان آية العظم عندنا فإنه ما كان يواكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات إلا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية .

« ثم وجدت والدى يقرى الضيف ويؤوى الغريب ، ويفتخر بإكرام النزيل ، وذلك كان يزيد منزلته من نفسى علوا ، وأنا لا أفهم من هذا إلا أنه شيء يفتخر به بدون أن أعقل له علة . وبالجملة كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية وكل من فيها دونه ، وهو بذلك كان أعظم رجل فى الدنيا فان الدنيا عندى لم تكن أوسع من قرية محلة نصر .. وكان يمدنى فى اعتقادى هذا رؤيتى لبعض الحكام كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون فى بيت العمدة مع أنه كان أوسع رزقا من والدى وأكثر دورا وأرضين ، ونشأ فى بذلك

---

١ - الإسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢٢ .

الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لايتعلقان بالثروة ووفرة المال » [١]

وتقاسم والدا محمد عبده شئون تربيته والسهر عليه مناصفة ، وأدى كل منهما قسطه بأمانة وإخلاص ، وكان لما بذلاه من جهد فى سبيل تنشئته نشأة صالحة أثر فى نفس الفتى ظل باقيا حتى ودع الدنيا غير باك عليها، وفى ذلك يقول الأستاذ الشايب : « وسنرى كيف ظهرت مواهب هذين الوالدين الجسمية والنفسية فى نجلهما محمد ، فكان له من هيبته وسمو أخلاقه أكبر مساعد على ما نال من نجاح واحترام . وعلم النفس يعرف للوراثة قيمتها فى تنقل المواهب والصفات من الآباء إلى الأبناء » . [٢]

فأما ماورثه الفتى عن أبيه « عبده خيرالله » فيقول فيه يوم طلب إليه أن يقص تاريخ حياته : « وكنت أعقل من صغرى ماكان عليه والدى من ثباته فى عزيمته ، وشدته فى المعـــاملة ، وقسوته على من يعاديه . وقد أخذت عنه ماعدا القسوة وأحمد الله ولا أحصى ثناء عليه » . [٣]

ولم تكن والدته السيدة « جنينة » بأقل شأنا من والده ، وكان يحمل لها من الحب والاحترام مثل الذى كان يحمله لذلك الوالد . وقد زاد من حبه لها وإجلاله لمقامها ماكانت تتحلى به من كريم الأخلاق وحميد الخصال ، وماكانت تحظى به من تقدير نساء القرية وثنائهن ، يقول الامام عن والدته : « أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٣ .

٢ - الشيخ محمد عبده صفحة ١٦ .

٣ - المصدر الاول صفحة ١٤ .

والدى ، وكانت ترحم المساكين، وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا ، ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك فى نفسى إلى اليوم »[1] .

وكان لمحمد عبده أخوة كثيرون بعضهم أشقاء وبعضهم من أبيه ، أما الاشقاء فزمزم ومريم .. وقد توفى جميعهم ولم يبق على قيد الحياة غير الاستاذ محروس والسيدة فاطمة وهما من غير الاشقاء .

وأما والده فقد توفى فى بلدة محلة نصر ، وتوفيت أمه بشارع الناصرية بالقاهرة وكان الإمام يومها قاضيا بمحكمة السيدة زينب .

ولم يبق من أنجال الإمام غير السيدة هانم ، وتوفى ولده الوحيد فى حياته وكان فى سن التاسعة عشرة . رحم الله من توفى رحمة واسعة وأطال فى حياة الاحياء .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٤ .

جيله وبيئته

للجيل الذى ينشأ فيه الزعيم أو المصلح والبيئة التى تحيط به أثر كبير فى تكوين حياته.

وقبل أن نتعرض لجيل «محمد عبده» يجب أن نذكر شيئا عن الاحداث التى توالت على مصر فى السنوات التى سبقته، وماكان لهذه الاحداث من أثر فى بث الروح المعنوية، وإثارة الرغبة فى تتبع خطوات النهضة التى سارعت اليها الشعوب المختلفة.

وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ م غير أن المقام لم يستقر بها طويلا، فما هى إلا سنوات حتى تم رحيلها وجلاؤها عن البلاد. وإذا كانت الحملة قد فشلت من الناحية الحربية إلا أنها لاقت نجاحا كبيرا من الناحية العلمية، ودليل ذلك ماكان لها من فضل فى القضاء على العصور الوسطى فى مصر، والتقدم بالبلاد نحو العصور الحديثة. ويغالى بعض الكتاب فيقولون إن الحملة كانت سببا مباشرا فى إثارة روح القومية، والرغبة فى الاستقلال، كما كانت سببا فى إشعار المصريين بأنهم أكفاء لإدارة دفة شئون البلاد، والقيام بأعباء الحكم الذى حرموا منه أيام المماليك.

وكان لضغط الفرنسيين وقسوتهم فى تنفيذ الاحكام كلما بدرت لهم بادرة من استياء المصريين أثر قوى كذلك فى إثارة روح التذمر بين أفراد

الشعب . ومرت الايام وهذا الشعور يزداد فى قلوب المصريين قوة حتى انفجر فى ثورتى القاهرة الاولى [١] والثانية [٢]، وكان المصريون فيهما مثلا للتضحية والتضامن والإخلاص للوطن ، وما من شك فى أن الحملة أثارت فى المصريين روح الكرامة ، وبعثت فيهم حب الاستقلال والحرية ، وأحيت فيهم رغبة القيام بحكم أنفسهم واختيار المسئولين عنهم . وقد ظهرت هذه المشاعر كلها جلية واضحة فى اختيار المصريين « محمد على باشا » واليا على مصر ، وظهرت فى وقوفهم كتلة واحدة ضد « خورشيد باشا [٣] » من ناحية ، ، وضد تركيا [٤] من ناحية أخرى لتنفيذ هذا الاختيار الذى اتفقوا عليه ، وأجمعوا رأيهم على المضى فى تحقيقه . . وقد استطاع المصريون بفضل يقظتهم وانتباههم أن يشتركوا مع الوالى الجديد فى إدارة شئون البلاد والنظر فى كل مايهم الصالح العام .

واستمر الحال على ذلك مدة من الزمن، حتى إذا اطمأن « محمد على

---

١ - قامت ثورة القاهرة الاولى فى ٢٢ اكتوبر من عام ١٧٩٨ م فى وقت لم يكن يتوقع فيه الفرنسيون هذه الثورة الهائلة من شعب وديع هادىء .

٢ - كانت الثورة الثانية فى ٢٠ مارس من عام ١٨٠٠ م واستمرت حتى ٢١ ابريل ، وكانت بتحريض بعض العلماء والاعيان والتجار بزعامة السيد عمر مكرم ، وقد آزرهم فى هذا التحريض ابراهيم بك والالفى بك لمطامع شخصية ، منتهزين بذلك فرصة اشتباك الفرنسيين مع العثمانيين فى عين شمس ورغبة الشعب فى التخلص منهم .

٣ - كان خورشيد باشا قد رفض النزول على ارادة الشعب التى تتلخص فى عزله وتولية محمد على واليا مكانه . وأبى الشعب أن يذعن لهذا الرفض وعز عليه أن تخيب جهوده فحاربه واستمر القتال بين الفريقين حتى جاء الفرمان بتولية محمد على فى ٩ يوليو عام ١٨٠٥ م .

٤ - كانت تركيا غير راضية عن اختيار المصريين لمحمد على ولكنها اضطرت الى قبول ذلك لما شاهدته من ثبات المصريين وتصميمهم على تنفيذ ما بيتوا الرأى عليه .

أيديهم وكانت الفرصة قد ضاعت عليهم .

ولا شك مع هذا كله أن عصر مؤسس الأسرة العلوية كان عصرا زاهرا فى تاريخ مصر الحديثة فقد « بدأ محمد على باشا سيرة الإصلاح وحده ولم يشرك الشعب معه حتى لا يتقيد بقيد ، ومضى فى سبيله كما شاء ،واستطاع فى سنوات قليلة أن يخلق من مصر قطرا جديدا ، فأحيا به الصناعة والزراعة والتجارة ، وأدخل التعليم ، وجند الجنود ، وفتح البلاد ، وأعلى علم مصر حتى بلغت قمة العظمة بين الدول » [1] ، غير أن ما أدخل على البلاد من إصلاحات، وما سادها من نظام كانا منوطين « بمحمد على » ، يدلنا على ذلك أنه ماكاد شخصه يتوارى فى غياهب الأبدية حتى زال كل شىء وعادت البلاد إلى ماكانت عليه من قبل .. ولا خلاف فى أن مصر كانت قد بلغت فى الحضارة شأوا عظيما ،واحتلت بين الأمم مكانا عاليا ، « ولكن هذه الدولة المجيدة لم تلبث بعد أن نكصت على عقبيها ، فأقفلت مصانعها ، وبارت تجارتها ،وأمحلت أرضها ، وهوى علمها ، وصارت كان لم تغن بالأمس » [2]

فى هذا الوقت، أى فى أواخر حكم محمد على باشا أشرقت شمس « محمد عبده » فى سماء مصر ، ونستطيع أن نلخص المشاعر المختلفة التى كانت تختلج فى نفوس المصريين فى ذلك الوقت الذى ظهر فيه الإمام فيما يأتى :

اولا ـ صدوف عن العلم ورغبة فى البعد عن مدارسه ، ولكنه كان

---

١ ـ سيرة السيد عمر مكرم للاستاذ محمد فريد أبو حديد صفحة ١٧٢ .

٢ ـ نفس المصدر والصفحة .

أيديهم وكانت الفرصة قد ضاعت عليهم .

ولا شك مع هذا كله أن عصر مؤسس الأسرة العلوية كان عصرا زاهرا فى تاريخ مصر الحديثة فقد « بدأ محمد على باشا سيرة الإصلاح وحده ولم يشرك الشعب معه حتى لا يتقيد بقيد ، ومضى فى سبيله كما شاء ، واستطاع فى سنوات قليلة أن يخلق من مصر قطرا جديدا ، فأحيا به الصناعة والزراعة والتجارة ، وأدخل التعليم ، وجند الجنود ، وفتح البلاد ، وأعلى علم مصر حتى بلغت قمة العظمة بين الدول »[1] ، غير أن ما أدخل على البلاد من إصلاحات ، وما سادها من نظام كانا منوطين « بمحمد على » ، يدلنا على ذلك أنه ما كاد شخصه يتوارى فى غياهب الأبدية حتى زال كل شىء وعادت البلاد إلى ما كانت عليه من قبل .. ولا خلاف فى أن مصر كانت قد بلغت فى الحضارة شأوا عظيما ، واحتلت بين الأمم مكانا عاليا ، « ولكن هذه الدولة المجيدة لم تلبث بعد أن نكصت على عقبيها ، فأقفلت مصانعها ، وبارت تجارتها ، وأمحلت أرضها ، وهوى علمها ، وصارت كأن لم تغن بالأمس »[2]

فى هذا الوقت ، أى فى أواخر حكم محمد على باشا أشرقت شمس « محمد عبده » فى سماء مصر ، ونستطيع أن نلخص المشاعر المختلفة التى كانت تختلج فى نفوس المصريين فى ذلك الوقت الذى ظهر فيه الإمام فيما يأتى :

اولا — صدوف عن العلم ورغبة فى البعد عن مدارسه ، ولكنه كان

---

١ — سيرة السيد عمر مكرم للاستاذ محمد فريد أبو حديد صفحة ١٧٢ .

٢ — نفس المصدر والصفحة .

صدوفا تحاول الحكومة منعه بمختلف الحيل كتشجيعها الأطفال والشباب بإيوائهم وإطعامهم وإلباسهم وإعطائهم رواتب شهرية، وإعفائهم من الخدمة العسكرية .. وكان المصريون على الرغم من هذه المزايا الكثيرة ينفرون من التعليم ولا يقبلون على ارتشافه إلا ببطء..

يقول الأستاذ العقاد: ـ «ولم يكن على أبواب المدارس القلائل طلاب يتزاحمون، بل كان الطلاب وآباؤهم يصدفون عن أبوابها ويهربون من رواد الحكومة وهم يجوسون القرى لاختيار النجباء من الأطفال والحاقهم بالمدارس والبعثات إذ كانت الحكومة متهمة فى قلوب الرعية لا تؤتمن على شىء بله الائتمان على الأبناء، وكان التلميذ فى عهدتها كالجندى الذى تسخره فى خدمة لا شرف فيها..

«ولما تبددت هذه الأوهام لم تبدد إلا على بطء وكراهية ومقاومة» (١)

ثانياً ـ شعور بالكرامة والعزة مع الألم الشديد لبعد الشعب عن السياسة والاشتراك فى حكم البلاد للأسباب التى ذكرناها من قبل .. يقول الأستاذ فريد أبو حديد «ولا نستطيع إلا أن نأسف على أن شعب مصر لم تبدأ حياته السياسية منذ ذلك الحين. فإنه عاد إلى عزلته ينظر إلى حكامه من بعيد .. وهو لا يزال يتطلع إلى حقوقه وحرياته وتجيش فى صدره آمال لا يرى نفسه قادرا على النهوض إلى تحقيقها». (٢)

---

١ ـ سعد زغلول للكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد صفحة ٦٠.

٢ ـ سيرة السيد عمر مكرم صفحة ١٧٤.

ثالثاً ـ تيار من الرجعية يعصف بالبلاد فيعود بهـا إلى الفوضى والاضطراب اللذين نشلها منهما « محمد على باشا » . وقد تألم المصريون من هذه الحالة الجديدة حتى أنهم باتوا ينتظرون الفرصة السانحة التى يعيدون فيها جهادهم القديم . وأما دلائل هذه الرجعية أو هـذا الجمود الذى بدأ يدب فى أوصال الحياة المصرية العامة فمحاولة « عباس باشا الأول » الرجوع بالبلاد إلى عصورها الوسطى بالقضـاء على المدارس ، وتعطيل المعامل والمصانع التى قدر لهـا البقاء بعد جده العظيم ، والاستغناء عن كثير من الموظفين الأجانب الذين كانت لهم يد طولى فى الأصلاحات السابقة .

ومن مظاهر هذه الرجعية محاولة إحلال الجنود الأتراك محل المصريين وتفضيلهم على غيرهم من جنود البلاد وضباطهـا ، وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى تذمر أولئك الجنود والضباط .

من هذا نرى أن محمد عبده ظهر والبـلاد فى قلق وحيرة شديدين كانت تظهر فيهما ومضات من النور ثم تختنق ، وكان يعاود النفوس فيهما بصيص من الأمل ثم يتركها على ما كانت عليه .. وبقى محمد عبـده يراقب هذا النور الجديد ، ويعلل النفس بالأمل حتى كانت النهضـة الحديثة على يدى الخديو « اسماعيل باشا » الذى أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، والذى عاود سيرة جده العظيم فى إصلاحاته وجهوده .

غير أن مصر كانت بحكم موقعها الجغرافى ، وتوسطها بين ثلاث قارات محط أنظار الامم الناهضة التى اشتد التنافس بينها للحصول على مركز ممتاز

يمكنها من السيطرة على مفتاح الطريق بين الشرق والغرب .. وكان لهذا التنافس الشديد أثر قوى فى حياة البلاد ، فقد بدأت الدول المتنافسة تحيك الدسائس للإيقاع بهذه الأمة الناشئة التى أخذت تتلمس طريق الإصلاح والتقدم .. وبدأ التدخل فى الشئون العامة والخاصة ظاهرا واضحا منذ اضطرب النظام وساءت الحالة المالية ، ومنذ انتشر البؤس ، وعمت الفاقة ، وكثرت الضرائب التى أثقلت كاهل الناس .. وأدت الفوضى التى عمت البلاد ، والبؤس الذى حاق بالشعب ، واضطراب الأداة الحكومية إلى تمكين الدول المتنافسة من إيجاد الفرصة السانحة للتدخل الفعلى الذى أدى بدوره إلى قيام الثورة العرابية ثم الاحتلال الانجليزى الذى لا تزال البلاد تعانى آثاره حتى اليوم .

لم يكن محمد عبده مجدودا إذاً لأنه فى الوقت الذى بدأ يدرك فيه معنى الحياة ، ويقلب بصره فى الوجود ، كانت البلاد تسير مسرعة إلى هذه النهاية المؤلمة ، ولأنه فى الوقت الذى بدأ فيه جهاده كانت الأمة ترسف فى قيود ثقيلة يحتاج تحطيمها إلى جهود الجبابرة ، وكان الشعب نفسه يعانى كثيرا من الشدائد والآلام التى أحنت ظهره وكادت تبعث فيه اليأس والقنوط .
لم يكن محمد عبده مجدودا ولكنه لم يكن مع كثرة العقبات التى اعترضت طريقه بالرجل الذى يقف مكتوف اليدين أمام ما يشاهده من أحداث وكوارث ، ولذلك أخذ يفكر فى مصير الأمة ويبحث أنجع الطرق لانتشالها من وهدتها ، وقد لاقى فى سبيل ذلك كثيرا من العنت والارهاق .

وكم يلاقى المجدد المصلح فى مثل تلك الظروف العصيبة التى تمر بالأمم من العقبات الداخلية والخارجية ما يحتاج التغلب عليها إلى جهود مضنية ونضال عنيف، وكم يقاسى فى سبيل دعوته من صنوف العذاب ما لا تحتمله إلا النفوس الكبيرة.

ولم تكن هذه العقبات التى أوضحناها هى وحدها التى قابلت محمد عبده وإنما شهد جيله فوق هذا كله جمودا فى العقائد والآراء أفسد نظام الحياة، وعاق رجال الإصلاح عن نشر دعوتهم، والسعى فى سبيل رسالاتهم، ويرجع ذلك الجمود إلى أن المصريين الذين اشتهروا بالوداعة والكرم وطيب الخلق وصفاء النفس، والميل إلى الهدوء وقوة الإيمان، والمحافظة على التقاليد، ظنوا أن البقاء على ما وجدوا عليه آباءهم أفضل من الأخذ بما لم يعهدوه حتى أن «الجبرتى» نفسه وهو إمام المؤرخين فى عصره كان ينفر من أنظمة «محمد على» ولا يرى فيها وجه الحق، بل كان يشكو منها ويسخط عليها لأنه كان يرى فيها ما يحد من الحرية التى استمتع بها الناس فى عهود الفوضى أيام المماليك والأتراك.

وقد امتاز هذا الجيل - على الرغم من ذلك - بناحيتين:

الاولى - ثقة ويقين، ذلك لأن النفوس لم تكن قد تعرضت بعد لطغيان الشهوات والمنافع الذاتية، والتكالب على الدنيا، والتهافت على المتع والملاذ.. ولم تكن العقائد قد تزعزعت بعد لتغلب النزعات الحديثة، ولكثرة الآراء التى نادى بها زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، وما تدعو

إليه هذه الآراء من بحث وتمحيص قد يبلبلان العقل ويفسدان العقيدة ..

والثانية - توافر الأسباب التي تحفز النفوس إلى طلب الإصلاح، وتبعث في الأمة الرغبة في الأخذ بأسباب التقدم والرقي. وكان بعض هذه الأسباب داخلية بعثها استفاضة المظالم واستفحال الشر الذي لم يستطع المصريون الصبر عليه، وكان بعضها خارجية بعثت بها أخبار الثورات التي قامت بها شعوب الغرب لطلب الحرية واقامة العدل والذود عن حقوق الافراد ..

وبدأت الدعوة إلى الاصلاح على الرغم من التيارات المختلفة المثبطة للهمم والعزائم قوية تبشر بمستقبل زاهر .. واستمرت الدعوة تنشط من يوم الى يوم حتى أخذت البـــلاد تجنى بجهود رجالها العاملين ثمار هذا الاصلاح الذى تناول كل مرافق الحياة من سياسية واجتماعية ودينية، ومن علمية واقتصادية .. وكان هذا الوقت - وقت الدعوة الى النهوض والاصلاح - أنسب الاوقات أو الاجيال لظهور الشخصية، ولذلك كان غنيا بكثير ممن تركوا فى تاريخ مصر صفحات من الفخار ناصعة لا يزال الخلف يتلو أخبارها عن السلف .. وكان من أنصع هذه الصفحات بياضا فى تاريخ مصر صفحة الشيخ محمد عبده الامام الدينى والمصلح الاجتماعى الكبير ..

***

وأما البيئة التى نشأ فيها محمد عبده، فريفية صرفة .. بيئة الفلاح

البسيط الذى توارث العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل وأصبح له منها تراث يصونه ويحفظه ويغار عليه .. ذلك لان مصر « أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل وأصبح لهـا من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة، ثم هى أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها صلاح الحاكم كما يعنيها صلاح الارض والسماء والعوارض والاجواء » .[1] وقد ظهرت هذه المحافظة على العقائد والمأثورات فى الريف أشد من ظهورها فى أى مكان آخر لان أهله أهل تدين ويقين ، ولانهم بعيدون عن الآراء التى تأتى بها الحضارات المختلفة ، وعما فى كثير من هذه الآراء من شكوك وثورة على الحياة .. وكان أكثر ظهورها فى الريف لان أهله يعيشون على المسـالمة والوداعة والرغبة فى عدم التحول عما الفوه ، ولان حياتهم نفسها هينة هادئة خلت من القسوة التى تشاهد فى كثير من البيئات غير الزراعية ..

وكان لهذه النشأة الريفية فى بيئة الفلاح الهادىء المسالم الذى لا يهتم بغير أرضه وما تنتجه ، والذى لا يعنيه اكثر من وشائج الرحم وآداب الاسرة ، والذى لا يثور الا اذا اعتدى على عقائده ومأثوراته ، أو أهين فى كرامته وعرضه .. كان لهذه النشأة أثر كبـير فى اخلاق « محمد عبده » وعاداته ، وفيما امتاز به من الصفـات فى رجولته ، وليس أدل على ذلك من قول الدكتور تشارلز آدمس : « ومعظم ما امتاز به من الصفـات

---

١ - سعد زغلول صفحة ١٩

فى رجولته ، ولا سيما تحفظه ووقاره ومؤانسته يشف عن أحسن مظاهر الحياة والعادات القروية . وإدراكه لحاجات العامة ادراكا مشربا بالعطف ، ورغبته الملحة فى انهاض الامة كلها ، انمــا هما من ثمرات حياته الريفية الاولى عند ما كان يستمع أحاديث الناس عن عهد محمد على الذى كانت لا تزال صورته ماثلة فى أذهان من هم أسن منه حيث كان الناس فى مصر كدأبهم منذ الازمان السحيقة ، ينوءون بعبء ثقيل من حكم تخدع مظاهره البراقة » .[1]

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢١ و ٢٢

الفصل الثانى

١ - الامام يطلب العلم ٢ - التحاقه بالازهر
٣ - اتصاله بجمال الدين وأثره

الإمام يطلب العلم

تعلم محمد عبده القراءة والكتابة بمنزل والده، ثم انتقل وهو فى سن العاشرة إلى دار حافظ للقرآن فقرأ عليه وحده القرآن جميعه، ثم أعاد قراءته حتى أتم حفظه فى سنتين. وظن أهل القرية أن ما صادف الفتى من توفيق راجع إلى قدرة المعلم وطريقته فى إلقاء دروسه، وإلى اهتمامه بأمر تلميذه، ولذلك أرسلوا إليه أبناءهم لينالوا مثل ما ناله محمد عبده من سرعة الحفظ والفهم .. وفى عام ١٨٦٢ (١) - وكان فى الثالثة عشرة من عمره - بعث به والده إلى طنطا لتجويد القرآن فى المسجد الأحمدى فأقام مع أخيه لأمه، وكان مدرسا فى ذلك الجامع وله حظ من الشهرة فى القراءة والتجويد. (٢)

وبعد نحو عامين أى حوالى عام ١٨٦٤ م جلس لتلقى العلم، «وكانت نظم التعليم تفرض عليه حينذاك بأن يحفظ عن ظهر قلب نصا من الأجرومية العربية وشرحا عليه لأحد مشاهير النحويين». (٣) واستمر

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢٢.
٢ - نفس المصدر والصفحة.
٣ - نفس المصدر صفحة ٢٢ و٢٣ .

الفتى سنة ونصفا لا يفقه شيئا لرداءة طريقة التعليم، وكانت يومها عقيمة سقيمة، وكان الطالب الناشيء يجد فى فهم مصطلحات المسائل التى تعرض عليه، وفى معرفة رموزها وقواعد إعرابها كثيرا من العناء والجهد، ولم يكن يعنى الأساتذة أن يفهم الطلبة ما يلقى عليهم أو لا يفهمون، حتى إن خلافا قام بين محمد عبده وبين أحد الاساتذة وكان الطالب قد سأله عن الأجرومية ومعناها، ومقدار الفائدة التى تعود من وراء تعليمها. وكان الأستاذ يزجره وينهاه عن السؤال وإلا طرده أو ضربه. وانتهى الأمر بأن خرج الفتى حزينا يائسا من فهم النحو العربى.

ولما يئس محمد عبده من النجاح هرب واختفى عند أخواله، وعثر عليه أخوه بعد ثلاثة أشهر وأكرهه على العودة إلى طلب العلم، غير أنه أبى، وانتهى الجدال بينهما بعودته إلى محلة نصر، وفى ذلك يقول الإمام: «ثم فى سنة إحدى وثمانين جلست فى دروس العلم وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية فى المسجد الأحمدى بطنطا وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم، فإن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بتفهيمهم معانيها لمن لم يعرفها، فأدركنى اليأس من النجاح، وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر، ثم عثر علىّ أخى فأخذنى إلى المسجد الأحمدى وأراد إكراهى على طلب العلم فأبيت وقلت له: قد أيقنت أن لا نجاح لى فى طلب العلم ولم يبق علىّ إلا أن أعود إلى بلدى وأشتغل بملاحظة الزراعة كما

يشتغل الكثير من أقاربى . وانتهى الجدال بتغلبى عليه» (١)

وكان لهذا الفشل الذى صادفه فى أول مرحلة من مراحل حياته أثر سيء فى نفسه من ناحية التعليم الذى يسير وفق نظم بالية عتيقه ، ومنهاج لا يتغير تبعاً لسنة التقدم والرقى . وفى هـــذا الأثر الذى تركته فى نفسه طريقة التعليم فى ذلك الوقت قال : « فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا ، وهى بعينها طريقته فى الأزهـر ، وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المئة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم ، سبيل القاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم ، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه» (٢)

***

وتزوج محمد عبده عام ١٨٦٥ م (٣) ليكون الزواج حجة لديه يقدمها تبريراً لبقائه بمحلة نصر وعدم ذهابه الى طنطا لطلب العلم مرة ثانية . غير

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢٠ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٢٠ و٢١ .

٣ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢٣ .

أن والده أرغمه بعد زواجه بأربعين يوما على الذهاب إلى معهده . ولم يجد الفتى مناصاً من إطاعة الأمر والنزول على رغبة والده فى نفس اليوم الذى أرغم فيه .. وركب محمد عبده فرسا أخضر[1] وتوجه الى « إيتاى البارود » ليركب منها القطار الى طنطا . . ولما كان اليوم شديد الحر والريح عاصفة ملتهبة لم يستطع الاستمرار فى السير ، وحاول أن يقنع تابعه بالتعريج على بلدة يتقيان فيها وهج الشمس وحرارة الجو . فلما لم ينجح فى إقناع هـــذا التابع الحريص على أداء ما كلف به أسرع بالفرس هاربا إلى « كنيسة أورين » - بلدة غالب سكانها من خؤولة أبيه - ولحق به صاحبه وأخذ يزين له السفر فيأبى عليه ما يريده ، فلما حل وقت العصر رأى أن لا بد له من العودة وإلا شغل أهل الفتى لغيابه . . ورجاه الإمام عند ما حانت ساعة الوداع أن يرجع الى والده فيخبره بسفره ويعده فى نظير ذلك بالرحيل عند أول ما تبزغ شمس الصباح من اليوم التـالى . . وحدث ما عاق محمد عبده عن الوفاء بهذا الوعد . . والواقع أن محمد عبده لم يكن فى ذلك مخيراً وإنما كانت تدفعه إليه قوة خافية تهيىء له فى عالم الغيب ما لم يكن هو قد فكر فيه أو خطر له على بال . .

فقد كان بكنيسـة أورين شيخ مسن ضعيف البصر من أخوال أبيه يدعى الشيخ « درويش خضر » يعيش بعيداً عن القاهرة والأزهر ، جاعلا من الريف دنياه التى يصل عن طريقها إلى إدراك عظمة الخالق وسر

١ - مذكرات المرحوم الامام التى كتبها لنفسه قبل وفاته ولم يتمها لسوء الحظ . تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢١ه

وحدانيته ، وصدق ما جاء به كتابه الكريم . . متخذا من داره صومعة لعبادة الله وتوحيده . . وكان الشيخ درويش طيب القلب صافى العقيدة ، ملماً بكثير من أمور الدين ، وكانت له أسفار الى صحراء ليبيا وطرابلس الغرب ، وكان من المشايعين للطريقة الشاذلية . . جاء هذا الشيخ فى صباح أحد الأيام وفى يده كتاب يحتوى على رسائل كتبها « السيد محمد المدنى » إلى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق وسأله أن يقرأ له شيئا فدفع الإمام طلبه بشدة ولعن القراءة والمشتغلين بها . غير أن الشيخ تبسم وتجلى بألطف مظاهر الحلم ، ولم يزل به حتى أخذ الكتاب وقرأ له شيئا مما فيه . وعاود الشيخ سؤاله فى اليوم التالى وقرأ له محمد عبده بضعة أسطر شرحها له أستاذه شرحا وافيا ملك عليه نفسه مرة ثم ضاق به صدره مرة أخرى . ولم يستطيع الفتى فى ذلك اليوم أن يغالب هوى نفسه إلى اللعب فلبى نداء لداته من فتيان القرية الذين جاءوا يغرونه ويحببون اليه السباحة فى الترعة وركوب الخيل .

ولما كان اليوم الثالث عصى محمد عبده كل هوى ينازعه إلى البطالة وظهر عليه الفرح بما تجدد عنده من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم . وحببت اليه القراءة بعد أن كانت بغيضة ثقيلة على نفسه . ووجد فى نفسه رغبة إلى تفهم أسرار ما يطالعه . فلما كان اليوم الخامس تبدل من حال إلى حال وفى ذلك يقول :

« لم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شىء إلىّ ما كنت أحبه

من لعب ولهو ونخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء إلىّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى إلى ما كنت أحب ، ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله ، فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب. فى اليوم السابع سألت الشيخ ما هى طريقتكم ، فقال : طريقتنا الإسلام ، فقلت : أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم - متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة - متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون وإن كنا فى غمرة ساهين ، سألته ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال : لا ورد لنا سوى القرآن ، تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر ، قلت : أنى لى أن أفهم القرآن ولم أتعلم ، قال : أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل ، وإذا خلوت فاذكر الله - على طريقة بينها - وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن ، فلم تمض علىّ بضعة أيام ، إلا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عنى جميع الهموم ولم

يبق إلا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس». (١)

وفى اليوم الخامس عشر أسرع محمد عبده بالسفر إلى طنطا خوفا من عقاب والده واشتداده فى اللوم إن هو علم بتغيبه كل هذه المدة. وعند وصوله اليها التحق بالجامع الأحمدى للمرة الثانية، ولكنه التحق فى هذه المرة برغبة تخالف رغبته الأولى، وبشعور غير شعوره الأول، وبنفس مطمئنة مقبلة على العلم مهيأة إلى حياة جديدة ترجو أن يكون من ورائها الخير كل الخير. وقد ساعدته رغبته الجديدة فى أن يشق طريقه بنجاح، وفتح الله عليه وسهل له طريق المعرفة حتى اشتهر بين الطلاب بالذكاء وسرعة الفهم. وكان ذلك باعثا على التفاف أولئك الطلبة حوله بعد قليل من التحاقه ليطالع معهم قبل الدرس ما استعصى عليهم فهمه وإدراكه من أحاجى اللغة وألغازها.

° ° °

وليس هناك شك فى أن الفضل الأكبر فى توجيه الإمام إلى الطريق الذى سلكه يرجع إلى الشيخ درويش. وإذا كان الإمام قد استطاع بعد ذلك أن يتصل بمن أخذ بيده إلى النهاية، ويتم له وضع الخطة التى سار عليها، فليس من شك فى أن أول من هيأه إلى ذلك هو ذلك القروى الذى عاش فى الريف قانعا بما وفق اليه، راضيا عن حياته. يقول الإمام: «ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت اليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢٢ و٢٣.

فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد ـ هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى وهو الشيخ درويش خضر من أهل « كنيسة أورين » من مديرية البحيرة ، وهو مفتاح سعادتى إن كانت لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى ردلى ما كان غاب من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى (١) . وإذا كان محمد عبده يقدر أستاذه الأول هذا التقدير ، ويحفظ له جميله عليه ، ويعترف بفضله اعترافا صريحا لا شك فيه ، فلا يصح أن نمر بقصته عابرين ، وأن نؤرخ هذه الفترة من حياة الإمام دون أن نشير اليه ، ونوفيه حقه رحمه الله ، فقد كشف لمصر عن درة غالية لايدرى أحد ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها ظلت مختفية ، أو لو كانت عوامل الجهل والفساد والإهمال تكاثرت عليها فحجبت بريقها عن أعين الناس .

وفى منتصف شوال من عام ١٢٨٢ هـ — ١٨٦٦ م سافر محمد عبده إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف وداوم على طلب العلم على شيوخه إلى أن جاء المرحوم جمال الدين الأفغانى إلى مصر لأول مرة عام ١٢٨٦ هـ ـ ١٨٦٩ م فكتب له صفحة جديدة فى تاريخ حياته .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢٣ .

التحاقه بالأزهر

قلنا فى الفصل السابق إن « محمد عبده » ودع الجامع الأحمدى ليلتحق بالأزهر الشريف . ويحسن بنا أن نقف عند هذا الأمر وقفة قصيرة نمعن فيها النظر إلى ما كشفته الأيام من أمر هذا الطالب الذى التجأ إلى أخواله هروبا من عناء المذاكرة ، والذى عاد الى الريف وتزوج فى تلك السن المبكرة حتى يجد الحجة التى تحول بينه وبين العودة إلى طنطا واستئناف درس تعافه نفسه ولا ترضى عنه . .

نريد أن نبحث أمر هذا الفتى الذى كره التعليم فودع داره غير آسف عليها ، ثم عثر عند إرغامه على العودة على من حاول أن ينتشله من الهوة السحيقة التى كان يتردى فيها فيأبى عليه ، ويحاول الفرار منه ، ويقابل مودته بجفاء ، ورغبته فى تعليمه بازدراء وسخرية ، ونريد أن ننظر فى أمر هذا الفتى الذى رضخ بعد هذا التعنت الشديد ، والكره العظيم ، إلى ما حاول أن ينتشله منه الشيخ درويش ليعود به إلى الطريق الحق ، ويرفع عن بصره غشاوة الجهالة والرعونة ، ونريد أن نعلل الأسباب التى رغبت الفتى بعد هذا كله وبمحض اختياره فى السفر الى القاهرة والانضمام الى سلك الطلبة المجدين بالأزهر الشريف . .

هل كان محمد عبده فى هذا كله مخيراً يسير وفق نظام وضعه لنفسه

فلا يحب الخروج عنه ، والتخلص منه ، أم كان يخطو مسيراً توجهه العناية الإلهية كيفما شاءت وإلى أية جهة أرادت .. إن الحوادث التى مرت ، وإن الجزء الذى ذكرناه من تاريخ حياته ليبين لنا بوضوح وجلاء أن الإمام لم يكن مخيراً فى عمله وإنما كان يسير فى طريق هيأه له القدر ، وكان يتجه لغاية أرادها له ربه، وحفظها سراً من أسراره الكثيرة التى لا يكشف عنها الغطاء حتى يحين الوقت الذى قدر لظهورها ..

وقد شاء القدر كذلك أن تهيء له الأسباب التى دفعته ، بل التى أغرته على النزوح إلى القاهرة .. وكانت هذه الدوافع أو هذه المغريات نفسية أحسها وشعر بها من غير تمهيد لهذا الإحساس وهذا الشعور ، ومن غير أن يشغل عقله وفكره فى تنظيمها وترتيب نتائجها .. كانت هذه الدوافع والمغريات نتيجة لشعور خفى يقول عنه الإمام فيما كتبه من تاريخ حياته : « وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة - ١٨٦٦ م - كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معانى شرح الزرقانى فرأيت أمامى شخصاً يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب ، فلما رفعت رأسى إليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء . فقلت له وأين الحلوى التى معك ؟ فقال سبحان الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله إلىّ ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا » . (١)

***

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢٤ .

والتحق محمد عبده بالأزهر فى منتصف شوال من عام ١٢٨٢ هـ - فبراير عام ١٨٦٦ م، «ولم يكن رأيه فيه أول الأمر خيرا من رأيه فى الجامع الأحمدى من حيث أساليب التدريس وموضوعاته، وجمود الشيوخ على ذلك التراث القديم الذى يتوارثون تلاوته دون تنبه الى وجوب تنقيته من الأساطير والأخطاء العلمية، ثم التصرف فيه بما يحببه إلى الطلاب، ويسهله عليهم، ويجعله متناسبا مع روح العصر الحديث».(١)

وذهب محمد عبده كما يقول الاستاذ عثمان أمين: «يتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم. وتعلم القواعد فى مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم، لاتفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة». (٢)

وعلى الرغم مما وجده المجاور فى الأزهر فى ذلك الوقت من عيوب فقد داوم على طلب العلم على شيوخه، ولكنه حافظ على عزلته وانفراده ورغبته فى البعد عن الناس. ولم يكن ذلك كله الا نتيجة لما تشبعت به نفسه من تعاليم الصوفية التى دفعه اليها الشيخ «درويش»، والتى غمرته وملكت عليه حسه ومشاعره..

وكان من دلائل شدة رغبته فى تجنب الاختلاط بمن لا يعرفهم، وفى

---

١ - محمد عبده للاستاذ الشايب صفحة ٢٠ و٢١.

٢ - محمد عبده للاستاذ عثمان امين صفحة ٢٢.

حبه للانفراد بنفسه، والإصغاء لصوت هذه النفس استغفاره لله كلما كلم شخصا لغير ضرورة، أو قابل انسانا لغير حاجة. يقول الدكتور تشارلز آدمس: «كان منذ بدء طلبه للعلم بالازهر متأثرا بالتصوف، وقد أطلق لنفسه العنان فى الاستغراق فيه. كان يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر، ويلبس قميصا خشنا فوق بدنه، ويجاهد النفس بالتقشف والزهد وكان يمشى مطرقا لا يكلم أحدا إلا لضرورة اقتضتها صلاته بالمدرسين والطلاب. وكان لكثرة الانهماك فى العلم والفكر والنظر ومجاهدة النفس، يخرج من حسه ويسبح فى عالم الخيال حيث ظن أنه كان يناجى أرواح السابقين. وزاد ذلك عليه حتى ابتعد عن مخالطة الناس». (١)

وإذا كان الإمام قد داوم على طلب العلم بالأزهر فإنه لم يواظب على حضور جميع الدروس التى كانت تلقى على الطلبة، وإنما حضر الدروس التى كان يميل الى سماع من يلقيها، ويحس من نفسه القدرة على الاستفادة منهم، ولم يكن فى مظهر الفتى محمد عبده عند أول التحاقه بالأزهر ما يميزه فى عيون شيوخه عن المئات من أقرانه الذين وفدوا على هذا الجامع من بلاد الريف، غير أن ما لوحظ بعد ذلك من نشاطه الطبيعى وحدة ذكائه وانكبابه على الدرس والتحصيل، واستقلال رأيه، كل ذلك سرعان ماجعله فريداً مميزاً بين أقرانه. وظل أربعة أعوام يقرأ دروس الأزهر ولكنه كان لا يطيق الصبر على مواصلة الجلوس الى أساتذة لا يفهمهم، ولا يستطيع

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٣٠ .

الاستفادة من دروسهم ، فكان أحيانا ينقطع عن الدروس وأحياناً يحضر ويقرأ فى كتاب يحضره معه ، وكان مع هذا كله دائم البحث فى كتب الأزهر عن أشياء لم تدرس فيه . (١)

وقد بين لنا الإمام الدوافع النفسية التى كانت تحول بينه وبين متابعة الدروس وإدراك خفايا ما يلقى عليه فى قوله : « إن الذى كان يعوقنى عن تفهم الشروح والمتون ثلاثة أمور : ـ الأول رغبتى فى أن أكون مثل إخوتى فلاحا وعدم وجود الوسائل التى ترغبنى فى العلم ، والثانى اختلال نظام التدريس بحيث كنت أسمع الشيخ وهو يدرس فأحسبه يتكلم بلغة أجنبية ، والثالث ما اتفق عليه الطلبة من مضايقة معدتهم بالأغذية الضارة مما يكون معه اعتلال الجسم » . (٢)

والواقع أن محمد عبده كان يقبل على الدرس الذى يرغب فيه بشغف زائد ، وينكب عليه حتى يستقصى أسراره ، ويتفهم ما خفى منه ، وكان ينفق فى ذلك وقتا طويلا لا يترك له فسحة للراحة من عناء ما يبذل من جهود مضنية . وكان محمد عبده ينتهز أيام العطلة ليسرع إلى الريف الذى نشأ فيه وأحبه . وكان محمد عبده يجد فى الحقول الواسعة بين الزرع الأخضر والمياه الجارية ، والسماء الصافية وقتا للراحة والاستجمام ، ومتسعا لتعويض ما فقده عقله وجسمه فى طلب العلم والتوفر له . ولم يكن الشيخ درويش

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢٩ .

٢ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢١ .

يتركه طويلا ينعم باستجمامه وراحته فإنه كان يسرع اليه هو الآخر ليسأله عما تعلمه فى عامه، وما حفظه من دروسه، وما وقف عليه من جديد لا ينال فى معهده. وكان محمد عبده يخبره بما تعلمه وحفظه ووقف عليه، وكان أستاذه الأول يغريه بدراسة المنطق والرياضة والهندسة وغيرها مما كان يتحاشى البحث فيها علماء ذلك الزمن. وكان يبعث فى نفسه الحمية للبحث عنها فى الكتب وعند من يزاولون النظر فيها أو تدريسها. وكان المعلم الاول يسأل تلميذه: «ما درست المنطق؟ ما درست الحساب؟ ما درست شيئا من مبادئ الهندسة؟»، فإذا أجابه التلميذ أن بعضا من هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر قال له: «طالب العلم لا يعجز عن تحصيله فى كل مكان». وكان لهذه الكلمات تأثير فى قلب الطالب بعثه الى التماس هذه العلوم عند العارفين، فتارة يخطىء فى الطلب وأخرى يصيب.

ولم يقف نصح الشيخ لتلميذه عند هذا الحد، فإنه وقد اطمأن إلى ماوفق اليه من هدايته إلى طريق الصواب فى طلب العلم والبحث عنه، سارع لإعادته إلى الحياة العادية، وانتشاله من الإغراق فى الصوفية، والخروج به من عزلته وانفراده.

قال له فى صيف عام ١٨٨١ م: «الى متى هذه العزلة، وما الفائدة فى العلم وتحصيله إذا لم يكن لك نوراً تهتدى به ويهتدى به الناس؟ إن من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك، وإن من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة، فعليك أن تخالط الناس وتعظهم

وترشدهم إلى الطريق القويمة والسنة الصالحة ». [1]

ونجح الشيخ درويش فيما وطد العزم على بلوغه ، وتمكن بالفعل من استصحاب محمد عبده إلى المجالس ، واشتراكه فى الأحاديث والمناظرات ، كما تمكن من إقناعه بمخالطة الناس حتى يكون نفعه أعم ، والتغلب على عالمه الأزهرى المقسم المشتت الذى سادته روح الجمود وسيطرت عليه ، وبقى محمد عبده حائراً بين حزب المحافظين [2] الذى غلب النقل على العقل ، وحزب المتصوفين [3] الذى نزع إلى الأخذ بأساليب العلم الحديثة وكان أقل نفورا من الجديد . وبقى محمد عبده يعانى صراع أمواج هذا البحر الخضم ، ويحاول التخلص من صخب أمواجه حتى لقى السيد جمال الدين الافغانى فتفيأ ظله ، وأحس برد الراحة فى ساحته الواسعة .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٧ .

٢و٣ - كان يمثل حزب المحافظين فى الازهر المشايخ : عليش والرفاعى والجيزاوى وغيرهم ، وكان يمثل حزب المتصوفين المشايخ : حسن رضوان وحسن الطويل ومحمد البسيونى وغيرهم .

اتصاله بجمال الدين وأثره

كان جمال الدين الأفغانى فيلسوف الشرق والإسلام قد سافر إلى الهند عام ١٨٦٩ م ثم رحلته الحكومة الانجليزية على باخرة ماضية فى طريقها إلى السويس، فلما وصل إلى مصر لم يمكث بها أكثر من أربعين يوما.

وعلم محمد عبده بوصول حكيم الشرق وفيلسوفه العظيم إلى مصر لأول مرة من أحد المجاورين برواق الشوام.. ولما ذهب يصحبه الشيخ « حسن الطويل »[1] لزيارته والتعرف به وجداه يتناول طعام العشاء وقد حدثهما بعد فراغه من الطعام فى تفسير القرآن، ثم تدرج الحديث إلى التصوف ورجاله وأثره فى التفاسير.. وكان جمال الدين صوفياً من كبار الصوفيين ملماً بكثير من أحوالهم ومعارفهم، مدركا لكثير من خفايا تعاليمهم. وكان جمال الدين إلى جانب هذا نافذ البصر قوى الملاحظة لا تخفى عليه خافية، ولذلك لم تغب عنه ما كانت تنم عليه نظرات محمد عبده وحيرته عند التحدث عن التصوف وأهله، كما أدرك بفطنته النزعة القوية التى كانت تضطرب فى نفس ذلك الشاب الجالس أمامه، والذى كان يتشوق الى المعرفة الصحيحة.. لم يخف على جمال الدين شىء من هذا كله ولذلك حدثه بأسلوبه الصافى الجميل المشبع بالثقة والإيمان حتى اطمأن اليه، ووثق به، وتعلق بأوصاله.

١ ـ أحد مشايخ الازهر الممتازين وقد حضر عليه الاستاذ الامام دروس المنطق



السيد جمال الدين الأفغانى

١٨٣٩ — ١٨٩٧ م

ولما عاد جمال الدين إلى مصر للمرة الثانية عام ١٨٧١ م ، ووجد من المصريين ما حبب اليه الاقامة فى ربوع النيل ، أسرع اليه محمد عبده ليشبع رغبته فى طلب العلم ومعرفة كنوز الفلسفة . ولازمه منذ ذلك الوقت لا يفارقه ، بل أخذ يدعو أصدقاءه ومعارفه إلى غشيان مجلسه ، والحضور عليه ، وتفهم أحاديثه ، والإصغاء لصوته العذب .

ونهج جمال الدين فى إلقاء دروسه منهاجا جديدا لا علم للمصريين به ، واستطاع بطريقته الأخاذة الساحرة أن يدرب تلاميذه على إنشاء المقالات الأدبية والإجتماعية والسياسية ، وأن يمرنهم على الخطابة ، وأن يخرج منهم بعد ذلك زعماء الأمة وقادتها العاملين على رقيها والنهوض بها إلى حيث تحتل مكانها اللائق بين الأمم ، ويكفى أن نعرف أن « محمد عبده » و « سعد زغلول » و « قاسم بك أمين » و « حسن باشا عاصم » و « وحسن باشا عبد الرازق وغيرهم ، كانوا من تلاميذه حتى ندرك ما كانت عليه نفس هذا الفيلسوف من رغبة قوية فى تربية خلفاء له ينقذون مصر الإسلامية ، بل الشرق كله من ظلم المستعمرين واضطهادهم .

ولو أردنا أن نحصر الخدمات التى قدمها جمال الدين لتلميذه محمد عبده لوجدناها كثيرة قيمة نذكر بعضها فيما يأتى :

أولا ـ كان أول ما قدمه جمال الدين لمحمد عبده انتصاره لرأى الشيخ درويش ورغبته فى انتشال التلميذ الناشىء من الاستغراق فى التصوف .

ثانيا ـ ترغيبه فى الاطلاع على ما فى الكتب الحديثة التى عربت إلى

مختلف اللغات ، وقد استطاع محمد عبده أن يجد فى هذه الكتب لذة أخرى جديدة لم يكن يجدها أو يحسها فيما كان يقرأ من الكتب القديمة . واستطاع أن يجد عالما جديدا أطال التحديق فى آفاقه ، ذلك هو عالم الفكر الغربى وما وصل إليه من علم حديث .

ثالثا ـ مهد جمال الدين لمحمد عبده طريق الصحافة منذ دربه على الكتابة والإنشاء ، وكان لهذا التمهيد أثر قوى فى حياته ، بل كان لاشتغاله بالصحافة والتحرير فيما بعد أثر قوى ظاهر فى حياة الأمة كلها . واستطاع محمد عبده بما بذله له أستاذه أن يكون خطيبا بليغا قوى الحجة طلق اللسان ، بل استطاع أن يبز أستاذه فى هذا المضمار لخلو لهجته من العجمة التى لازمت جمال الدين طوال حياته . [١]

* * *

وكتب محمد عبده فى ذلك الوقت عدة مقالات نشرت بجريدة الأهرام. من هذه المقالات اثنتان أخذهما عن أستاذه جمال الدين ، الأولى فى فلسفة التربية وازن فيها بين سلامة الحياة الخلقية وصحة التركيب الجثمانى فى حياة النبات والحيوان ، مبينا أن صحة التركيب البدنى إنما تأتى من تجمع أصول متضاربة إن تغلب أحدها كان فى هذه الغلبة فساد التركيب . وكذلك الكمال الإنسانى لا يأتى إلا حيث توجد أخلاق متضادة وملكات متخالفة يكون من وراء تضادها واختلافها حقيقة الفضيلة المعتدلة . [٢]

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٣٣ .

٢ ـ راجع تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤ و ٥ .

والمقالة الثانية بحث فى فلسفة الصناعة يتناول الأدوار العقلية التى مرت بالانسان ، كما يتناول تطوره الاجتماعى وقيمة الصناعات المختلفة بالنسبة للجماعة ثم ضرورتها للافراد ومقدار ما تؤديه للجماعة من نفع . (١)

وأما المقالات الأخرى وعددها خمس فهى تقريظ الأهرام ، والكتابة والقلم ، والمدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى ، والعلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية ، والتحفة الأدبية .وقد دعا فى هذه المقالات إلى انهاض الشباب ، كما دعا الأمة إلى الحذر من تدخل الأجانب فى شئون البلاد ، وطرح أنظمة التعليم العتيقة ، والأخذ بالنظم الجديدة ، ودراسة العلوم ، وفى هذا يقول « فعلينا أن ننظر فى أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذى نقلهم من حالهم الأول وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء ، فإذا حققنا السبب ، وجب علينا أن نسارع اليه حتى نتدارك ما فات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت ، وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم فى الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم . فإذاً أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا » . (٢)

ويقول الشيخ رشيد رضا عن تلك المقالات الخمس : « هذا آخر ما رأينا للأستاذ الإمام من المقالات فى السنة الأولى من جريدة الاهرام ، وكان لا يزال مجاورا فى الازهر لم يصر مدرسا رسميا ، وهى تدل على أنه أوتى من كمال العقل وسداد الرأى فى بدايته ما لا يزال كبار علمائنا وعظماء

---

١ - واجع تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ١٠ و١١ .

٢ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤٣ .

رجالنا قاصرين عن إدراكه، ولو عمل أهل هذه البلاد بارشاده منذ تصدى للاصلاح ونشر آرائه فى الصحف لكانت مصر الآن من أعظم الأمم علما وحضارة واستقلالا وقوة، ولكن استعداد الأمة كان ناقصا، وما نراه الآن من التنبه والتوجه إلى العلم والعمل للأمة فله ولإستاذه السيد جمال الدين الفضل الأول فيه، وقد صرح هو بأنه لا يرجو أن يعيش إلى أن يرى ثمرة عمله، وأنه ليس إلا معدا وممهدا لمصلح يأتى بعده». [1]

***

واستمرت صلة الامام بالازهر على ما علمناه من قبل، من حضور الدروس التى يرغب فى حضورها، والاستماع الى الاساتذة الذين يثق فى مقدرتهم العلمية وكفاءاتهم، والاطلاع خارج الأزهر على ما يرى نفسه نزاعة اليه من العلوم والمعارف، ثم الاختلاف إلى جمال الدين والأخذ عنه، فلما كان عام ١٨٧٧ م تقدم لامتحان العالمية، ولكنه رأى وجوه الممتحنين عابسة، وأحس قلوبهم منه نافرة، ورأى فى الاسئلة الموجهة اليه صعوبة وشدة رغبة فى إحراجه، وتشوقا إلى تعجيزه. ولم يكن من الصعب على محمد عبده معرفة أسباب ذلك كله، فقد كان مكروها من شيوخ الازهر الذين اشتدت حفيظتهم عليه لأسباب كثيرة. يقول الدكتور تشارلز آدمس: «وبعض هذه الموجدة يرجع إلى كراهيتهم لدرس الفلسفة التى كان جمال الدين يبعثها من جديد، وبعضها إلى نزعته التجديدية على وجه عام. على أنه

١ — تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤٨.

يبدو أنه كان للغيرة أيضا شأن كبير . فإن محمد عبده وغيره من الطلاب كانوا على الأرجح يهملون دروسهم فى الأزهر ويتغيبون عنها ليقرأوا على جمال الدين ». [١]

ومما يدل على كره الشيوخ للشيخ محمد عبده ، وعلى أن الصعوبة التى وجدها أثناء تأديته امتحان العالمية انما كان لتعجيزه انتقاما منه ، ذلك الخلاف الذى وقع بينه وبين الشيخ « عليش » رأس المتحرجين الغاضبين فى ذلك الوقت ، وترجع أسباب هذا الخلاف إلى ما سمعه عن الدروس التى يلقيها الطالب على زملائه ، وترجيحه لمذهب المعتزله على مذهب الاشعرية ، وهو من الأمور التى لم يكن يرضى عنها أستاذ يعتقد فى نفسه عدم صلاحية تلميذه بل وعجزه عن مثل هذا البحث والترجيح . وقد لوح الشيخ عليش بعكازه اثناء مناقشة حادة بينه وبين المجاور محمد عبده ، ولعله هم بضربه ، ولعله أراد أن يمنعه من القاء دروسه . ولم ينقطع محمد عبده عن قراءة الدرس ، ولكنه كان يضع بجانبه عصا ويقول : إذا جاء الشيخ عليش بعكازه فله هذا العصا . [٢]

***

كان محمد عبده تلميذ جمال الدين وهو على ما علمناه أستاذ الفلسفة الاسلامية الحديثة ، وكان محمد عبده يكره الشيوخ المتزمتين ، وكان يسخر

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٤٠ .

٢ ـ محمد عبده للاستاذ عثمان أمين صفحة ٣٠ .

من تلك العقول التى لا تحاول الفكاك من قيود فرضتها عصور الجهالة والاستبداد ، وكان يعتز بعلمه وثقافته ، ويغار على كرامته وشرفه ، ولذلك دبرت حوله الدسائس ، ومكر به أساتذته وحاولوا تعجيزه فى الامتحان ، ولكنه استطاع بحسن اجابته ، ومساعدة الشيخ العباسى [1] شيخ الجامع الازهر ورئيس لجنــــة الامتحان وقت ذاك ، واستطاع محمد عبده بسداد رأيه ، وكثرة اطلاعه وثبـات جنانه ، أن يظفر بشهادة العالمية من الدرجة الثانية ، وقد صدر بها مرسوم باسم الخديو اسماعيل وتاريخه غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ - (١٨٧٧) . [2] قال محمد عبده :

« عرضت نفسى على مجلس الامتحان فى ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ هـ ، وابتليت فى الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش ، وكان يعادينى على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ؛ وكانوا قد أجمعوا أمرهم على أن لا يمنحونى درجة ما فى العلم ، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحهـا ، ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسى الجامع الأزهر ، وأخذت أقرأ العلوم الـكلامية والمنطقية » . [3]

---

١ - يقول الشيخ رشيد رضا فى تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٣ - إن محمد عبده قال له فيما قال إن الشيخ العباسى حلف بعد أن رأى رغبة الشيوخ فى تعجيزه أنه لم ير احدا امتحن فى عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة عتارة لاستحقها .

٢ - محمد عبده للاستاذ عثمان أمين صفحة ٢٣ .

٣ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٢ و١٠٣ .

و فرح الامام لنيله هذه الدرجة [1] لشيء واحد هو مساعدتها له على أن يخطو الخطوة الاولى فى سبيل غاياته الواسعة ، وإصـــلاحاته التى كان يحلم بتحقيقها منذ زمن بعيد . وظل الإمام بعد تخرجه فى الأزهر متصلا بأستاذه جمال الدين الأفغانى ليستق من بحر علمه الفياض حتى فرقت بينهما الحوادث لتجمعهما مرة ثانية فى ساحة الجهاد .

ومن المحقق أن جمال الدين كان ذا شخصية قوية ، وكان يفيض سحراً فطريا ، وقد أثرت كلها فى محمد عبده أثرا بالغا وقادته إلى الطريق الذى سلكه . ولم يفته أن يسجل فى نغمة صوفية حارة اعجابه باستاذه كما يتضح مما كتبه فى نسخة نقلها بخطه من كتاب قديم ، فقد سجل فى خاتمتها : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق الى جناب الحق ، خلاصة من تحلى بالحكمة ، ومنقذ الضالين فى تيه الجهالة والغمة ، محيي الحق والدين ، أستاذنا جمال الدين » .

وكان جمال الدين حتى آخر حياته كثير الثناء على أخلاق محمد عبده ، وكان كلما ذكره يقول : الصديق أو صديق ، مما أثار بعض الغيرة فى قلوب نفر من المحيطين به ومنهم السيد عبد الله نديم رحمه الله .

---

١ ـ شعرت مشيخة الازهر بعد ٢٦ سنة من حصول الشيخ محمد عبده على العالمية بما لحقه فى شبابه من غبن فردت اليه حقه المسلوب ، وأرسلت اليه قرار مجلس ادارة الازهر بمنحه شهادة العالمية من الدرجة الاولى ومعه خطاب بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٠٤ من الشيخ على الببلاوى شيخ الازهر حينذاك يبلغه ذلك القرار .

الفصل الثالث

١ - الامام يشتغل بالتدريس . ٢ - الامام والجريدة الرسمية - ٣ - الامام والثورة العرابية .

الإمام يشتغل بالتدريس

رأينا مما تقدم أن محمد عبده نفر من دور التعليم ففر هاربا إلى الريف تاركا الجامع الأحمدى غير آسف عليه . ورأينا كذلك أنه لم يداوم على حضور جميع الدروس التى كانت تلق بالازهر الشريف لأنه لم يكن يرى وهى تلق بتلك الطريقة العقيمة أى فائدة ترجى من ورائها ، ولكنه أقبل خارج الازهر على ما كان يجد فيه غذاء نفسه ، وما كان يحس منه فائدة لعقله ، وانكب على المطالعة على من كان يستطيع الفهم عنهم ، وشغف بالبحث عن كنوز العلم فى المكاتب المختلفة التى حوت بين جدرانها طلبته .

وكانت العقبات التى صادفها أثناء تعليمه . تلك العقبات التى لا ترجع إلى سبب آخر غير عقم الطريقة وجهل الأساتذة ، وسوء التغذية الذى يؤثر على عقول الطلبة وأذهانهم ، كانت هذه العقبات من أكبر الدوافع التى ملأت قلب الطالب الأزهرى بالثورة وجعلته يمعن فى النظر إلى المستقبل ، ويتحرق شوقا إلى الساعة التى ينتهى فيها من دراسته ليعلن هذه الثورة ، ثم ليقودها بعد ذلك فى الطريق الموصلة إلى أهدافه من تغيير تلك النظم

الفاسدة، والسير بالتعليم فى طريق آخر أساسه معاونة الطالب على الفهم، ومساعدته على إدراك ما يلقى عليه.

لمس محمد عبده الأسباب التى كانت من أكبر العوامل فى جهل الطلاب وسوء فهمهم، وفساد رأيهم، وجمود تفكيرهم، وأحس محمد عبده فداحة الخطب الذى سوف يصيب الشباب إذا بقيت مناهج التعليم سائرة على ما كانت عليه، ولم تبدل الطريقة غير الطريقة. لمس محمد عبده هذا وأحسه ولذلك حاول أن ينقذ الشباب مما هو صائر اليه بأن يكون المعلم الأول الذى يحمل المصباح فى يده، المصباح الذى ينير به الطريق، ويبين السبيل لمن أراد الهداية والرشاد. وإذ هو أراد أن يكون المعلم الأول. وإذ هو أراد أن يكون أول داع إلى الخروج عن طرق التعليم ونظمه التى ألفها الأزهريون جميعا من أساتذة وطلاب، فقد أدرك ثقل التبعة التى سوف يحملها على عاتقه، تلك التى تطوع لحملها عن طيب خاطر. وأدرك محمد عبده فوق ذلك ما سوف يصيبه من سهام النقد فى بلد تسلط فيه على العقول جمود ثقيل لا يحاول المفكرون التخلص منه.

ولم يكن امام محمد عبده وهو شاب يمتلىء صدره بالحمية والنشاط، ويمتلىء قلبه بالإيمان والثقة، ويمتلىء عقله بالعلم والمعرفة، ويدفعه الإخلاص إلى أن يعمل شيئا ضد مايحسه من ظلم، وما يلمسه من آثار الجهل .. لم يكن أمام هذا الشاب غير الجهاد والدعوة إلى العلم الصحيح، والمعرفة التى تهدى من ضل، وتسدل ستار الراحة على من تعب وأضناه البحث والتنقيب، ولذلك

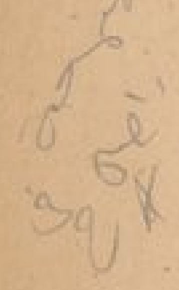
اشتغل بالتدريس ، وكان التدريس أحب اليه من أى عمل آخر .

يقول محمد عبده يوم ألحوا عليه فى اختيار منصب غير الذى اختاره لنفسه : « إنما خلقت لأن أكون معلما »[١] .

« وفى الحق إن الخطة التى اختطها فى حياته العامة فيما بعد والتى اتجهت إلى استخدام كل ناحية من نواحى نفوذه فى بث آرائه ، وفى تعليم الجمهور ، تظهر فى جلاء ووضوح أن ميله إلى التربية والتعليم كان يملأ شغاف قلبه ، وتدل على صدق اعتقاده فى أنه لم يولد إلا لمثل هذه الحياة . »[٢]

***

وكان أول مافعله محمد عبده بعد حصوله على إجازة العالمية الإقبال على التدريس فى الأزهر ، وإلقاء الدروس فى موضوعات مختلفة . . هنا تبدأ الخطوة الأولى من جهاده فى سبيل الغاية التى كان يصبو إليها . . تلك الغاية التى بدأ يسعى فى تحقيقها منذ التحق بمعاهد العلم . . ومنذ أحس ضعف نظم التعليم التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . . ومنذ أحس ذلك الإهمال الشديد الموجه إلى الطلاب ، وعدم الإكتراث بأمرهم من حيث الفهم وعدمه .



وقد وجه الإمام فى ذلك الوقت همه إلى أمرين عظيمين : —

الأول — تدريس العقائد على أساس البراهين القطعية ، وقد تأثر بهذه

١ — الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٤٢ .

٢ — نفس المصدر والصفحة .

النزعة منذ أن اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى .

الثانى — تجديد مايلى من العلوم العقلية وغيرها من العلوم التى كان ينفر رجال الأزهر من الاشتغال بها أو البحث فيهاخوفا على عقيدتهم . .

وكان للطريقة التى اتبعها محمد عبده فى إلقاء دروسه ، وكان لطرافة الموضوعات التى ألقاهاعلى الطلبة ، أثر كبير فى اشتداد التزاحم على حلقات دروسه . . تلك الحلقات التى أحاطت بكثير من أعمدة الرواق الذى كان يدرس فيه ، ولا نستطيع الجزم بأن الذين هرعوا إلى تلك الحلقات كانت تدفعهم جميعاً الرغبة الصادقة فى الإستفادة منه ، أو الحرص على أن لايفوتهم شىء مما كان يلقيه . . غير أن الواقع الذى لاشك فيه أن الذين اتصلوا به أو سمعوا عنه من أصدقائه وعارفيه ذهبوا إليه تدفعهم الرغبة الصادقة ، كما أن الذين حذروا من لقائه ومنعوا من الإتصال به ، وخوفوا من حضور دروسه ثم حضروا هذه الدروس وانضموا إلى حلقاتها إنما دفعهم إلى ذلك رغبتهم فى اكتشاف شىء من أمر هذا الرجل ، والتحقق عما كان يقال عنه يومذاك من « كفر وزندقة » . . غير أن أكثر الذين ذهبوا وهذه غايتهم ، وذلك قصدهم ، لم يستطيعوا التخلص من تلك الحلقات أو الفرار من تلك الدروس . . يقول الشيخ رشيد رضا : « شعر الأزهر بشىء جديد يتجلى فى تلك الدروس فهابها كثيرون ، كما أقبل عليها كثيرون ، وحسد الفقيد عليه بعض الشيوخ فكانوا يصدون تلاميذهم عنه ، حدثنى صديقنا حفنى بك ناصف أنه ماأقدم على حضور درسه فى الأزهر إلا على

سبيل الإكتشاف مع مراعاة الحذر والإحتراس ، وإنما اكتشف بتلك التجربة كنزاً من التبر ، وغاص فى بحر جنى منه أنفس الدر ، فترك لهما كان يلهو به من الخزف ، أو يخطف بصره من بريق الصدف ، وتبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه (١) .

***

ولم يقتصر عمل الشيخ على التدريس فى الأزهر وحده ، وإنما تعداه إلى غيره من دور العلم ، فقد عين فى أواخر عام ١٨٧٨ بوساطة « رياض باشا » مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم ، وبدأ محمد عبده دروسه فيها بقراءة « مقدمة ابن خلدون » ، ذلك لأنه رآها الوسيلة الوحيدة التى تمكنه من بيان أسباب نهوض الأمم وسقوطها من غير أن يعرض نفسه لغضب رجال الحكم فى ذلك الوقت الذى تلبدت فيه السماء بالغيوم ، وانتشرت فيه العيون والأرصاد .

كان محمد عبده يرى البلاد تهوى بسرعة نحو الحضيض لفساد نظام الحكم ، وعظم سلطان الأجانب ، واندلاع الفتن من كل جانب .. وكان يود من كل قلبه لو يتحدث فى السياسة ليقف الناس على أسباب هذا التدهور ، وليكشف لهم عن طرق العلاج التى لو أخذوا بها وتضافروا على تنفيذها بدقة وعناية وصبر واحتمال لكان فيها خلاصهم وبها نجاتهم .. وكان محمد عبده يود لو ينشر آراءهم الإجتماعية وتعاليمه التى أخذها عن

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١٣٥ .

reform

جمال الدين بين أكبر عدد ممكن من الناس ليكون بذلك قد بلغ رسالته التى وطد العزم على تبليغها ، وهى التميز بين ماللحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . ثم الدعوة إلى الإعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لايرده عن خطأه ، ولايقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل . .

كان محمد عبده يرغب فى هذا وذاك حتى عين مدرسا للتاريخ « بدار العلوم » ، وإذا به يقرأ مقدمة ابن خلدون ، وإذا به يطبق لتلاميذه ما فيها على ما هو حادث فى بلاده ، واذا به يبث أفكاره وآراءه أثناء تفسيره لما يطالعه من الأسباب التى تدعو إلى عزة الملك والسلطان ، والعوامل التى تساعد على ذل الشعوب وضعفها . يقول الدكتور تشارلز آدمس : « كان الأستاذ الشاب يبسط آراء المؤرخ العظيم فى أسباب نهوض الامم وسقوطها ، وأصول الحضارة والعمران البشرى والاجتماعى الانسانى ثم يعقب عليها بآرائه الخاصة فى الشئون السياسية والاجتماعية ، تلك الآراء التى كان يستقيها من المصنفات الحديثة ثم يطبق هذا كله بطريقة عملية على شئون أمته » (١) .

وعين محمد عبده فى نفس الوقت مدرسا للعلوم العربية فى « مدرسة الألسن الخديوية » ، ولم يكن الجمع بين التدريس فى الأزهر ودار العلوم وهذه

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٤٣ .

المدرسة الأخيرة ليعوق الأستاذ الشاب عن تأدية الواجب على أحسن ما يكون أداء الواجبات، ولم تكن الجهود المضنية التى يبذلها فى سخاء لتحول بينه وبين الإخلاص لهذا الواجب، والتفانى فى خدمة أبناء وطنه ودينه، وكان محمد عبده يرمى من التدريس فى مدرسة الألسن الخديوية إلى « ايجاد نابتة من المصريين تحيي اللغة العربية والعلوم الإسلامية وتقوم عوج الحكومة ». (١)

وكان محمد عبده إلى جانب التدريس فى هذه المدارس كلها يحاضر الناس فى داره فيما يهمهم من شئون الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الدينية. وكانت داره مقصد طلاب العلم على اختلاف أوطانهم. ولم يكن محمد عبده يمل هذه الزيارات ولكنه كان يحاول الاكثار منها لأنه كان يرى فيها وسيلة من وسائل الاصلاح والتهذيب اللذين ينشدهما ويسعى اليهما بكل ما يستطيع من جهد. وقد قرأ لتلاميذه من رواد هذه الدار دروسا فى الأخلاق والسياسة، فقرأ فى ذلك كتاب « تهذيب الاخلاق » لابن مسكويه الرازى، ثم بدأ فى قراءة النسخة المترجمة لكتاب « التحفة الادبية فى تاريخ تمدن الممالك الاوربية » للمؤرخ والوزير الفرنسى جيزو.

وبينما محمد عبده منهمك فى أداء واجبه مجد فى سعيه اذا بالظروف القاسية تقف له بالمرصاد، وتحول بينه وبين اتمام رسالته، وتعوقه عن السير فى الطريق الذى سلكه الى غايته، ذلك أن الخديو « اسماعيل باشا » تنازل لابنه « توفيق » فى ٢٥ يونيو من عام ١٨٧٩ م.

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٤٣.

وكان توفيق باشا قبل أن يتولى حكم البلاد صديقا لجمال الدين ومحمد عبده، مشايعا لآرائهما فى الاصلاح، راغبا فى تنفيذ ما يشيران به يوم تصير اليه مقاليد الحكم، فلما تولى الحكم خاف عاقبة انتشار تلك الآراء، وكان ذلك بايعاز من ذوى الاغراض والمطامع فى مصر، ومن الذين يسيئون الظن بجمال الدين ومحمد عبده، وكان بايعاز من اولئك الذين حملوا لهما البغض والكراهية، وحاولوا اقصاءهما عن مركزيهما لحسد ملأ قلوبهم، وجهل سيطر على عقولهم.

أصغى توفيق باشا لهؤلاء المغرضين الذين أحاطوا به من كل ناحية ثم أسرع فأمر بنفى جمال الدين [1]، واقالة محمد عبده من المدارس التى كان يعمل فيها والتنبيه عليه بالاعتكاف فى قريته «محلة نصر»، وعدم تركها أو أو الرحيل عنها حتى يؤذن له.

وهكذا صدم محمد عبده فى آماله الواسعة العريضة.

---

١ — سنبين ذلك بالتفصيل فى كتابنا عن جمال الدين الافغانى ان شاء الله.

الإمام والجريدة الرسمية

علمنا مما تقدم فى الفصول السابقة أن « محمد عبده » بدأ يشتغل بالصحافة منذ أن كان طالبا بالأزهر ، وأنه مرن على الخطابة والكتابة على يدى أستاذه « جمال الدين الأفغانى » . وعلمنا كذلك من تلك الفصول أن اتصاله بجمال الدين ثم اشتغاله بتحرير المقالات بعد ذلك نبه الناس اليه ، وجعله فى مقدمة من طلبوا الاصلاح وسعوا اليه ، وجاهدوا فى سبيله .

وكان من نتائج صيحاته المتكررة وآرائه الجديدة وجهوده المتواصلة إبعاده الى الريف والتنبيه عليه بالتزام قريته كما وضحنا من قبل .

ولم يشفع لمحمد عبده شافع من المقربين أو من أصحاب الجاه والنفوذ ، فلما عاد رياض باشا من سفره الى الخارج ورأى ما حدث للشيخ توسط له عند الخديو حتى رضى عنه ، ووافق على تعيينه محررا ثالثا بالجريدة الرسمية بعد أن استشار الشيخ حسين المرصفى ، ومحمود سامى البارودى باشا كلا على حدته . وإن مجرد هذه الرغبة من رياض باشا لتحملنا على الوقوف قليلا لبحث الأمر وتعليله للوصول الى الدافع الاول لهذه الوساطة

°°°

ولد رياض باشا عام ١٨٣٤ م (١٢٥٠ هـ) ، وهو من عائلة تعرف بعائلة الوزان [1] ، والتحق بخدمة الحكومة منذ صباه ، وأخذ يتدرج فى

١ - الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى لعبد الرحمن الرافعي بك صفحة ٣٧ .

(٥)

وظائفها إلى أن عين ناظرا للنظار لأول مرة فى عهد الخديو توفيق باشا. ويرجع اختيار الخديو له لاتفاقهما فى السياسة التى كان يرمى اليها كل منهما. وكان رياض باشا فوق ذلك خير أداة لتنفيذ الحكم المطلق، فقد عرف بصلفه وشدة غروره بنفسه واستبداده وتمسكه بالقديم. وكان رياض باشا ميالا إلى الإذعان للتدخل الأجنبي وعدم معارضة الأجانب فى السياسة التى يسيرون عليها.

غير أنه كان إلى جانب صلفه وكبريائه حاكما ممتازا: وكان حازما قوى الشكيمة، بارز الشخصية، ماضى الإرادة، محبا للعمل، لا يمل منه، يقظا على رقابة مرءوسيه، يشعرهم دائما بأنه عليهم رقيب عنيد، يأخذهم بالشدة والحزم إذا هم قصروا فى القيام بواجباتهم، وقد كان بلا مراء أكفأ معاصريه من الوجهة الإدارية وأكثرهم جلدا على العمل، وهذه المزايا قد ساعدت كثيرا على انتظام الأداة الحكومية فى عهده، ثم كانت له ميزة كبرى غير ذلك وهى نزاهته واستقامته، وحبه للعدل، وتعففه عن الرشوة، وتلك صفات لم تكن مألوفة فى طبقة الحكام »[1]. كل هذا دفعه إلى البحث عن رجل قوى الشكيمة، ماضى العزم، شديد الاعتداد بالرأى الذى يرى فيه الخير والمصلحة، شجاعا لا يهاب شيئا فى سبيل الصالح العام. وقد انتهى بحث رياض باشا إلى محمد عبده الذى أشركه فى تحرير الجريدة الرسمية فى سبتمبر من عام ١٨٨٠ م.[2]

١ – الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى صفحة ٤٠.
٢ – الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٤٤.

وإذا كان محمد عبده لم يمانع فى الانضمام إلى هيئة تحرير الوقائع المصرية لتنفيذ الإصلاحات التى رغب فيها ناظر النظار ، فإن الجريدة ظلت مع ذلك مدة من الزمن على حالها الذى كانت عليه من قبل ، ولم يحدث فيها أى دليل على التقدم أو تظهر أى بادرة من بوادر النشاط . ولما سئل فى ذلك صرح بأنه ما دام مرد الأمور ليس اليه فإنه لا يملك من وسائل الاصلاح إلا القليل . ولم يجد ناظر النظار بدأ — أمام هذا التصريح — من تكليفه كتابة تقرير ضاف يبين فيه ما يعن له من الأمور وما يراه كفيلا بتحقيق الغاية المرجوة . وقد تألفت لجنة من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات ومحمد عبده للنظر فى التقرير المقدم ووضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة .

* * *

وعين الإمام بعد انتهاء اللجنة مما أسند اليها رئيسا لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية وسمى « المحرر الأول » ، واختار لمعاونته بعض من كان يثق فيهم ويراهم أهلا لتحمل التبعة الجسيمة التى سوف تلقى على عواتقهم . من هؤلاء الذين اختارهم الزعيم الخالد « سعد زغلول » وكان يومها مجاورا أزهريا فى نحو الحادية والعشرين من عمره ، والمرحوم الشيخ « عبد الكريم سلمان » ، والمرحوم الشيخ « سيد وفا » ، والمرحوم « ابراهيم الهلباوى بك » ، وكانوا جميعا من تلامذة السيد جمال الدين الأفغانى الذين برعوا فى الكتابة ، والذين امتلأت قلوبهم بحب الوطن ، وتاقت نفوسهم الى فك قيوده وأغلاله .

ولم يقنع محمد عبده بعد هذا التعيين بما وصل اليه من مركز حكومى

يتقاضى من أجله الراتب المعلوم ، ويستخدم نفوذه فى الشفاعة لهذا والانتقام من ذاك . ولم يقنع محمد عبده بمكتبه الفخم المريح وزملائه الذين اختارهم ويرى من حقه أن يترأس عليهم . لم يقنع محمد عبده بهذا كله لأنه لم يكن بما يفكر فيه ، ولم يكن شىء من هذا كله ليلهيه عن الغاية الأولى ، فقد أبى أن يشعر بالراحة وضميره غير مرتاح ، وأبى أن يستجم والأمة فى شقاء ، وأبى أن ينال الفخار إلا بزملائه المخلصين الأمجاد . أبى محمد عبده أن يكون رئيسا أمام الواجب المقدس ذلك لأنه كان يحس فى نفسه أن المرء وإن علا ذكره ، وسما نسبه ، وشرف محتده وأصله ، لن يكون أمام هذا الواجب إلا فردا عاديا من أفراد الشعب ، له ما لهذا الفرد العادى من حقوق ، وعليه ما على هذا الأخير من واجبـــات . بهذا الشعور الجميل تقدم محمد عبده وزملاؤه لإصلاح حال الجريدة الرسمية . وكان أول ماقام به بوصفه المحرر الأول تنفيذ اللائحة التى وضعها لقلم المطبوعات والتى كان من أهم موادها ما يأتى : —

أولا — على جميع إدارات الحكومة ومصالحها ومجالسها فى العاصمة وغيرها أن تخبر الجريدة بما شرعت فيه من أعمال فأتمتها أو لم تتمها لأسباب حالت دون ذلك . وقد استطاع محمد عبده بهذه الطريقة أن يوجد التنافس بين الإدارات المختلفة ، فقد رغبت كل واحدة منها أن يكون ماتتمه من أعمال أكثر مما تتمه غيرها ليكون لها الأسبقية ، ولتنال محبة الشعب ، ولتكون موضع تقدير الجهات العليا وإعجابها . ولا شك أن الشعب قد استفاد من

هذا التنافس نحو عمل الخير الذى أصبحت الجريدة وسيلة الإعلان عنه والدعاية له .

ثانيا — للجريدة الحق فى انتقاد ما تراه منتقدا من الأعمال والمكتوبات الرسمية .

وكان لانتقاد الجريدة أثر قوى فيما ظهر بعد ذلك من رغبة الموظفين فى إتقان اللغة العربية وإجادتها خوفا من ملاحظات رئيس التحرير الذى اعتبر المعبر عن رأى الحكومة وظلها فى مؤاخذة الموظفين وانتقادهم . ودعت هذه الخطة الحكيمة إلى ظهور طائفة من الكتاب المجيدين وهم الذين وكلت اليهم كتابة التقارير وكانوا من قبل مهملين لا ذكر لهم ولا شأن . ودعت كذلك إدارات الحكومة ومصالحها إلى تحرى الحق والعدل والاجتهاد فى إصلاح شئون العمل فى كل نظارة وكل مديرية وكل محافظة .

وكان من نتيجة انتقاد أعمال الحكومة إنشاء مجلس المعارف الأعلى لإصلاح الخلل وتوجيه التعليم وجهة صحيحة . وعين الإمام عضوا فيه ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إنه كان أبرز أعضائه وأكثرهم دفاعا عن التعليم وحريته ، وأشدهم رغبة فى ترقيته وجعله موافقا لروح التقدم المنشود .

ثالثا — للجريدة الحق فى مراقبة الجرائد الوطنية والأجنبية التى تصدر فى القطر المصرى ، ولها أن تبحث فى حقيقة ما تقوله فى رجال الحكومة وأعمالها .

وكان من أثر هذه المراقبة مبادرة أصحاب الصحف إلى تحرى الصدق

فيما ينشرونه من أخبار وخاصة ما كان متعلقا بأعمال الحكومة وتصرفات رجالها المسئولين، ثم انتقاء المحررين واختيار من كان صحيح العبارة، «وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة شهيرة بتعطيل جريدته اذا لم يختر لها محررا صحيح العبارة فى مدة معينة، فأسرع مدير الجريدة إلى تنفيذ ماأراد رئيس قلم المطبوعات» [١]، وبذلك صحت العبارة وقوى الأسلوب.

رابعا ـ للجريدة حق الفصل فى كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلا لا مناقشة فيه.

خامسا ـ لرئيس التحرير الحق فى أن يخصص قسما من الجريدة غير رسمى ينشر فيه لنفسه ولزملائه ما يرى فى اذاعته ونشره وسيلة إلى الاصلاح المنشود.

وقد استطاع الامام أن يتناول فى هذا المكان الذى خصصه لنفسه ولزملائه المحررين كثيرا من الموضوعات القيمة التى كانت تتصل بالمصلحة العامة، ومن يحاول الرجوع إلى المقالات التى كتبها الإمام فى ذلك الوقت يستطيع الحكم من غير إجهاد النفس وأعمال الفكر على أن صاحبها كان كثير الاهتمام برقى أمته، شديد الرغبة فى أن تقيم نهضتها على أسس ثابتة ودعائم قوية. ولم يقصر الامام قلمه على ناحية واحدة ولكنه حاول أن يغزو بهذا القلم كل النواحى التى كان يرى أن الحاجة تدعو إلى رفع مستواها، وأنها مفتقرة إلى اصلاح ما فيها من خلل وعيوب.

---

١ ـ محمد عبده للاستاذ عثمان امين صفحة ٤١ .

كان محمد عبده فى تحرير الوقائع معلما ومصلحا فى وقت واحد، كان كل ما يرجوه أن يقوى على رفع مستوى الأمـــة، وتقويم أخلاقها، والنهوض بها نهضة شاملة حقيقية ولكن فى تدرج وأناة، ودون التجاء الى الطفرة والعنف. وكان يعتقد أن ذلك ميسر له إذا استطاع القادة أن يسلكوا بالأمة سبيل التربية والتعليم المنتج، ولذلك كتب بنفسه يحث على الاكثار من إنشاء الجمعيات الخيرية التى تمد يد المساعدة للمحتاج، وتغيث الملهوف، وتؤمن الخائف، ممتدحا تأييد الحكومة لتلك الجمعيات وشد عضدها بما تبديه من المساعدات لها فى كل مايوجب ثباتها وتقدمها، وتشييد أركانها، وتقوية دعائمها. وليس من شك فى أن دعوته هذه إنما هى دعوة إلى التقريب بين القوى والضعيف، والغنى والمحتاج، وصاحب الجاه ومن لاجاه له، دعوة الى المحبة والوطنية، والألفة الأنسية، والتعاون على جلب المنافع العامة ودفع بلايا الفقر والمذلة الناشئة من الشقاق والتباغض المتولدين من حقيقة الحياة الانسانية. (١)

وكتب يدعو الحاكم والمحكوم الى احترام القانون واستعمال غاية الدقة فى فهم فصوله وحدوده، والوقوف على حقائق مغزاه، والسهر لتحقيق الاعمال جزئية وكلية على منطوقه الحقيق ومفهومه لتسعد البلاد ويستقيم حالها وتحيا حياة حقيقية، ويسرى فيها روح السعادة. (٢)

وكتب فى الناحية الاقتصادية التى كانت السبب الأول فى تلك الأزمات

---

١ - حكومتنا والجمعيات الخيرية - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤٩.

٢ - احترام قوانين الحكومة وأوامرها - نفس المصدر صفحة ٥٢.

الشديدة التى أحدقت بالبلاد وأوردتها موارد التهلكة والتأخر . كتب يحث الفلاحين وهم عماد الثروة فى البلاد على محاولة إرجاع ما اغتصبه منهم الدائنون الأجانب أيام الظلم والاضطهاد ، وأيام حملوا من الاثقال النقدية ما لا يطيقون من ضرائب متنوعة تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام ، الى غير ذلك من المتاعب التى لاحد تقف عنده ، ولا غاية تنتهى اليها . وقد نبههم الى أن ذلك لا يكون إلا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة أو دونها حرصا على نيل الشرف الحقيق ، وهو تخليص أملاكهم ، أو حفظها من تطرق يد الغير اليها . وما الاقتصاد إلا فضيلة من فضائل الانسانية الجليلة ـ مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده .

وكان محمد عبده يدعو الى الاقتصاد الذى هو توسط فى الانفاق بحيث لايبسط صاحب المال يده كل البسط حتى لايبق فيها شيئا ، ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئا . بل ينفق من ماله على حسب حاله يقدم الأهم فالمهم ، فيدفع الضرورة ويقيم البنية على قدر ما يناسب غناه وفقره ، مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض غير المنتظرة التى قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بغتة من حيث لا يشعر ، وكان يدعو الفلاحين الى عدم النفور من الاعمال العامة التى يكلفون أداءها ، فى تضافرهم على هذا الاداء نفع عام ، ومنع لكثير من الكوارث . (١)

---

١ ـ حب الفقر أو سفه الفلاح ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٦ وما بعدها .

وكتب محمد عبده فى الثقافة والتعليم مقالات طويلة قيمة ، ذلك لأن هذه الناحية بالذات شغلت حيزا كبيراً من تفكيره ، ولأنه كان يرى أن الأمة لاتستطيع النهوض الحقيق إلا إذا ارتفعت مدارك أبنائها ، وتثقفت عقولهم ، ونالوا فى التعليم قسطاً كبيرا يمكنهم من معرفة الحقوق والواجبات .

وقد حاول الشيخ فى كتاباته عن التعليم إفهام الحكومة أن من الخير والمصلحة العامة تيسير سبل التعليم أمام الراغبين فيه ، وإنشاء المدارس الليلية التى تمكن من فاتهم الأخذ بأسباب العلم من الالتحاق بها لتدارك مافاتهم تحصيله . وكان يرجو أن يكون ذلك التعليم الليلى مستديماً آخذا من البداية ، سهل الوسائل ، ميسر الأسباب بلغة البلاد عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل ، ويبطل برهان الكاسل ، وتنبعث الغيرة فى الكل إذا أقبل البعض على التعليم ، ويقع التنافس فى الفضائل .

ودعا الشيخ إلى مراقبة المدارس ، ومؤاخذة المدرسين الذين يقصرون فى عملهم مع تشجيع المجتهدين منهم ، على أن تكون الامتحانات العامة ونسبة النجاح فى كل مدرسة مرآة ذلك التقصير والاجتهاد . ودعا كذلك إلى تشجيع الأكفاء منهم بزيادة رواتبهم حتى يكون ذلك حافزا لهم على مضاعفة جهودهم ، مع إسناد مهمة التدريس إلى رجال عرفوا بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، قادرين على تأدية وظائفهم تأدية تكفل نجاح الطلبة وتيسير أمور التعليم للراغبين فيه ، مع تغيير النظام وإزالة الصعوبات التى

عاقت الناس فيما مضى عن المضى فيه .(١)

وكان غرضه من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة . إلى التحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التميز بين الخير والشر ، والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سجية لها ، وكان غرضه من تربية النفوس إيجاد الملكات والصفات الفاضلة فى النفس وترويضها عليها ، وإبعادها عن الصفات الرذيلة ، حتى يكون المتحلى بها ناشئا على مايوافق قواعد الاجتماع البشرى ولوازمه ومتعوداً عليها .(٢)

وكان من نتائج اهتمامه بشئون التعليم والتربيـة إنشاء مجلس المعارف الأعلى فى ٣١ مارس سنة ١٨٨١ ، وانتخابه عضواً فيه كما ذكرنا من قبـل ، ثم اختياره عضواً فى لجنة فرعية ألفها المجلس للنظر فى طرق التعليم والتربية .

وكان محمد عبده يرجو أن تغير العادات والأخلاق شيئاً فشيئا ، وكان فى الوقت نفسه يرى الطريق إلى ذلك طويلا وعر المسالك ، ولذلك بدأ يكتب فى تغيير الأبسط والأسهل ، كتب فى « العلم وتأثيره فى الإرادة والاختيار » ، وفى « الملكات والعادات » . وفى « التمدن » ، وكتب يدعو الناس إلى الفضيلة والأخلاق الحميدة ، ويبين لهم العادات الحسنة التى يجب اتباعها إذا كانوا ينشدون تهذيب نفوسهم ورقيها ، والنهوض بالأمة

---

١ ـ المعارف ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٦٩ ومابعدها .
٢ ـ التربية فى المدارس والمكاتب الميرية ـ نفس المصدر صفحة ٨٠ .

وتقدمها .. بين لهم فى هذه المقالات وخامة الرشوة ومافيها من دلالة على ضعف النفوس .. وحدثهم عن العفة ولوازمها ليلتزموها فى أعمالهم وأفعالهم .. وكتب فى الناحية الاجتماعية فبين حاجة الانسان إلى الزواج، كما بين أن الشريعة الإسلامية لما فرضت على الزوج إقامة حدود الله فى العدل بين زوجاته، إنما كان قصدها العملى أن تشجع الاكتفاء بزوجة واحدة، [١] وكتب فى إبطال البدع الدينية الضارة والمنافية لروح الدين. [٢]

ومن أهم مادعا إليه محمد عبده ووجه الأفكار إليه، وحذر الآباء من الوقوع فيه عدم إرسال الأبناء إلى مدارس يتولى التعليم والإدارة فيها مدرسون على غير مذهبهم أو دينهم، لأن الأبناء فى سنواتهم الأولى كالعجينة يستطيع المربى أن يشكلهم كيفما أراد، وأن يوجههم الوجهة التى يختارها، وفى هذا مافيه من ضرر بالغ ونكر عظيم، ومن تساهل فى ذلك ثم تغير اعتقاد أبنائه وانقلبت مذاهبهم إلى مذاهب أخرى فلا يلومن إلا نفسه. [٣]

وتناول محمد عبده فى مقالاته الشئون السياسية العامة ليعلم الشعب حب الوطن وإعزازه، والدفاع عنه والتضحية فى سبيله. كتب تحت عنوان

---

١ - حكم الشريعة فى تعدد الزوجات - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ١١٣.

٢ - إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية وبطلان الدوسة - نفس المصدر صفحة ١٣٣ و ١٣٦ وما بعدها.

٣ - تأثير التعليم فى الدين والعقيدة - نفس المصدر صفحة ١٦٤.

« الحياة السياسية » : « وجملة القول أن فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً ، الأول : أنه السكن الذى فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد . والثانى : أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهران . والثالث : أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز ، أويسفل ويذل ، وهو معنوى محضا .. فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئاً ، ويبيت فى الأهل أمينا ، وهو مقامه الذى ينسب إليه ، ولايجد فى النسبة عاراً ولايخاف تعييراً ، وهو الآن موضع حقوقه التى حصلت له بما أوضحنا من دخوله فى دور الحياة السياسية » . (١)

وعرض محمد عبده لحكومة الشورى وضرورة اتفاق التشريعات التى تضعها أية أمة مع روح الاسلام منذ نشأته ، وذكر أن من واجب الرعية مناصحة الحكام بواسطة مندوبيهم ، وأنه ليس هناك مايمنع من وضع نظام خاص يكفل تحقيق العدالة والمصلحة العامة مادامت الشريعة لم تجىء ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام . (٢)

ولم يكن محمد عبده يرجو من هذا كله غير النهوض بالأمة ورفع مستواها ، والتقدم بها نحو الرقى خطوات تستطيع أن تعيد بها مكانتها

---

١ ـ الحياة السياسية ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ١٩٤ .

٢ ـ الشورى ـ نفس المصدر صفحة ١٩٧ ومابعدها

الأولى، وترفع بها عن نفسها أغلالها وقيودها . . وقد عجب الكتاب وتساءلوا كيف يستطيع رجل أزهرى أن يتناول جميع نواحى الإصلاح بما لم يتناوله رجل قبله، ويجلس مجلس الحكم فى حكومة استبدادية شتان بين وسائلها ووسائل العلماء ورجال الدين، فينظر فى أعمال الموظفين ويتناولها بالنقد، ويولى جهودهم شطر الإصلاح، ويعلم صحافة البلاد فضيلة الصدق . ويرفع مستواها الأدبى، ويعمل على تقويم أخلاق الأمة وعاداتها . (١) غير أن هذا كله ينتهى إذا عرف أن محمد عبده كان قوى الإيمان، عظيم الثقة بنفسه، شديد الرغبة فى إسعاد أمته، جريئاً فى الحق لا يخاف .

وجدير بنا قبل أن ننتهى من هذا الموضوع أن نلفت النظر إلى أمرين هامين :

الأول – النهضة الأدبية التى أحدثها محمد عبده ومعاونيه باشتغالهم فى تحرير الوقائع : فقد كانت جهودهم باعثا لنهضة جديدة، وعاملا قوياً فى تجديد أساليب الكتابة بالقضاء على الضعف الذى ورثه الأدب عن العصور المظلمة، وعلى أسلوب السجع المتكلف، مع إرسال الكلام مطلقاً من القيود المألوفة .

والثانى - تأييده لوزارة رياض باشا الذى عرف بغطرسته وقسوته واستبداده، ولكن إذا عرف قول محمد عبده « إنما ينهض بالشرق مستبد

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٤٩ .

عادل » (١) عرف اتجاهه والسر فى هذا التأييد. وقد فسر هو نفسه هذا المستبد فقال: « مستبد يكره المتناكرين على التعارف، ويلجىء الأهل إلى التراحم، ويقهر الجيران على التناصف، يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة، إن لم يحملوا أنفسهم على مافيه سعادتهم بالرغبة، عادل لايخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذى يحكمه، فإن عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه ». (١)

وإذا عرف أن رياض باشا كان فوق حزمه ويقظته، وكفاءته الإدارية واستقامته، وتعففه عن الرشوة ميالا إلى تخفيف بعض أعباء الحياة عن الشعب إذ بدأ برنامجه فعلا بإلغاء بعض الضرائب البغيضة كالضريبة الشخصية ورسوم الجمارك الداخلية، وتحريم استعمال الكرباج أداة فى جمع الضرائب وإلغاء السخرة، وتوزيع مياه النيل بالعدل، كما وضع نظاماً لتدبير الميزانية، ونظاماً للتحصيل فى الأوقات المعينة، إذا عرف هذا كله عرف السبب فى تأييد محمد عبده لرياض باشا ووزارته.

وكان يرى أن خمسة عشر عاما كافية ليثنى فيها هذا المستبد العادل أعناق الكبار إلى ماهو خير لهم ولأعقابهم حتى إذا صح الشعور، واستقامت الأفكار، أباح لهم قدرا من الحرية.

وظل محمد عبده يواصل جهوده فى خدمة الشعب حتى حالت حوادث الثورة العرابية دون السهر على إتمام مابدأ فى تنفيذه من خطط الرقى والإصلاح.

---

١ - إنما ينهض بالشرق مستبد عادل - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٣٩٠ .

الإمام والثورة العرابية

كانت البلاد يوم تولى «توفيق باشا» مسند الخديوية تعبر مرحلة من أدق مراحل حياتها، وتشق طريقها فى صعوبة وشدة، ذلك لأنها كانت مثقلة بكثير من الأعباء التى انحدرت إليها مع السنين، وكان الشعب المصرى يشكو مما يعانيه نتيجة الضرائب الفادحة التى كان يرغم على أدائها لتغطية مركز البلاد المالى.. وكان الشعب يتطلع إلى حكم جديد ينتهى فيه عهد الإسراف والمظالم، وتخف فيه وطأة الضرائب التى لم يكن لأدائها نظام أو ميعاد..

وإلى جانب ما كان يقاسيه الأفراد من إرهاق شديد، وتعنت بالغ، وفوضى فى إجبارهم على دفع الضرائب مرات فى حين أنهم كانوا عاجزين عن دفعها مرة واحدة، وإلى جانب ما كانوا ينالونه من ظلم فادح لأقل شبهة أو اتهام، وما كانوا يتحملونه فى سبيل ذلك من تشريد ونفى وتعذيب.. كان نفوذ الأجانب إلى جانب هذا كله يزداد يوما بعد يوم مما جعل المصريين يفكرون فى تقرير النظام الدستورى ليكون حائلا دون تمكين هذا النفوذ من التغلغل فى كل مرافق الحياة المصرية، وقد دفعهم ازدياد هذا النفوذ إلى التفكير كذلك فى وضع حد لسيطرة الأجانب على مصالح الدولة، واحتقار الشعور القومى، وعدم الاهتمام برفع مستوى الحياة الاجتماعية فى البلاد..

تولى «توفيق باشا» والبلاد من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية على ماوصفنا، وأما من الناحية الثقافية فكانت هناك ومضات من النور وضع بذورها «محمد على باشا الكبير» يوم أنشأ المدارس، وأرسل البعثات إلى الخارج، ثم تعهد إسماعيل باشا نموها من بعده، والواقع أن إسماعيل باشا قد أحياها من جديد، وبعثها بعد موتها بما بذله من جهود لجعل البلاد قطعة من أوروبا تماثلها فى ثقافتها وآدابها وعلومها.. وكانت هذه الومضات تظهر حينا ثم تختفى حتى جاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر فأحاطها بعنايته، ورعاها بتعهده.. وكان من نتيجة ظهور هذه الومضات، وتعهد السيد جمال الدين لها أن تنبهت العقول، ونزعت الطبقة المثقفة من الأمة إلى التخلص من مساوئ النظام القديم، وإنقاذ البلاد من تدخل الدول الأوروبية فى شئونها.

وعرف الشعب فى الخديو الجديد رغبته فى إسعاده، وتخفيف وطأة المظالم، ومنع القسوة، كما عرف عنه حب الاستقامة، والبعد عن الإسراف والتبذير. وكان لهذه الصفات التى عرفها فى حاكمه أثر كبير، فقد فتحت أمام الشعب باب الأمل الذى اشتد التعلق به على أثر الخطاب الذى بعث به إلى «شريف باشا» يعتمد فيه تشكيل النظارة الجديدة، وقد جاء فيه:

«ولعلمى أن الحكومة الخديوية يجب أن تكون شورية ونظارها مسئولين فإن اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لاأحول عنه، فعلينا تأييد شورى النواب، وتوسيع قوانينها، لكى يكون لها الاقتدار

فى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الأمور المتعلقة بها» . (١)

غير أن توفيق باشا كان إلى جانب حبه للخير ، ورغبته فى إنهاض الشعب ، عاجزاً عن تحقيق ما كانت تصبو إليه نفسه ، وكان ضعفه وتردده ، إلى جانب بعض تصرفات الحكومة ورجال السراى المقربين . . كان ذلك كله سبباً فى قطع الأمل الذى علقه الشعب عليه ، وكان سببا فى قيام الطوائف المثقفة بالبحث عن كل الوسائل التى تمكنهم من تحقيق مطامعهم ، والوصول إلى غاياتهم . . وكانت الثورة العرابية من هذه الوسائل .

والثورة العرابية هى تلك الحركة التى قام بها أحمد عرابى باشا وأعوانه لإنصاف الضباط الوطنيين وتخويلهم حقوقهم المشروعة فى المناصب والرتب العسكرية ، وهى الحركة التى قام بها أولئك الضباط للقضاء على عوامل الاضطهاد الذى كانوا يقاسونه من الضباط الأتراك والشراكسة الذين ظنوا أنهم من طبقة أعلا من الطبقة المصرية ، وأنهم أكرم نفساً من المصريين ، وأنقى دما من أبناء الفراعنة الأمجاد والعرب الكرام . . وكانت هذه المطالب غاية مايرجوه زعماء الثورة فى بادئ الأمر ، غير أن الحركة أخذت تتطور شيئاً فشيئا حتى شملت طبقات الأمة كلها ، واندفعت تسير نحو محاولة التخلص من الحكم الاستبدادى ، وتدعو إلى تقرير مبادئ العدل والحرية .

---

١ - الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى صفحة ٢٣ .

ويخطئ من يظن أن الحركة قامت فجأة من غير أن يمهد لها بين الطبقات المختلفة ، وللثورة دوافع كثيرة يرجع بعضها إلى أسباب بعيدة نجدها فى عهد اسماعيل ، ويرجع بعضها إلى أسباب قريبة نجدها فى عهد توفيق ، ويرجع البعض الآخر إلى أسباب مباشرة وهى اصطدام المصريين فى الجيش بالأتراك والشراكسة ، ومناصرة الخديو لهم بايعاز من الأجانب الذين وجدوا فى ذلك الاصطدام الفرصة للتدخل وبسط نفوذهم .

ولا يعنينا فى هذا المقام إطالة الحديث عن الثورة نفسها والبحث عن أسبابها ودوافعها ، والتيارات المختلفة التى كان لها الفضل فى ترجيح كفة على كفة . لايعنينا شىء من هذا بقدر مايعنينا معرفة موقف الإمام من هذه الثورة ، وهل كان من المحبذين لها ، أو الساخطين عليها ، ومقدار ما كان له من أثر فى كلا الحالين . .

***

يكاد يجمع الكتاب والمؤرخون على أن الإمام كان كارها للثورة العرابية فى أول الأمر لاختلاف الوسائل التى لجأ إليها الزعماء عن الوسائل التى كان يريد الأخذ بها والعمل بمقتضاها ، ثم كان من المعضدين المناصرين لزعمائها يوم اشتركت فيها طبقات الشعب كلها ، وأصبحت الغاية منها الدفاع عن حقوق الوطن وحرياته ، ولكنى أرى أن موقف الإمام من هذه الثورة ينحصر فى ثلاث مراحل لا مرحلتين كما ذكر بعض الكتاب والمؤرخين .

المرحلة الأولى — تلك التى شايع فيها زعماء الثورة قبل أن يلجأوا

إلى سيوفهم لتحقيق ما كانوا يطمعون فى تحقيقه . يقول الدكتور « تشارلز آدمس » :

« وفى الحق إنه كان ، كما يقول اللورد كرومر ، روحا مدبرة للحركة . فى أدوارها الأولى ، وقبل أن يلجأ الزعماء العسكريون إلى مقابض سيوفهم للوصول إلى أغراضهم ، يظهر أنه كان يظن أن الوقت قد حان للبدء فى تنفيذ خططه الإصلاحية الواسعة . وأن يجعل من تلك الحركة خطوة إلى الأمام لتخليص البلاد من رق الأجانب ، وكان يظن عند ذاك أن الزعماء بعيدون عن الغرض الشخصى ، وأنهم ينهجون نهج الإصلاح . وينشدون العدل والمساواة ، فحاول مخلصاً بكل قواه ، أن يدير دفة الحركة ، ولم يبخل قط بنصيحته على الزعماء حتى ولو لم يريدوها منه .

« وانتهز الفرصة التى أتيحت له فى تحرير الوقائع المصرية ، والإشراف على صحافة البلاد لينشىء رأياً عاما متحداً ، وليشجع الأغراض المعقولة التى كان يرجو تحقيقها » . (١)

ويدلنا على صدق ذلك قول المستر « بلنت » : « وقد سار كل شىء على مايرام إلى آواخر ذلك العام (١٨٨١) ، وفى خلال الأسبوع الأول من سنة ١٨٨٢ كان الاتفاق قد تم بين الأحزاب المصرية ، وهدأ الجيش

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٥٠ و٥١ .

واعتدلت لهجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدى الجميع ». (١)

☼ ☼ ☼

المرحلة الثانية — وهى التى فكر فيها الجند فى الاحتكام إلى السيف واستعمال القوة والعنف . والخروج عن طاعة ولىّ الأمر ، والوقوف منه موقف المعارض الذى ركب رأسه حتى تجاب مطالبه ؛ وكان الإمام فى هذه المرحلة كارها لها ، غير راض عن الوسائل التى لجأ إليها الزعماء . وقد بين ذلك المرحوم السيد رشيد رضا فى قوله :

« كان أستاذنا فى أول أمر هذه الثورة (٢) كارهاً لها منددأ بزعمائها وهو بينهم ، لأنه كان يعلم أنها تحبط عمله الذى مضى فيه ، وكل إصلاح تعمله الحكومة أو تنويه ، وأنها تمهد للأجانب سبيل الاستيلاء على البلاد ؛ بل كان هو وأستاذه يتوقعان ذلك من سيرة إسماعيل باشا ، وقد صرح السيد فى خطبه وفى بعض ما كتب وطبع لذلك العهد ، وحاول أن يحول

---

١ — التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر للمستر ولفردبلنت وتعريب « البلاغ » ، وكان المستر بلنت المستشرق الانجليزى الكبير صديقا حميا لمحمد عبده ، وكانت له حديقة كبيرة ومنزل جميل بعين شمس ، وقيل إنه هو الذى أغرى محمد عبده على سكنى هذه الضاحية ليكون الاتصال به سهلا قريباً ، وقد دافع عن استقلال مصر زمناً طويلا وأنشأ لذلك عام ١٩١١ جريدة مصر ، وفى عام ١٩١٨ نشر كتاباً بعنوان « يومياتى » تكلم فيه عن محمد عبده والشؤون المصرية .

٢ — هذا مايراه بعض المؤرخين ، وهو أن المرحلة التى حمل فيها عرابى سلاحه واستعمل القوة فى تحقيق مطالبه هى المرحلة الأولى ؛ والواقع — كما بينا من قبل — أنها الثانية ، فقد سبقتها مرحلة التفكير فى الاصلاح والمطالبة بتنفيذ خططه بطريقة سلبية .

دون ما يخشى ويتوقع بالسعي فى الإصلاح ، فليس قولنا عن أستاذنا إنه كان لا يجهل خطر الثورة من الدعوى أو الرجم بالغيب ، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان .

« كان ينتقد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا فى أنديتهم وسمارهم ، وبالكتابة فى الجريدة الرسمية ، حتى أرسل إليه عرابى مرة من يهدده ويقول إنك أهنت الشرف العسكرى بما كتبت عن الجيش ورؤسائه ؛ أرسل إليه ضابطين إلى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما إذا هما لم يخرجا ، حتى صار عرابى وأعوانه ينفضون من المجلس الذى يدخل فيه » . [1]

كره الإمام أن يكون من المناصرين للحركة فى هذه المرحلة لأن القائمين بها حادوا عن الطريق الذى رسمه ، ولجأوا إلى العنف والقوة وهما لا يجديان ، ولأنه رأى الأمة لم تستعدّ بعد لقبول جميع مطالب الزعماء ، تلك التى إذا قام الجيش لتحقيقها بحد السيف فإنها لا تبقى طويلا ومصيرها حتما إلى الضياع . .

وكان محمد عبده أول من نبه الأفكار ـ بعد جمال الدين ـ إلى الحكومة النيابية وإلى إحقاق الحق ورفع الظلم والقضاء على عوامل الفوضى والاضطراب ـ وهى كل مطالب العرابيين أو أكثرها ـ ولكنه لم

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الامام : الجزء الأول صفحة ١٤٦ .

يطالب بسرعة تنفيذ ماوجه القلوب إليه ، ويظهر لنا رأيه صراحة فى خطبة ألقاها فى جمع من العرابيين جاء فيها :

« إن أول مايجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة ، وحمل الحكومة على العدل والإصلاح . ومنه تعويدها الأهالى على البحث فى المصالح العامة واستشارتها إياهم فى الأمر بمجالس خاصة تنشأ فى المديريات والمحافظات ، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية مالم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد ، ولو كانت الأمة مستعدة لمشاركة الحكومة فى إدارة شؤونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى . فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لأنه ليس تصويرا لاستعداد الأمة ومطالبها ، ويخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالا أجنبياً يسجل على مسببيه اللعنة إلى يوم القيامة [1] » . وقد قال لعرابى مرارا كثيرة : عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب فى بضع سنين .

وكان الإمام يرى أن المطالبة بالحرية والعدل والمساواة ، وتقييد الحكومة الاستبدادية ، إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا إذا انتشر بين أفرادها التعليم الصحيح ، والتربية النافعة ، وأصبح لهم رأى يدافعون عنه ، ووجهة نظر يطلبون تحقيقها ، أما أن يكون ذلك من الطبقات العليا

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١٤٦ و ١٤٧

التى تترفع عن الشعب فلم يعهد فى سير الأمم ونظام الاجتماع .

وقد عجب الإمام من ذلك حتى انه قال فى اجتماع عام حضره أقطاب الحركة وزعماؤها : « فهل تغيرت سنة الله فى الخلق ، وانقلب سير العالم الإنسانى ، أم بلغت فيكم الفضيلة حداً لم يبلغ إليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم فى جاهكم ومجدكم ، وتساووا الصعاليك حبا بالعدالة والإنسانية ؟ أم تسيرون إلى حيث لاتدرون وتعملون مالا تعلمون ؟ . »(1)

• • •

المرحلة الثالثة — وهى التى عاد فناصر فيها الحركة بعد أن هب الجيش يحاول القضاء على عوامل الفساد بحد السيف ، وبعد أن أصبحت الحركة لا دفاعا عن مطالب الضباط المصريين وحدهم ، وإنما دفاعا عن كرامة الأمة ، وحقوقها المغتصبة ، وحرياتها المفقودة ، واستقلالها الذى انتهكت الحكومة الانجليزية حرمته .

كان الإمام يخالف عرابى فى طريقة التفكير : كان من رأيه عدم المطالبة بالإسراع فى تنفيذ المقترحات التى تقدم بها زعماء الثورة ، وكان من رأيه أن يكون نظام الحكم المنشود فى البداية من قبيل المرانة والتعويد مقرونا بالتربية والتعليم ، وأن يكون برضا الأمير وحكومته ؛ ولكنه لما لم يجب إلى طلبه ، واندفع الزعماء وراء الخيال ، ووجد أن الأمة كلها راغبة

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٤٨ .

فيما رغب فيه أولئك الزعماء — على علم بما هم مساقون إليه أو على جهل منهم — ولما رأى العدو على الأبواب يهدد البلاد واستقلالها ، لم يستطع التخلف ، لأنه فى فكره وسط بين الطرفين ، وفى عمله بين المصلحتين ، . (١)

يقول الدكتور تشارلز آدمس : « ومع ذلك فإنه لما قضت الحوادث بأن يختار إحدى اثنتين : إما الانضمام إلى المطالبين بالإصلاح ، وإما الوقوف فى صف أمير البلاد — وهو فى الواقع صف التدخل الأجنبى — اختار الانحياز إلى جانبهم ، بالرغم من أنه كان يخشى عاقبة أعمالهم » . (٢)

وظهرت وطنية الإمام جلية واضحة فى هذه المرحلة الأخيرة ؛ وفى ذلك يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك : « ويبدو لك مبلغ ثقة زعماء العرابيين به فى هذه المرحلة أنه لما اشتدت أزمة الخلاف بينهم وبين الخديو توفيق وجاء الأسطولان الإنجليزى والفرنسى فى مايو سنة ١٨٨٢ ورفضت وزارة البارودى مطالب الدولتين ، اجتمع البارودى وكبار الضباط وأقسموا اليمين على أن يكونوا يداً واحدة ، فكان الشيخ محمد عبده هو الواضع لصيغة اليمين وتحليف كبار الضباط عليها ، ولما اعتدى الانجليز على كيان مصر وضربوا الاسكندرية ، بذل الفقيد كل إخلاصه لمناصرة الدفاع القومى ، وكان موقفه موقف الوطنى الذى يثور لكرامة البلاد واستقلالها ، فدافع عنها بكل ما لديه من حول وإخلاص وقوة ، ودعا إلى التطوع فى صفوف

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١٤٩ .

٢ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٥٣ .

الجيش المدافع عن مصر وإمداده بالإعانات والتبرعات ، وله فى هذا الصدد مقالات بليغة فى الوقائع المصرية » .[1]

ooo

وانتهت الثورة العرابية بالفشل لأسباب كثيرة لخصها الأستاذ عباس محمود العقاد فى قوله : « لم تفلح الثورة العرابية لأنها أحيطت بدواعى الحبوط من الدسائس الخارجية ، ومن تهالك الحكام على الدول الأجنبية ، ومن خطل الزعامة ، وعبث الدولة العثمانية .

« ولولا ذلك لسارت فى طريق أقوم من طريقها ، وانتهت إلى مصير خير من مصيرها ، ولكنها تعرضت لذلك جميعه فانتهى أمرها إلى الهزيمة ، وكانت نهايتها بداية احتلال أجنبي للبلاد .

« وأعقب الثورة ما أعقبها من نكال وانتقام ، ومن تجسس وسعاية ، ومن خيانة الأصحاب ومكائد الأعداء . فنكصت الأخلاق شر نكوص ، وران اليأس على الضمائر ، فمات فيها رجاء الخير أو قرب أن يموت » .[2]

انتهت الثورة باحتلال البلاد ، والقبض على الثائرين تمهيداً لتقديمهم للمحاكمة ، وغصت السجون بكثير من الزعماء ، وكان الإمام من بينهم ولكنه لم يكن كغيره يفكر فى نفسه أو فى أهله ، بل كان يفكر فى مستقبل أمته ، وفيما طواه الغيب لهذه البلاد التى أحبها من قلبه ، وجاهد لكى تكون

---

١ - الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى صفحة ٥٤٠ .

٢ - سعد زغلول للكاتب الكبير عباس محمود العقاد صفحة ٦٩ .

فى مقدمة الدول الآخذة بسبيل الحضارة والنمو .

وكان المستر « بلنت » - صديق الإمام والعرابيين - يتألم للحوادث الجارية فى مصر ، بدليل قوله : « لما كانت هذه الحوادث تجرى فى مصر كنت أنا أمضى الصيف فى كرابت والحزن يقطع نياط قلبى .. وكانت عواطفى بالطبع مع المصريين ولو أن جميع أسباب المكاتبات بينى وبينهم قد قطعت . وكانت حمى الحرب فى الأسابيع الأولى من القتال عظيمة بدرجة لاتدع أية منفعة من كلامى . فضمت أمام الجمهور واستعددت لأن أقدم دفاعى عن موقفى إزاء المسألة المصرية » .[1]

وقد دفعه هذا الألم إلى السعى لخدمة القضية المصرية فى شخص الزعماء المسجونين المقدمين للمحاكمة ، وكللت جهوده ومساعيه لدى أمته بالتصريح للمستر « برودلى » بأن يكون محامى الثورة يفند كل مايصل إليه من الوثائق ، ويغربل كل مايسمعه من الأحاديث حتى يقف على الحقيقة التى تساعد أولئك الذين عاكسهم القدر وخانهم الحظ .

وكتب الإمام وهو فى السجن تقريرا عن حوادث الاسكندرية التى وقعت فى ١١ يونيو من عام ١٨٨٢ ، وكشف التقرير عن حقيقة هذه الحوادث ، وعن الجهات التى تكاد تكون مسئولة عن وقوعها .

وكتب المستر برودلى عن الإمام يقول : « ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين ، وقد أثر فى الطبقة

---

١ - التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر .

المهذبة من أهل وطنه تأثيرا ظاهرا لأنه كان كاتباً لطيفا ، وعالما بالعربية ضليعاً ، وخطيباً فصيحا يعمل فى القلوب . ولا شك أنه ساعد من قبل كثيرا على جعل الرأى العام عاملا حقيقياً فى الترقى المصرى ». [1]

وقال فى موضع آخر : « وإذا جاز لمصر أن تسير منفردة أو أن يكون لها بداءة خير يوما من الأيام فإنها لايسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر » . [2]

وللمستر برودلى بعض آراء أخرى لايمكن أن تطابق الواقع ، من ذلك قوله : « وقد سبّ وأهين فى السجن مثل رفقائه ، لكنه يختلف عنهم بحيث أن أخباره عما أصابه من المحن ضعيفة مبهمة إذا قيست بأخبارهم . والظاهر أنه لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا فى أواخر أيامه فى السجن ـ حينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التى سعينا لاستحقاقها . . وكاد يتعذر علينا فى بعض الأحيان أن نصدق أن الشيخ محمد عبده هو كاتب تلك الإيضاحات البراقة الدالة على غايات الوطنيين المصريين التى كان قد أرسلها إلى المستر بلنت قبل ذلك بستة أشهر فقط » . [3]

وكل مانستطيع أن نعقب به على هذا الرأى هو أن المستر برودلى لم يتمكن من فهم الشيخ محمد عبده على حقيقته ، فقد كان أبعد من أن يلم بكل نواحيه ، وليس ذلك إلا لأنه لم يتصل به اتصالا وثيقاً يمكنه من

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢٢٥ بقلم المستر برودلى .

٢ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٢٣٢ للمستر برودلى .

٣ - نفس المصدر صفحتى ٢٢٥ و ٢٢٦ .

كشف ماخفى من أسرار تلك النفس العظيمة . . وإذا كان محمد عبده لم يثق فى المستر برودلى من أول الأمر ، فلم يكن ذلك لعدم استطاعة الإمام التخلص من آثار الصدمة ، ولكنه كان تحفظاً منه على أثر ماسمعه من فساد الجو ، وانتشار الوشايات ، وخيانة الأصحاب والأصدقاء ، يدل على ذلك كتابه الذى أرسل به إلى أحد مريديه فى ٩ المحرم من عام ١٣٠٠ هـ — الموافق لعام ١٨٨٢ م . . وقد جاء فيه :

« عزيزى

تقلدتنى الليالى وهى مدبرة   كأننى صارم فى كف منهزم

هذه حالى : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت مابين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين ، فاستحجرت فى طباقها طباع الناس ، إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين .

« انتثرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموس والأقمار ، وتغيبت الثوابت المنيرة ، وفرّ كل مضيء من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين ، وتمحضت السلطة لآلهة الشر ، فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين . .

« سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم

الحق ، وحرفت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة القدر ، والله لايهدى كيد الخائنين .

« ذهب أرباب السلطة فى بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسطة ، ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها فى معرض السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين .

« لايطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفى فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا ، بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوه غير مخطئين .

« وكل ذلك لم تأخذنى فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافى التى تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم ، أو يبرمه القضاء ، عالماً بأن كل مايسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لأن الله يعلم - كما أنت تعلم - أننى برىء من كل مارمونى به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً أو كنت من الضاحكين » . (1)

كل ذلك هو الذى أحزن الإمام إن كان قد حزن ، ولكنه مع حزنه لم يشك مما ناله ، ولا مما أصابه ، ولم يبعث اليأس إلى نفسه مصيراً يفكر فيه ، وخاتمة يخاف مواجهتها . حزن الإمام حقيقة ، ولكن حزنه كان على

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٢٦٧ وما بعدها .

ما أصاب الناس من دناءة ، وما صاروا إليه من فساد فى الخلق ، ورغبة فى الدس والوقيعة ونكران الجميل ، وبيع الذمة لعرض من أعراض الدنيا الزائفة ..

* * *

وللإمام قصيدة فى الثورة كتبها وهو فى السجن انتظاراً للمحاكمة ، والقصيدة برهان ساطع على أن مكائد الحاسدين لم تنل منه ، وكل ما استطاع السجن أن يفعله ، وكل ما تمكنت الدسائس أن تقوم به ، هو إيجاد الفرصة التى تحدث بها الإمام عن بعض ما كانت تنطوى عليه جوانحه ، ودفعه إلى أن يكشف لنا عن طوية نفسه وعلو قدره . وإلمامه التام بكل ما كان يحيط بالبلاد من ظروف ومشاكل .. يقول السيد رشيد رضا : « نظم صاحب الترجمة قصيدة فى شأن هذه الثورة وهو فى السجن صوّر فيها كل ما كان فى دماغه وقلبه فى ذلك الوقت ، إذ كانت نفثة مصدور ، وشكوى مظلوم ، وأمانى مصلح لم يدر كنهه أهل زمنه ، فاتهموه بضد ما كان عليه فى نفسه » (١) .

قال الإمام :

مالى يعنف قلبي من تغاضيه ... دهر يبالغ فى عجب وفى تيه
أبيت ليلى كملسوع تساوره ... زرق الأفاعى وقد شدت أياديه

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١٥٠ .

الجسم فى ألم والروح فى قلق ... والقلب فى فزع من خوف آتيه
وما ذنوبى لدى دهرى سوى شمم ... يأبى الدنايا وأفكار تضاهيه
سريت للمجد هوناً غير ذى عجل ... على أساس من التقوى أراعيه
مجدى بمجد بلادى كنت أطلبه ... وشيمة الحر تأبى خفض أهليه!

***

وبين الإمام حالة البلاد بعد أن هزم الجيش ووطىء الأعداء أرض الوطن وأخذوا يمرحون فيها كما يشاءون، فقال:

وصار جيش العدا جيشا لحاكمنا ... وقوة الملك تحمى وجه عاديه
فانحل عقد نظام كان ملتئماً ... وبدد الرأى وهم كان يوهيه
هذا وهذا إلى ما كان من دخل ... فى أنفس من كبار الجند تطويه
وزاد فى الضعف ضعفاً أن قوتنا ... ناس يرى ضبطهم صعباً تلافيه

وقال فى ختام القصيدة:

وأحفظ الدهر أنى لا أشا كله ... فيما تبطن من غش وتمويه
أحارب الدهر وحدى ليس ينفعنى ... إلا الثبات وحسبى من أصافيه
تعلم الدهر منى كيف يطعننى ... فخاب ظناً وخانته مزاكيه
وليس يعجزنى عن كسر فيلقه ... إلا المنايا تفاجينى فتحميه
إن المنايا سهام الله سددها ... وليس يخطىء سهم الله مرميه

***

ويبدأ الإمام قبل وفاته بسنوات فى كتابة تاريخ للثورة العرابية.

كاشفاً عن كثير من الحقائق التاريخية التى لا يعرفها غيره ؛ ولكنه مع الأسف الشديد لم يتم وضع هذا التاريخ لأسباب كثيرة.

* * *

سبق أن قلنا إن الحكومة الانجليزية قبضت على زعماء الثورة وقدمتهم للمحاكمة، وقلنا إن المستر برودلى كان محامياً عن العرابيين ؛ ونزيد على ذلك أن الحكم صدر بعد المرافعات الطويلة قاضياً بنفى محمد عبده لمدة ثلاث سنوات. وتقبل الامام الحكم راضياً، قوى النفس، ثابت الجنان.

وكان الامام أثناء المحاكمة قوى العزيمة لم تظهر عليه أى بادرة من بوادر الضعف والوهن، وكان يرجو أن تطول به حياته، لا خوفا على هذه الحياة، ولكن ليعاود الجهاد فى مصر أو فى غيرها من بلاد الله الواسعة. وقد جاء فى رسالة بعث بها من السجن أثناء المحاكمة إلى أحد أصدقائه:

« إن الحوادث المريعة سوف تنسى، وأن الشرف سوف يرد ؛ ولئن أبت طبيعة هذه الأرض بخستها أن يكون لها من عوده نصيب، فليعودن فى بلاد خير منها، ولأجذبن إلى المجد أحبتى ومن إلى المجد ينجذبون ؛ كل ذلك إن عشت، وساعدتنى صحة الجسم، ولا أطلب شيئاً فوق هذين سوى معونة الله الذى عرفه بعض الناس، وبعضهم له منكرون ». (١)

وبر الامام بوعده، فما إن وصل إلى سوريا فى نهاية عام ١٨٨٢ م حتى عاود الجهاد، وبدأ يناضل فى سبيل الشرق الاسلامى عامة، وفى سبيل مصر والسودان خاصة، وقد جاء فى إحدى رسائله:

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الأمام الجزء الأول صفحة ٢٧٣.

« هل أتأسف أن كنت سباقاً إلى الخيرات .. هل أتأسف أن كنت مقداماً فى المكرمات .. هل أتأسف أن كنت شجاعاً فى الدفاع عن ذوى مودتى .. هل أتأسف أن كنت أبياً أغار أن ينسب مكروه أو ذل .. لأولى صلتى .. هل أستحق العقاب على حبي لبلادى والناس لها كارهون ؟

« كلا والله لن يكون ذلك ولم أزدد فى سبيل الفضيلة الا بصيرة ، ولم أزدد فى سبيل المحافظة عليها إلا ثباتا ، ولئن عشت لأصنعن المعروف ، ولأغيثن الملهوف ، ولأنقذن الهاوى فى حفرة القدر ، ولآخذن يد المتضرع من ضغط الظلم ، ولأتجاوزن عن السيئات ، ولأتناسين جميع المضرات ، ولأبينن لقومى أنهم كانوا فى ظلمات يعمهون . »[١]

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى الطبعة الثانية صفحة ٥١٧

الفصل الرابع

١ - فى باريس ٢ - فى بيروت
٣ - العروة الوثقى ٤ - جمعية التأليف والتقريب

فى باريس

فى يوم ١٢ صفر من عام ١٣٠٠ هـ ٢٤ ديسمبر من عام ١٨٨٢ م صدر الحكم على المتهمين باثارة الفتن وإشعال نار الثورة العرابية، وكان محمد عبده أحد الذين حكم عليهم بالنفى خارج البلاد، ونفذ محمد عبده الأمر الصادر اليه بصدر رحب، وسافر إلى سوريا فى نفس العام غير آسف على ما خلفه وراءه من انحطاط الأخلاق، وضعف العزائم، وتفكك الوحدة القومية، وتغليب الشهوات على المصلحة العامة، وتحكم القوى فى الضعيف، والبعد عن الدين، وانتهى به المطاف فى بيروت، وهناك قابله أهلها بالحفاوة التى جددت نشاطه وبعثت فيه الحمية لمواصلة الجهاد، كتب فى ذلك الى أحد أصدقائه: «وبعد فانا اليوم فى بيروت فى فضل من الله أشكره، وجميل إحسان أذكره، ومقامى عند جميعهم محفوظ، ومكانى بعين التوقير ملحوظ، غير أنه لا يسوى بقومى قوم. ولا كيوم وطنى يوم». (١)

وبينما الإمام فى بيروت يحس عطف السوريين عليه، وتوددهم اليه، وإقبالهم على دروسه، ورغبتهم فى التزود من معارفه، وبينما هو يقيم حلقات

---

١ - محمد عبده للاستاذ عثمان أمين صفحة ٧١ .

الدرس لينشر بها آراءه إذ يستدعيه أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الأفغانى ليلحق به فى باريس ، ولبى الإمام نداء أستاذه فى فرح وسرور .

ويظهر أن البيئة الفرنسية التى عاش فيها محمد عبده ، والوسط الذى أحاط به كان لهما تأثير فى نظام معيشته فقد وصف المستر بلنت فى كتابه «غردون فى السودان» ناحية من حياة الشيخ فى أولى زياراته لباريس . «ومنه نعلم أن الشيخ الأزهرى لم يمض على إقامته فى العاصمة الفرنسية شهران حتى أصبح - على حد تعبير بلنت - أوربيا متفرنسا . فقد لاحظ الكاتب الانجليزى تغيرا فى زى الشيخ ومظهره : كان الشيخ فى مصر يحلق رأسه حلقا تاما على عادة المشايخ ، لكنه فى باريس ترك تلك العادة ، فاستطال شعر رأسه ولحيته ، وقارب مظهره فى هذا مظهر «أهل الفن» من الأوربيين وقد يكون ذلك أثرا من آثار إقامته فى باريس ، ومتابعته لعرف القوم فى حياتهم الاجتماعية ، وهذا العرف يقضى ، كما هو معلوم ، أن يكون الرجال حاسرى الرءوس فى اجتماعاتهم ومقابلاتهم ، وطول الشعر من مكملات حسن البزة والرونق» . (١)

وكان الشيخ يرتدى الطربوش بدلا من العمامة كما يقول المستر بلنت ، وقد يكون ذلك غريبا فوق جبته الجميلة التى تكسوه مهابة ، ويخيل لنا أنه كان يحاكى فى زيه هذا زى أستاذه جمال الدين ، وأنه كان يسترعى بانسجامه وابتكاره اللطيف أنظار الباريسيين واهتمامهم .

---

١ - محمد عبده للاستاذ عثمان أمين صفحة ٧٥ .

* * *

وفى باريس تكاتف جمال الدين ومحمد عبده ليجاهدا جنبا الى جنب ، فإما أن تحقق الآمال ، ويعاد للاسلام مجده وللدين قوته واحترامه ، وإما أن يستشهدا فى سبيل الوحدة الاسلامية وعزة الدين وكرامته . يقول السيد جمال الدين الأفغانى فى مقال نشره بجريدة العروة الوثقى : « تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة ما مسنا من ضعف فى المزاج مع مصادفة رداءة الهواء فى البلاد الفرنساوية هذه الأيام ، والحمد لله على زوال المانع ، إلا أننا مع ذلك لم نقصر فى أداء الواجب من العمل الذى قمنا به فى المدافعة عن حقوق المسلمين ، فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ، ونرجو من ديان السماوات والأرض أن نموت فى هذا السبيل ، وأن نبعث فى زمرة السالكين فيها » . [1]

وفى باريس كون جمال الدين « جمعية العروة الوثقى » [2] التى لا انفصام لها ، والتى أخذت تسعى فى قوة الواثق من حقه ، المطمئن إلى عدالة قضيته ، وانضم اليه محمد عبده ناصرا ومعينا ، يصافحه فى حرارة وإيمان ، ويقسم معه ذلك القسم العظيم الذى يلزم صاحبه بالسعى فى سبيل الاسلام ، والدعوة اليه ، والجهاد فى سبيله ، والذود عن بلاده .

وفى باريس وفى فروع الجمعيـــة المبعثرة فى الشرق قام رجال الجمعية

---

١ ـ العروة الوثقى طبعة المكتبة الاهلية فى بيروت صفحة ٤٧٤ .

٢ ـ سيأتى الكلام عنها فى باب خاص .

يعملون لأغراض بعيدة وقريبة ، فأما الأغراض البعيدة فقد خلقوا من أجلها فى سماء الشرق الاسلامى ليروا بعين الحقيقة أسباب ضعفه وخموله ، وأسباب انحطاطه وتأخره ، وليروا العلة التى أصابته فقعدت به عن التقدم وضعضعت من كيانه أمام الغرب . وحاول أولئك المجاهدون أن يسلكوا لتطبيب الشرق من آفاته سبيل الصراحة والقوة والحزم . وما أن فكروا قليلا حتى أدركوا أن خير مايعيد للشرق الاسلامى مكانته إعادة سيرة السلف الصالح فى إدارة دفة شئون البلاد ، والدعوة إلى أن يكون الحكم على أساس الدين الذى يوصى بالعزة والكرامة ، ثم تطهير الدين نفسه من البدع والخرافات ، وإعادته نقيا سمحا طاهرا كسالف عهده ، ولم يكن هذا وحده ما وصل اليه رجال الجمعية وسعوا لتحقيقه ، وإنما أدركوا كذلك أن الخير فى إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من ذل الاستعمار ومصائبه . وأما الأغراض القريبة فإنقاذ مصر والسودان من سيطرة الانجليز ، والعمل على جلائهم تحقيقا لوعودهم التى قطعوها على أنفسهم فى أحاديثهم الرسمية وغير الرسمية .

وفى باريس أنشأ الحكيمان مجلة «العروة الوثقى»[1] ، لتكون لسان الجمعية المعبر عن خوالج نفوس الأعضاء المجاهدين . وقد تكفل جمال الدين بإدارة سياسة الجريدة كما تكفل محمد عبده برئاسة التحرير ، وكان أستاذه يغذيه بأفكاره فيصيغها هو فى أسلوبه العربى الفصيح ويفيض عليها من إيمانه

---

١ — سيأتى ذكرها فى باب العروة الوثقى .

قوة تحببها إلى القراء ، وتثير فى قلوبهم مكامن الغيرة الدينية والكرامة الوطنية ..

وفى خلال المدة التى قضاها محمد عبده فى باريس يصنف المقالات للجريدة ، ويدافع عن الإسلام بقلمه ولسانه ، سافر إلى لندن مرة أو مرتين لمفاوضة الإنجليز فى حل القضية المصرية وجلائهم عن السودان ، ولما تعطلت الجريدة فى أواخر عام ١٨٨٤ م على أثر ما حاق بها من اضطهاد ، وعلى أثر الإجراءات التى اتخذتها انجلترا لمنعها من دخول البلاد التى تشرف عليها أو تربطها بها صلة ، سافر الامام إلى تونس ثم غادرها متنكراً إلى بلاد كثيرة ، ومر فى طريقه بمصر استعداداً للسفر إلى السودان لتنظيم قوات المهدى ، واتخاذ الثورة التى قام بها وما قد تؤدى إليه من نتائج وسيلة لتحرير وطنه من ذل الاحتلال . وهناك ما يثبت مرور الامام بمصر أثناء النفى ، فقد جاء فى رسالة بعث بها إلى صديق له :

« قد يكون لك ظن فيما أبطأ بى عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك ، وحاشا أن يكون تساهلا فى الحق ، أو تثاقلا عن فريضة الود ، وإنما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتى فمزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها من يوم فارقتك إلى الآن ..

« ذهبت إلى باريس فما عدت أن تلقيت من الأمر الجديد أن أتجه جهة الشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات ، فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة « تونس » عملت فى جميعها على إحكام العروة ، وتمكين

عقودها ، ثم أصعدت بعد ذلك الى :

بلد خلعت بها عذار شبيبتى وطرحت فى كف الخطوب عنانى

وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل ، واقبال الأمل . (١)

ولما فشلت الخطة التى رسمها محمد عبده وجمال الدين ، ولم يستطع الأول السفر الى السودان عاد الى بيروت ، وفى ذلك يقول الدكتور تشارلز آدمس : « وفى أوائل عام ١٨٨٥ م ، أى بعد انقضاء عهد التهييج السرى ، رجع الشيخ محمد عبده الى بيروت . وترك جمال الدين ليتم وحده العمل الذى واصله الى آخر أيامه ، فرحب به أصدقاؤه القدماء ، وسرعان ما أصبح بيته كعبة للعلماء والطلاب وعشاق المعارف من جميع الملل والطوائف (٢) » ..

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى الطبعة الثانية صفحة ٥٥٦ .

٢ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٥٥

فى بيروت

وصل محمد عبده الى بيروت فى وقت كانت فيه النهضة العلمية الاسلامية فى أول شروقها ، وقد استطاع بمساعدة رجال الأمة النابهين ، وعلمائها الأفاضل ، أن يرعى هذه النهضة ويتقدم بها الى الامام ، حتى يكتمل نموها وتمتد فروعها .. وما هى إلا أيام حتى كان خبر وصوله قد انتشر ، وحتى كان البعيد والقريب قد سمعا بدروسه التى كان يلقيها بداره فى « برج أبى حيدر » كلما نشر الليل أرديته وعم السكون .. وما هى إلا أيام حتى توافد الناس على هذه الدار ليلتقطوا مايصل إلى أسماعهم من أدب رفيع وحكمة بالغة ، وتفسير يوافق روح العصر ومقتضياته . ويكفى لإظهار تقدير الناس للإمام قول الشيخ « سعيد الشرتونى » للأمير « شكيب أرسلان » وقد سأله عنه ذات يوم : « هذا الرجل إذا تكلم يخرج النور من فيه »[١] ، ويقول الأمير شكيب أرسلان نفسه لبيان مقدار ماوصل إليه الإمام من إجلال البيروتيين واحترامهم له : « وأجمع السوريون على إجلاله والولوع به إجماعا لم يقع مثله لأحد ، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء تزدحم حول ذلك المنهل العذب ، وكان هو لسعة عقله ، وعلوّ إدراكه ، وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٤٠٠ .

كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم»[١] .

وظهرت عبقرية الشيخ واضحة جلية أثناء المجالس التى كان يعقدها للدرس والتفسير ، فقد استطاع أن يجذب الناس إليه ، ويقربهم منه من غير أن يسىء إلى أحد منهم ، وتجنب الشيخ فى هـذه المجالس انتقاص أى مذهب من المذاهب أو عقيدة من العقائد التى كان يرى أن أصحابها من عمار مجلسه ، كما كان يجيب عما يسأل عنه ، ويسترسل فى شرح القضايا التى يهمه أمرها ، ويرى فيها صلاحا للناس من غير أن يظهر تعمده لبيان مزايا الإسلام وفضائله ، أو إظهار احتقاره لمن يخالفونه فى العقيدة والرأى . وكان لذلك أثر كبير فى نفوس كثير من المسيحيين الذين أعجبوا به ومالوا إليه ، وكان من دواعى هذا الإعجاب أنهم وجدوا فيه عالما من طراز آخر كثير الاختلاط بهم ، ملماً بكثير من أحوالهم ، مجددا لايتقيد بما يتقيد به العلماء فى ذلك الوقت ، كما وجدوا فيه رجلا يجتمع فيـه كثير من الصفات الحميدة ، والمزايا التى ترغم المرء على احترام صاحبها ، ويكفى أن نشير إلى أخلاقه التى حببته إلى الناس بما قاله الأمير شكيب أرسلان : «وكانت أخلاقه تسير جنباً إلى جنب مع معارفه ، فكان مثالا للعلم مع العمل ، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد فى شىء من أعماله مطعنا أو مغمزاً ، أو يلحظ منه مايخل بالوقار أو الكرامة أو الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة مالم يكن إلا لكبار الشيوخ من المعمرين مع أنه كان

(١) تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٤٠١ .

شاباً، ولم تكن هذه الجلالة التى فيه ناشئة عن سعة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء المزدان بالعفة ، ومن الفصاحة المتحلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب فى خصاله تاما وكان عظيما من كل جهة ». (١)

ولما كان الشيخ يرى أن التعليم والتربية الصحيحة ، وغرس الفضائل فى النفوس خير طريق موصل إلى الإصلاح ، وأكبر عامل فى تهيئة الأفراد وإعدادهم للحياة النافعة ؛ وجه جهوده إلى طبقة أخرى غير طبقة رواد مجالسه ، أما هذه الطبقة فطبقة الأطفال والشباب ، لأنهم كالعود الرطب يستقيم على ماتنشئه عليه .. ولهذه الغاية السامية أسرع بتلبية الدعوة التى وجهت إليه من « جمعية المقاصد الخيرية » للتدريس بالمدرسة السلطانية . ودخل الإمام المدرسة عام ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م . وكان أول عمل قام به وضع جدول جديد للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعانى والإنشاء والتاريخ الإسلامى والمعاملات من الفقه الحنفى ، وذلك للصف الأول والثانى ، فلما تفتقت أذهان التلامذة وارتفعت مداركهم قرأ لهم فى علم الكلام قسما من إرشادات ابن سينا وفى المنطق كتاب التهذيب ، واستمر فى الإملاء فى التاريخ والمعانى ، وجرى فى الإنشاء على شرح مايستظهره التلامذة من كتاب الألفاظ الكتابية ونهج البلاغة

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٤٠٥ .

وديوان الحماسة [١] . وكان على كثرة ما تكفل به من الدروس يزاول عمله بنشاط لاحد له ، وكثيراً ما كان يزور المدرسة كلما مر بها فى أوقات فراغه مما يدل على شدة شغفه بالتدريس واهتمامه بتنشئة الشباب وحسن رعايته لهم ..

ولم يكن الشيخ يجرى على سنة سابقيه من رجال التعليم من القيام بوظائفهم قياماً آليا لايشعرهم بلذة العمل والجهاد ، أو تحفيظ الناشئة مايلق إليهم من مواد الدراسة تحفيظاً آليا كذلك لايوسع مداركهم ، أويقفهم على خفايا العلوم والمعارف وإنما يثقل كاهلهم ويبعث إلى نفوسهم الضجر والملل .. لم يكن الشيخ يجرى فى تدريسه على هذه السنة البالية ، وإنما كان يرمى إلى غرض أنبل من هذا الغرض وغاية أبعد من هذه الغاية . كان الإمام يرمى إلى تنشئة الطلبة على أساس من الأخلاق قوية الدعائم ، ثابتة الأساس ، لذلك سما بهم إلى أفق أعلى من التربية الأخلاقية ، ولذلك وجه أنظارهم إلى غرض أنبل من مآثر العلم فى ترويض النفس البشرية . وقد جددت هذه الطريقة نشاط المدرسين الذين كانوا يعملون معه ، ويتشبهون به ، ويأخذون عنه ، ويعتبرونه مثلا يحتذونه ، كما حببت الدروس إلى الطلبة الذين أسعدتهم الفرص بالأخذ عنه ، كما أغرت هؤلاء الطلبة على الإقبال على دروسهم بشغف ونشاط .

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٢٩٤ من مقال لتليذه المصلح السيد عبد الباسط فتح الله .

ولما عظم أمر المدرسة بحسن تدبير الشيخ ، سعى بعض رجال العسكرية الذين آلمهم انتشار هذا الفضل وتحدث الناس به ، حتى أبدلوا المدير بآخر لم يتبع طريقة سلفه أو ينهج نهجه ، وإنما اتخذ له طريقاً آخر سار فيه إلى غير غاية ، أو بمعنى آخر إلى غاية لا تتفق والإصلاح المنشود ، وساء حال المدرسة واضطرب نظامها بما اضطر معه محمد عبده إلى الاستقالة والتخلى عن مكانه إلى رجل آخر يتفق والمدير فى مشربه ، وحتى لا يكون مسئولا أمام ضميره ـ ولو ضمنا ـ عن سوء هذا المصير . ولم يقدم محمد عبده استقالته إلا بعد أن عجز عن تقويم هذا المدير والسلوك به فى طريق الخير . فقد كان صنيعة لرجال يكرهون الإصلاح ويكرهون تقدم الأمة واتساع مدارك الأفراد ، لأن التقدم يؤدى حتما إلى تقلص سلطانهم ، ولأن اتساع المدارك يؤدى حتما إلى معرفة الأفراد ما لكل منهم من حقوق ، وما على كل منهم من واجبات ، وفى هذه المعرفة ضياع لهيبتهم وضياع لامتيازاتهم .

* * *

ولم يكن الشيخ محمد عبده يضيع أوقات فراغه من غير عمل يعود على المجتمع بالخير والفائدة ، وإنما كان يستغل هذا الوقت فى إلقاء الدروس العامة التى كثيراً ما كان يعقد حلقاتها فى الجامع الكبير ، أو جامع الباشورة ليتمكن أكبر عدد من من حضورها . ولم يكن حضور هذه الدروس مقصوراً على فئة دون فئة ، أو هيئة دون هيئة ، وإنما كان حضورها مباحا لجميع الهيئات والطوائف .

يقول المرحوم السيد عبد الباسط فتح الله [١] : «لما ظهر من فضله ما ظهر، واشتهر من علمه وعمله ما اشتهر، تسابق الناس إلى معرفته. وتنافس العقلاء من أهل العلم والوجاهة والأدب والنباهة فى خطب مودته، وسأل الكيسون أن يجعل لهم حظاً من الفائدة فأجاب سؤالهم، وخصص ثلاث ليال من الأسبوع يفسر لهم فيها آيا من القرآن الكريم فى جامع الباشورة على مثل منهاجه (الأخير) فى الأزهر، هذا عدا عصريات رمضان من كل سنة، فتسلل الناس إلى استماع دروسه من كل حدب، ولم يرض النبهاء من المسيحيين أن يفوتهم ذلك الحظ العظيم فكان يقف فريق منهم فى باب الجامع العمرى على مقربة من حلقة الأستاذ، ولكن ازدحام الخلق فى الداخل، وضوضاء السوء فى الخارج كانت تحول دون مشتهاهم من الاستماع، فشكوا إليه ضيق صدورهم من ذلك واستأذنوا أن يقفوا لدى الباب من داخل المسجد فأذن لهم [٢].

وكان الأستاذ الإمام يمضى أوقات فراغه فى أحاديث تعقد حلقاتها فى داره، وقلما كانت أحاديثه تخلو من النظر فى أحوال المسلمين فى مختلف البلاد والأمصار، ومن النظر فى شئون حياتهم. والبحث عن خير الطريق إلى إسعادهم، وقلما كانت هذه الأحاديث تخلو من البحث فى أصول الدين وأحكامه وتقريبها من أفهام العامة.

---

١ ـ أحد تلاميذ الاستاذ ومريديه فى بيروت، وقد حضر عليه دروسه كلها وقرأ له الامام بصفة خاصة بعضا من «قسم الكلام» من كتاب التهذيب.

٢ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٣٩٧ بقلم المرحوم السيد عبدالباسط فتح الله.

وكان الشيخ يقضى ما يتبقى له من أوقات فراغه فى تحرير المقالات التى يرشد بها الناس إلى طريق الحق والصواب، أو التى يدافع بها عن الدين كلما دعا الحال إلى ذلك، ولا تزال مقالاته فى مجلة (ثمرات الفنون) دليلا واضحا على أسلوبه، وقوة حجته، وبعد نظره، وحبه للإسلام والدفاع عنه حباً ملك عليه حسه ومشاعره.

واستطاع محمد عبده فى بعض أوقات فراغه أن يترجم (رسالة الرد على الدهريين) للسيد جمال الدين الأفغانى، كما استطاع أن يشرح كتاب (نهج البلاغة) و (مقامات بديع الزمان الهمزانى)، واستطاع الإمام فى هذه الفترة من حياته أن يضع الأساس الذى بنى عليه (رسالة التوحيد). كما وضع رسالتين إحداهما فى إصلاح التعليم الدينى وجهها إلى سماحة شيخ الإسلام بالآستانة، والأخرى لإصلاح البلاد السورية بعث بها الى والى بيروت وسيأتى الكلام عنهما فيما بعد.

ولم تمض فترة طويلة على استقالة الاستاذ من التدريس فى المدرسة السلطانية، ثم اشتغاله بالأمور السابقة كلها حتى جاءه نبأ استقالة الوزارة النوبارية وإسناد الوزارة إلى دولة (ماهر باشا). ثم أعقب هذا النبأ نبأ العفو عنه والسماح له بالعودة إلى أرض الوطن بعد سنوات طالت عن مدة النفى قضاها بعيداً عن أهله وقومه. ولعودته قصة طريفة لانجد مفراً من أن نخصص لها قسما خاصاً من هذا الكتاب فهى وحدها حجة دامغة

تقضى على كل افتراء، ودليل قاطع على كذب ما ادعاه المدعون من كفر الامام وزندقته.

وعاد الامام إلى مصر فى أواخر عام ١٨٨٨ م بعد جهاد طويل أثبت أنه كان مثلا عاليا فى قوة الايمان الذى لاتزعزعه الكوارث والنكبات عاد ليواصل الجهاد فى أرض الوطن، لأن نفسه العاليه أقسمت لتجاهدن حتى النهاية، فإما أن تبلغ الأمل، وإما أن تموت فى الجهاد راضية عن نفسها مرضية، وقد مد الله فى حياته سنوات تزعم فيها الحركة الدينية وأتم فيها كثيراً من الاصلاحات العظيمة التى كان لها أثر قوى فى توجيه النهضة إلى أقوم الطرق، وعرف الاستاذ بعد ذلك الوقت بالربان الماهر والمصلح الحازم فى رأيه وتنفيذه، وكان جديراً منذ ذلك اليوم بلقب الامام.

العروة الوثقى

أطلق اسم العروة الوثقى على تلك الجمعية السياسية السرية التى أنشأها جمال الدين الأفغانى أثناء وجوده فى باريس حوالى عام ١٨٨٤ م ، وكان محمد عبده يعاونه على بلوغ غاياتها ، يساعدهما على ذلك كثير من زعماء المسلمين المنتشرين فى كل قطر . . ولم يكن أحد من الذين لم تتشبع نفوسهم بالعمل لخير الإسلام ، والدعوة إلى اتباع ما كان عليه السلف الصالح ، والإيمان بمبادئ الجمعية ، والرغبة فى إجلاء المستعمرين عن بلادهم . . لم يكن أحد من هؤلاء يعلم شيئاً عن أسرار هذه الجمعية ، فقد كان على الراغب فى الانضمام إليها ، والوقوف على ماخفى منها أن يمر فى الامتحان الذى مر فيه جمال الدين ومحمد عبده وغيرهما ممن أخلص لها ، وجاهد جهادهما ، وسلك سبيلهما ، وكان مؤمنا مسلماً بقوله وعمله .

وكان لابد لمن يريد الانخراط فى سلك العاملين بالجمعية أن يقسم اليمين الآتية وهى من وضع محمد عبده وكان نائباً للرئيس :

(أقسم بالله العالم بالكلى والجزئى ، والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمن كتاب الله تعالى فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل .

(ولأجين داعيه فيما دعا إليه ، ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا فى

نبى ، ولأدعون لنصرته ، ولأقومنّ بها مادمت حياً ، لاأفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا .

(أقسم بالله مالك روحى ومالى ، القابض على ناصيتى ، المصرف لإحساسى ووجدانى ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلن مافى وسعى لإحياء الأخوة الإسلامية ، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثق وانتظم فى عقد من عقودها ، ولأراعينها فى غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد مايضر بشوكة الإسلام ، فإنى أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسى فى أثره مثل ما آخذ عليها فى المدافعة عن شخصى .

(أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لاأقدم إلا ماقدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ماأخره الدين ، ولا أسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن لاأخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه ، وعلىّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه من العارفين ، لاأدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر مايسعه إمكانى الوجودى ، وأسأل الله نجاح العمل وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه ، آمين) . [1]

* * *

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٢٨٧ وما بعدها .

ولم يكن اسم العروة الوثقى قاصرا على الجمعية وحدها ولكنه أطلق كذلك على « المجلة » التي أنشأتها الجمعية ، وقد أصدرت عددها الأول في ٥ جمادى الأولى من عام ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس من عام ١٨٨٤ م ، وكان الغرض من إصدار هذه المجلة التحدث إلى جمهور المسلمين خاصة والشرقيين عامة بما يعود عليهم بالخير والفائدة .

واستطاعت الجريدة بأسلوبها العربي الفصيح ، وبكائها تأخر المسلمين وانحطاطهم ، وتفكك الوحدة ، وتفرق الكلمة ، وحلول البغضاء محل الصفاء ، وتنديدها بالتنازع على عروض الدنيا الفانية . واستطاعت بوقوفها في وجه الساسة والحكام المستبدين الذين لا يرعون ما للشعوب من كرامة ، وما للأفراد من حقوق ، استطاعت الجريدة بهذا المنهج القويم ، وهذه الخطة الثابتة أن تؤثر أثرين مختلفين متضادين :

فأما الأول فالفزع الذى أصاب الغرب ونزل عليها كالصاعقة ودفع ساسة الانجليز الى مطالبة حكومتهم في المناقشات البرلمانية ، وفى مقالات الصحف بمراقبة الجريدة ومنعها من دخول مصر والهند ، كما دفعهم إلى نصح الدولة بمطالبة تركيا بالحجر عليها حتى تحول بينها وبين التأثير في الشعوب المختلفة التي تسعى وراء الحرية والاستقلال .

وكان من نتائج صراخ الساسة الانجليز أن أصدر مجلس النظار المصرى بعد صدور العدد الأول قراره بوجوب التشدد في منع الجريدة من الدخول

إلى مصر ، ومراقبة جولاتها فى البلاد ، وتغريم من يقتنيها غرامة تتراوح بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيها مصريا .

***

وأما الأثر الثانى فذلك الإقبال والتهافت على اقتنائها ومحاولة تفهم أغراضها ومراميها . وقد وجدت الجريدة فى شعوب الشرق آذانا صاغية واعية ، وقلوبا مفتحة للإيمان بما جاء فيها ، وعقولا ناضجة لإدراك ما تدعو اليه ، ورغبة صادقة للسعى فى تحقيق ما يناضل من أجله الحكيمان رحمهما الله . ومما يثبت هذا الأثر البالغ قول المرحوم الشيخ « رشيد رضا » : « والذى علمته من نفسى بالخبر ، ومن غيرى بالخبر ، ومن التاريخ ، أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها ـ أى الجريدة ـ من إصابة موقع الوجدان من القلب ، والاقناع من العقل ، ولا حد للبلاغة إلا هذا » . (١)

وقال الأمير « شكيب أرسلان » مادحا السيد جمال الدين الذى كان يوصى بالفكرة النيرة والرأى السديد :

ومعان لو أوحيت لجماد … هزه الشوق نحوها والغرام
حيرت كل ذى حصاة إلى أن … قيل لا شك إنها إلهام (٢)

وقال مادحا الشيخ محمد عبده الذى أبرز أفكار أستاذه وآراءه فى ذلك الثوب القشيب ، والأسلوب العربى الفصيح :

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٣٠٣ .

٢ - نفس المصدر والصفحة .

كلام إذا ألقيته فى جماعة   غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب ينشق
عليه من النور الإلهى مسحة   تكاد على أرجائه تتألق (١)

وشقت الجريدة طريقها تجاهد وفق خطة معلومة ومنهاج قويم، وتسعى لأغراض ثابتة مبينة كان تحقيقها غاية الآمال، ومقصد الرجاء، ونهاية ما يتمنى كل مسلم محب لدينه، وكل شرقى راغب فى الإخاء والود والتعاون وإعادة المجد الاسلامى القديم، ويمكن أن نلخص مقاصد الجريدة وأغراضها فى أربعة أمور كانت شغل الحكيمين:

أولا - تمهيد الطريق إلى جامعة إسلامية تعيد شأن الإسلام الأول.

ثانيا - بث فكرة الرابطة الشرقية لتقوية العلاقات السياسية، والصلات التجارية بين شعوب الشرق صدا لتيار الغرب وزحفه.

ثالثا - الوصول إلى حل للمسألة المصرية والحيلولة بين مصر ومطامع الأجانب فيها بعد جلاء الانجليز.

رابعا - النظر فى المسألة السودانية، والقيام بعمل يعود على السودانيين بالخير..

وأدمجت الجريدة الأمرين الأول والثانى معـا، وجعلتهما فى بث الفكرة لهما، والدعوة إليهما، والعمل على تنفيذهما مرتبطين أحدهما بالآخر، فلم تخل مقالة من التحدث عن الأمرين، ولم تنشر كلمة إلا وفيها دعوة الى الأمرين، ولم يكن غرض الحكيمين أن يجتمع المسلمون أو

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٣٠٤ .

الشرقيون كلهم تحت لواء دولة واحدة ، وإنما كان هذا الغرض صريحا فى قول رئيس تحرير الجريدة : « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر مااستطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، ألا إن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الاوقات . »[1]

وأما حل القضية المصرية فقد بحث محمد عبده وأستاذه مركز البلاد وموقفها من الدول القريبة والبعيدة ليقررا خطة العمل والجهاد فإذا الدولة العثمانية لاتزال صاحبة السيادة المعترف بها من جميع الدول إذا استثنينا الدولة المستعمرة . وإذا الفتح الإنجليزى من المسائل التى تنظر إليها هذه الدول نظرة فاحصة مستطلعة لما لها من المصالح المشتركة ، وإذا دولتان قويتان هما فرنسا وروسيا تعطفان عليها ، وتريان من المصلحة عدم ازدياد النفوذ الانجليزى فى وادى النيل ، وعلى ضوء هذه السياسة الدولية كان جهاد جمال الدين ومحمد عبده ، وقد استطاع المرحوم السيد رشيدرضا أن يحصر لنا وسائل هذا الجهاد فى خمس[2] هى : —

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٣٠٦ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٣٢١ .

أولا - تهيج مصر والهند والرأى الإسلامى العام على الانجليز .

ثانيا - حث الدولة العثمانيـــة على السعى لإخراج مصر من طريق السياسة والقوة معا .

ثالثا - محاولة إقناع فرنسا بمساعدة مصر والدولة على ذلك حفظا لمصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسى والأدبى .

رابعا - إغراء روسيا بالزحف على الهند والاعتماد فى ذلك على نفوذ الدولة العثمانية الدينى هناك باستمالتها إليها ، وعلى مساعدة دولتى الأفغان وإيران على ذلك باتفاق يعقد بينهـــا وبينهما إذا أمكن وإلا انفردت بالعمل .

خامسا - تعظيم خطر ادعاء (محمد أحمد السودانى) للمهدوية ، ومايتوقع من تأثيره فى العالم الإسلامى كله .

* * *

وكانت انجلترا ترمى من وجودها فى السودان إلى غرضين ، فأما الأول فتدعيم مركزها فى مصر وهى الدولة التى لايخفى عليها مقدار القوة التى ينالها من يضع يده على منابع النيـــل ، ويقوم باستغلال الأراضى الشاسعة فى مشاريع جديدة تستهوى رجال المـال ، كما تستهوى الأيدى العاملة ، ولايخفى مافى هذا من تخفيف ضغط السكان على الجزر البريطانية .

وأما الأمر الثانى فجعله قاعدة حربية تتوزع منها القوى إلى الجانب الشرقى من أفريقيا ، بل إلى مستعمراتها الأفريقية كلهـا . وكانت انجلترا

ترغب فى الاستيلاء على الساحل الشرقى من مصر إلى الكاب حتى إذا فشلت فى مصر وجدت فى السودان العوض وجعلته وسيلة إلى الاستيلاء على مصر فيما بعد.

وكان غرض جمال الدين ومحمد عبده إحباط هذه المساعى كلها والقضاء عليها فى المهد. وكان جمال الدين ومحمد عبده يرميان من جهادهما فى سبيل السودان إلى أمرين:

الأول — جلاء الجنود الانجليزية من مصر والسودان بتعظيم أمر المهدوية وبث روح الحمية والقوة والشجاعة فى «محمد أحمد السودانى» زعيم هذه الدعوة الجديدة. وإثارة كل ما من شأنه أن يزيد فى إشعال نار الثورة، وإيهام الانجليز بالنتائج الوخيمة التى قد تؤدى إليها إذا هم استمروا فى النضال.

الثانى — السفر إلى السودان خفية والاشتراك فى الحركة المهدوية وتنظيمها ـ فيما لو فشلا فى إجلاء الانجليز عن مصر والسودان دفعة واحدة ـ ثم الزحف بجنود المهدى على مصر توسلا إلى إنقاذها وتأسيس دولة قوية يعتز بها الاسلام والشرق.

وسافر الامام إلى لندن لأول مرة فى أواخر يوليو من عام ١٨٨٤م[١] لإقناع الانجليز بترك حكومة مصر والسودان لأهل البلاد، وعلى الرغم

---

١ ـ من مقال للاستاذ عثمان أمين ـ العدد ٨٤ من مجلة الثقافة.

عما أدلى به من أحاديث فى شأن القضية المصرية، وعلى الرغم من مقابلاته للساسة الانجليز ومحاولة إقناعهم برأيه، فإنه لم ينجح فى حملهم على ذلك، وإن كان قد نجح فى الوصول إلى إقناعهم بترك السودان والانسحاب منه. وفعلا شرعت حكومة الإنجليز فى هذا فعمدت إلى إبرام معاهدة بينهم وبين السودانيين لم يحل دون إمضائها الا وفاة محمد أحمد (١) فنكثت انجلترا عهدها ونقضت ماأبرمته من قبل (٢).

* * *

تلك جمعية العروة الوثقى، وغاياتها، وهذه مجلتها وأغراضها. أنشئتا للدفاع عن الاسلام والمسلمين، وإنقاذ الشرقيين عامة والمصريين خاصة من تحكم الأجانب وسيطرتهم. وظل جمال الدين ومحمد عبده يعملان جنباً إلى جنب فى الدفاع عن هذه الغايات البعيدة والأغراض النبيلة حتى تعطلت الجريدة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ — الموافق ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م، وهو تاريخ صدور العدد الثامن عشر آخر أعداد الجريدة.

وتلك صفحة ناصعة من صفحات الجهاد الذى قام به محمد عبده

---

١ - توفى محمد أحمد المهدى فى ٢١ يونيو من عام ١٨٨٥ م.

٢ - تاريخ الأستاذ الامام: الجزء الأول صفحة ٢٨٠.

بمعاونة أستاذه، صفحة خالدة لايمكن لكاتب أن يمر بها عابراً دون أن يشير إليها ويوفيها حقها من البحث والتمحيص.

وأقل مايمكن أن تنبه هذه الصفحة الخالدة الأذهان إليه، أن محمد عبده فوق كونه زعيما دينياً، ومصلحاً كبيراً، كان سياسياً قديراً، ووطنياً مخلصاً، بل كان أول من وجه الأفكار بطريقة عملية إلى محاولة التخلص من الدولة المستعمرة، وكان أول من نادى بالجلاء عن مصر والسودان[1]، وكان أول من ملأ الدنيا كلها بهذا النداء وعنه أخذ من جاء بعده من الزعماء.

---

١ - تراجع مقالات العروة الوثقى ففيها إيضاح كامل لآراء محمد عبده وآماله، وفيها بيان شامل لكل ماأجملناه فى هذا الباب.

جمعية التأليف والتقريب

كان « ميرزا محمد باقر » أحد الذين اشتغلوا بجريدة العروة الوثق فى باريس مترجماً عن الانجليزية . وأصله إيرانى تنصر مسمياً نفسه « ميرزا يوحنا » ، وكان يعرف باسم « إبراهيم جان المعطر » ، قابل السيد جمال الدين لأول مرة فى ثغر بوشير لدعوة السيد إلى النصرانية ، فقد كان بعد اعتناقها داعية لها مع جماعة المبشرين .

وحدث وهو يناقش حكيم الإسلام فى بعض أصول الدين أن بدرت منه كلمة اعتبرها السيد طعناً فى النبى عليه الصلاة والسلام . . هنا لم يطق داعية الإسلام صبراً على رجل جاء يحاول فتنته عن دينه ، وإغراءه بالباطل ، والطعن فى نبى بعث بالدين الحق الذى اختاره الله للناس كافة . . لم يطق السيد أن توجه إهانة إلى النبى الكريم فأمر بضربه فضربه أتباعه ضرباً مبرحا ، وحاولوا إحراق داره لحيل بينهم وبين مايريدون .

ومن الغريب أن يعود هذا الرجل إلى الإسلام مرة ثانية ، ويقابل السيد جمال الدين فى باريس ، ويصبح من مريديه العاملين تحت لوائه ، المجاهدين فى سبيل دعوته . . ومن الغريب أن يحاول التكفير عن ذنبه بالعمل فى جريدة العروة الوثق ، وبالدعوة إلى الإسلام كلما سنحت له الفرصة إلى ذلك ، وقد اشتهر بمحاولاته فى هذه الناحية ، « ومن مزاياه أنه كان من أقدر العلماء على إقناع الملاحدة بالدين الاسلامى ، وكان ممن

أرجعهم إليه بعد الارتياب فيه « أحمد مدحت أفندى » العالم الكاتب التركى الشهير صاحب مجلة « ترجمان حقيقت » وكان قد اشتهر بالإلحاد ».

ولما انتدبت جريدة العروة الوثق الشيخ محمد عبده للقيام بمهمة المفاوضة مع الحكومة الإنجليزية بشأن مصر والسودان ، وجلاء جنود الاحتلال عن ذلك الوادى الفسيح ، وإعادة الحكم لأهله وبنيه .. سافر محمد عبده وهو أشد مايكون شوقا لأداء مهمته ، وأعظم مايكون رجاء فى القيام بها على أحسن مايحب كل مصرى وسودانى .

ولما كان الإمام قليل الإلمام بالإنجليزية أو هو لايعلم منها شيئاً فقد صحب معه فى سفره « ميرزا باقر » وكان ملماً بالإنجليزية إلماما عظيما ، مطلعاً على آدابها وعلومها ، وقد ساعده هذا الالمام وهذا الاطلاع على التعرف بكثير من رجال الانجليز وعظمائهم ، والقيام فيهم مبشرا بالاسلام ، وداعياً إلى دين « محمد » عليه الصلاة والسلام .

واستمر ميرزا محمد باقر مدة إقامته فى باريس وأثناء مهمته فى لندن يجاهد جهاده العنيف ، وظل يعمل فى إخلاص لاحد له ، فلما تعطلت العروة الوثق وتفرق رجالها فى مختلف البلاد ، سافر إلى بيروت وهناك التق بمحمدعبده ، وبدأت قصتهما معا ، أو قصة جمعية التأليف والتقريب .

* * *

عاد محمد عبده وصاحبه بعد انتهاء مفاوضاتهما مع ساسة الانجليز إلى باريس ، ولكنهما عادا بعد أن رأيا أفقا جديدا ، وعالما غير العالم ، وأناسا

غير الناس . عادا وفى نفس كل منهما آمال بعيدة ، وغايات غير محدودة . وبق محمد عبده وصاحبه يخفيان هذه الآمال والغايات حتى تعطلت جريدة العروة الوثق وتفرق رجالها كل إلى وجهة غير معلومة يسوقه إليها القدر ، وبقيا يحافظان على أن يظل سر هذه الغايات والآمال مطويا عن الناس ، حتى إذا انتهى بهما المطاف فى بيروت وتقابلا للمرة الثانية ، كشف كل منهما لصاحبه ما احتواه صدره من أسرار ، وأفاض كل فى شرح آماله وغاياته وما يرجوه للإسلام والمسلمين .

وخرج الرجلان بدعوة جديدة رقصت لها القلوب ، وترددت على الألسن فى الشرق والغرب ، وعاد تيارها فسار من الغرب إلى الشرق يهز الملوك والعروش ، فأما هذه الدعوة ،فدعوة غير المسلمين إلى الدخول فى الإسلام بعد الإقناع بالحجة ، والاعتقاد الصادق بما نزل على « محمد » صلى الله عليه وسلم من الشرائع والأحكام ، ثم تكوين « جمعية التأليف والتقريب » لبث هذه الدعوة فى مختلف البلاد والأنحاء .

حدثنى محمد على سعودى بك وكان مريدا للأستاذ الإمام مقربا إليه ، مطلعاً على بعض شئونه ، ولا يزال ذاكراً لعهده وصداقته فقال ما معناه :

« كان لعودة زعيم النهضة الدينية والفكرية فى مصر إلى أرض الوطن بعد انقضاء مدة النفى التى حكم بها عليه قصة طريفة ملخصها أن ميرزا باقر اقترح على الإمام فى حديث له أن يعمل على نشر الدعوة إلى الاسلام خارج الدائرة الضيقة التى تحيط به ، وأن يقوم فى رجال المسيحية واعظا

يرشدهم إلى ماجاء به الإسلام من خير ينفع الناس فى الدنيا والآخرة، ويقفهم على أصول الدين الحنيف ومافيه من حكم بالغة وآيات بينات تضمن للإنسانية السعادة والرقى. وطلب ميرزا باقر أن يبدأ الإمام كتاباته مع «إسحاق تيلر» زعيم البروتستنتية فى انجلترا على أن يكون هو واسطة التفاهم بينهما بحيث يترجم الكتب العربية إلى الإنجليزية والإنجليزية إلى العربية.

«وابتدأت المخابرات بالفعل بين الرجلين على شريطة أن الذى يقتنع بصحة رأى صاحبه يعلن إقتناعه على الناس. واقتنع القس الانجليزى بما كان يجادله فيه الامام من أصول الدين وأحكامه وقضاياه. ولما طالب الامام مناظره باعلان رأيه برآ بوعده الذى قطعه على نفسه، جمع القس مرءوسيه وأطلعهم على الأمر وأبرز لهم الخطابات المتداولة، وطلب منهم أن يبحثوها ويناقشوه فيها قبل إعلان رأيه، وهال الأمر أولئك المرءوسين، ولم يجدوا مخرجاً لرئيسهم من هذا المصاب الذى حل به غير التوجه إلى «الملكة فكتوريا»، ورجائها فى أن تتخذ بما لها من حكمة وبصيرة رأيا حاسما فى موضوع هذا الرئيس، واتصلت الملكة بالسلطان «عبدالحميد» ورجته فى أن يمنع محمد عبده من التمادى فى دعوته حتى لايثير رجال الكنيسة فى انجلترا، ويحدث ثورة فكرية لايعلم إلا الله مدى ماتصل إليه.

«ولم يخيب الخليفة العظيم رجاء الملكة العظيمة، وطلب من والى بيروت أن يوافيه بمعلومات عن الشيخ محمد عبده. وعلى الرغم من أن المعلومات

التى بعث بها وإلى بيروت كانت كلها فى صالح الامام ، فإن الخليفة لم يستطع أن يبت فى الأمر برأى قاطع حتى يتصل « بأحمد مختار باشا » مندوبه السامى . ولما لم يكن لدى هذا المندوب معلومات كثيرة لوصوله إلى القاهرة بعد نفى الامام اتصل بالمرحوم الشيخ « على الليثى » وكان صديقاً لمحمد عبده . ورأى مختار باشا والشيخ الليثى بعد بحث وتفكير أن خير وسيلة تريح الخليفة هى أن يرجو سمو الخديو فى العفو عن الامام ودعوته إلى مصر ، وأن يكون خير البر عاجله . وقبـــل الخديو رجاءهما وأرسل تلغراف الدعوة ، وأخطر السلطان عند قيام الباخرة حسب أوامره . وفرح السلطان بهذا الحل فقد تخلص به من رجل ثوروى خطر يخشى من آرائه وأفكاره » .

***

ولما كان صاحب المنار تلميذاً للإمام ، وصديقاً مقرباً إليه ، وراوية لكثير من أحاديثه وأعماله ، وواضعاً لأطول تاريخ عن حياته ، كان لابد لنا من الرجوع إلى ما كتبه والموازنة بينـــه وبين ما رواه أوكتبه غيره ، ومناقشة القصة من جميع نواحيها حتى نصل إلى ما هو حق ، وإلى مايتمشى مع التاريخ ويطابق الواقع . يقول السيد رشيد رضا :

« عرف ميرزا باقر فى لندن وغيرها بعض رجال الانجليز المستقلى الفكر المحبين لحرية البحث فى الدين . ولما وجد هو والأستاذ الامام فى بيروت بعد تعطيل العروة الوثقى اجتمعا فيها بالأستاذ بيرزاده ، وعارف أبى تراب تابع السيد الأفغانى ، وبجمال بك نجل رامز بك التركى قاضى بيروت الشهير ،

وكان شابا ذكيا مغرما بالأمور العامة من سياسية ودينية واجتماعية ، وألفوا جمعية سياسية دينية سرية موضوعها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة وإزالة الشقاق من بين أهلها ، والتعاون على إزالة ضغط أوربا عن الشرقيين ولا سيما المسلمين منهم ، وتعريف الافرنج حقيقة الاسلام وحقيته من أقرب الطرق ، وقد دخل فى هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء إيران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية فى الآستانة ، وبعض الانجليز واليهود ، وكان من رجالها من رجال الدين فى لوندره القس طيلر ، بل كان هو داعيتها هنالك ، ومن رجال الحكومة (جى دبليو لينتر) [١] مفتش المدارس فى الهند ، وكان الأستاذ الامام صاحب الرأى الأول فى موضوعها ونظامها ، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها . [٢]

وقد ثبت لنا مما قصصناه حتى الآن أمور ثلاثة :

الأول : قيام محمد عبده وميرزا محمد باقر وغيرهما بتكوين جمعية التأليف والتقريب أثناء وجودهما فى بيروت بعد العودة من باريس وتعطيل أعمال جريدة العروة الوثقى .

الثانى : الدعوة عن طريق هذه الجمعية إلى التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة وإزالة الخلاف من بين أهلها ، والتعاون على إزالة الضغط الأوربى عن الشرقيين ولا سيما المسلمين منهم .

---

١ - اظهر أن صحة الاسم G. W. Linter .

٢ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨١٩ و ٨٢٠ .

الثالث ــ انضمام كثير من العظماء إلى هذه الجمعية بعد اعتقادهم فيما أخذت على عاتقها الدعوة إليه والسعى فى سبيل نجاحه .

وأما الذى لم يثبت بعد فهو حدوث المراسلة بين الإمام وإسحاق طيلر ، ووجود شرط إعلان الرأى عند اقتناع أحدهما بما كان يجادله فيه صاحبه ، ثم اتصال الملكة فكتوريا بالسلطان عبدالحميد وغضب السلطان على محمد عبده وإخراجه من بيروت .

فأما المراسلة فيمكن إثبات حدوثها من رسائل الإمام فقد جاء فى إحداها :

« كتابى إلى الملهم بالحق الناطق بالصدق ، حضرة القس المحترم إسحاق طيلر أيده الله فى مقصده ، ووفاه المذخور من موعده .

« وصل إلينا من خطابتك ماألقيته فى المحفل الدينى بمدينة لوندرا متعلقاً بالدين الإسلامى فإذا للحق نور يلمع خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة ، وتشيمه أعين العقول النيرة ، رفعتك هداية الله إلى مقام الإنصاف فرأيت الإسلام فى طبيعته السليمة ، ووقفت فى مزاجه الصحيح فأدركت أثره فى النفوس البشرية ، وعلمت أنه أفضل مابعد الروح الإنسانية إلى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ، ودافعت عنه دفاع العارف به وجليته للغافلين فى أجمل صورة يمكن أن يلمحوها بأبصارهم ويتصفحوا وقائعها بأنظارهم ، ثم دعوت أبناء ملتك إلى كلمة السواء بينهم وبين المسلمين ، وصدقتهم النصيحة أن لا يحنقوا المسلمين بتكذيب نبيهم ولا تكفيرهم فى

الاعتقاد بدينهم ووعدتهم إن قبلوا نصحك بإصابة المسيحية فى الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذا بعضد المسيح بإعلاء كلمة دينهم الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك، وآيات حق ساقه الله إليك، وإنا نهنئك على هذه البركة العظمى التى اختصك الله بها من بين قومك، ونستبشر بقرب الوقت الذى يسطع فيه نور العرفان الكامل فتنهزم له ظلمات الغلة فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما إلى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد، وتعانقتا معانقة الألفة، فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التى طالما انزعجت لها أرواح الملتين.

« أنت أول رئيس دينى صدع بالحق فى أهل ملته، وإنك لتجد لك مؤيدين، وإن كثيراً من ذوى الألباب ليجدون فى قولك مواقع للصواب، وإن هذا الأمر الذى قمت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية، وإنك إن كنت واحداً فكل شىء مبدؤه الواحد ثم يكثر حتى لا يحصر، وإن كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه فسيؤازره السعى حتى يغلظ ويستوى على سوقه فيعجب الزراع، وإنا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة، وصحفاً متصادقة يدرسها أبناء الملتين، ويوقرها أبناء الدينين فيتم نور الله فى أرضه، ويظهر دينه الحق على الدين كله، وإنى لا أشك فى أن لك الرغبة التامة فى نشر مذهبك هذا وترويجه بين الأمم الشرقية والغربية،

وقد سعينا فى ترجمة خطابك ونشره فى الجرائد العربية فإن كان عندك مقالات أخرى فنرجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونشرها بين أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم، ولكن تمام العمل إنما يكون بإرسال رجال ممن وافقوك فى المشرب الصحيح لينشئوا مدارس فى البلاد المشرقية خصوصاً بلاد سوريا، وليطبعوا هذا الرسم الشريف فى النفوس الصافية من أبناء الطوائف، فتنمو بركته وتجزل ثمرته، وإننى على عجزى مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب ما بين الملتين بكل ما يمكننى والسلام على من اتبع الهدى [1]».

° ° °

وأما وجود الشرط فيمكن التدليل عليه بما جاء فى رسالة أخرى:

«عزيزى حضرة خطيب السلام القس إسحاق طيلر.

كنت فى القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التى أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثة، وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هى الدين الحق، تفرعت عنها أغصان متعددة لا يضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها ما يرى فى اختلاف أوراقها وفرج انشعابها، ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحدة لونها وطعمها قد انحصر فى الدين الإسلامى الذى يستقى من جميع عروقها وجذورها، فهو فذلكتها والغاية التى قد انتهى إليها سيرها، لأنه

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٨٢ ومابعدها.

يصدق الكل ويعظم الجميع ويدعو إلى التوحيد المحض ، والفردانية الصرفة التى إليها مرجع الخلائق وإن بلغ اختلافها إلى مايفوت الحصر ، ويتجاوز حدود النهايات .

« وبعد رجوعى من بيروت وجدت من جنابكم مكتوباً بعث بواسطة صديقى جمال الدين بك ، ووجدتكم تذكرون أموراً كالطلاق ، وتعدد الزوجات والرق وتظنون أنها أهم ما عليه اختلاف أهل الدينين مع أن أمثال هذه المسائل لايعدها المسلمون من أصول الدين ، ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ماتحبون من ذلك بدون حاجة الى فتوى شيخ الإسلام ، فهذا أمر لامقام له فى موضوع بحثنا وبحثكم .

« أما أصول الدين الإسلامى فهى الايمان بالله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن القرآن كلام الله ، فأعظم شىء تتشوق إليه نفوس المسلمين الصادقين أن يسمعوا التصريح من حضرتكم بقبول ذلك ، والتصديق به كما أشرتم اليه فى خطابكم المتعلق بمسلمى أفريقية ، وأن يروا علامات التصديق فى الأقوال والأفعال (ويومئذ يفرح المسلمون بنصر الله) ، وكل ماتظنه من المصاعب يذلل وماتتصوره من الموانع يزول ، ولا أظن يوماً مر أو يمر على الانجليز يكون أسعد من ذلك اليوم الذى يؤمنون فيه بدين محمد ، إذ يصبح العالم خادماً لهم ، وجند الله الأعظم ناصراً لأهله منهم ، ويتم لهم ما أرادوا من إقرار عين العبيد ، وإرضاء قلوب النساء ، وهما مما يدعو اليهما الدين الاسلامى على أتم الوجوه وأكملها ، فهلم بنا ياعزيزى الى الاتفاق

على الأصول ، ليتسنى لنا الاتحاد فى الابن ، فإنما توتى النتائج من مقدماتها ، ولا توتى المقدمات من نتائجها . وقد سرنى كل السرور ما بلغنى من أنكم استحسنتم ما وصل إليكم من صديقنا ميرزا باقر ، إن شاء الله تجدون ما يسركم إذا دوامتم مكاتبته إن شاء الله ، والسلام على أهل السلام [١] » .

* * *

أما اتصال الملكة فكتوريا بالسلطان عبد الحميد فقد روى الأستاذ عثمان أمين فى كتابه محمد عبده قصة اسحاق تيلر ، ونسبها إلى الشيخ عبد الوهاب النجار ، وهى لا تخرج فى تفصيلها ومعناها عما قصصناه . وقد قال على لسان الشيخ النجار إن القساوسة قابلوا الملكة فكتوريا على غير موعد سابق ، وهذه طمأنتهم ووعدتهم أن تعنى بالأمر ، وبادرت الملكة بالاتصال بالسلطان عبد الحميد ، وهكذا ترجحت صحة هذا الخبر . أما غضب السلطان عبد الحميد على الإمام والأمر بترحيله إلى مصر ليكون بعيداً عن بلاد تدين له بكامل الطاعة والولاء فيمكن إثباته بما جاء فى المذاكرات اليومية التى تركها المستر بلنت وسنستشهد بها بعد قليل .

ويصح لنا أن نتساءل : هل كان غضب السلطان عبد الحميد لخوفه من النتيجة التى قد يؤدى إليها انتشار آراء محمد عبده وأفكاره الحرة فى الأقطار العثمانية من انتباه العقول والتفكير فى رفع الظلم وطلب الإصلاح ، أم هل كان غضبه خوفاً من انتشار دعوته الجديدة وقبول انجلترا الدخول فى الاسلام ، ثم تحكمها فى بلاد المسلمين وفرض سيطرتها عليها بحكم مركزها وبحكم أنها سيدة العالم ، وهى إذا فعلت ذلك ضاع السلطان من

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٨٤ و ٥٨٥ .

السلطان . أم هل كان غضبه لمجرد إجابة طلب الملكة العظيمة وقبول رجائها إن كانت قد اتصلت به فعلا .

وسواء كان هذا أم ذاك فقد غضب السلطان على الامام ولم يستطع الامام بعدها أن يطيل مدة بقائه فى بيروت أكثر مما أطال . يقول المستر « بلنت » فى مذكراته بتاريخ ١٣ ابريل سنة ١٩٠٥ :

« فى حديث اليوم مع الشيخ عبده تفضل وأخبرنا بقصة طريفة لا بأس من إيرادها . ففى أثناء نفيه إلى بيروت عام ١٨٨٣ ، حدث أن كان قسيس مقيما فى انجلترا اسمه إسحاق تيلور يقوم بدعاية واسعة النطاق الغرض منها توحيد الاسلام والنصرانية على أساس فكرة التوحيد الموجودة فى الاسلام والشائعة عند الكنيسة الانجليكية . وكان هناك شخص ايرانى من أتباعه اسمه ميرزا بكر يشايعه فى فكرته . وقد تمكن من التأثير فى الشيخ عبده وفى طائفة من علماء دمشق ، فكتبوا إلى القس تيلور فى الموضوع ، وما أن وصل الكتاب الى القس حتى فرح به ونشره مستعيناً به على صحة دعواه ، إلا أن السلطان عبدالحميد كاف سفيره فى لندن أن يستقصى حقيقة الموضوع ويقف على أسماء موقعى الكتاب ، فقابل القس وحصل منه على هذه الأسماء ، وقد أحاق بهؤلاء العلماء فيما بعد عذاب أليم ، وقرر السلطان إبعادهم من الديار السورية . ويقول الشيخ عبده إن السر فى غضب السلطان أنه خشى أن يعتنق الانجليز الاسلام ، ثم يطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة فى الاسلام وتكون الملكة فكتوريا ملكة المسلمين . .

ويذهب السلطان من السلطان . . وسبحان مدبر العقول »[1] .

* * *

ومن ظن أن الإمام بدعوته إلى توحيد الأديان الثلاثة أو مساهمته بكل مايستطيع لإنجاح هـذا العمل الجليل . . من ظن أنه بهذا العمل حاول الدعوة إلى دين جديد مقتبس من هذه الأديان فقد أخطأ خطأ لاحدّ له ، وغابت عنه أسرار العظمة فى هـذا الرجل ، إذ الواقع أن محمد عبده كان يعتقد أن الدعوة إلى تقريب الأديان وإزالة الخلاف من بين أصحابها معناها الرجوع إلى الدين الحق ، والدين الحق فى اعتقاده هو الإسلام دين الأولين والآخرين . والواقع أن محمد عبده كان يعتقد أنه بعمله هذا يقود إسحاق تيلر إلى الإيمان الحق ، ويقود من بعـده مرءوسيه وأتباعهم من رجال البروتستنتية .

جاء فى رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه منوهاً بمـا كان بينه وبين ذلك القس وهى من أجل رسائله الاصلاحية والتهذيبية :

« ولقد حدث فى هذه الأيام الأخيرة أن قسيساً إنجليزياً هداه البحث إلى شىء من محاسن دين الاسلام فأخذ يبث ماعلم فى الجرائد الانجليزية وفى المحافل الدينية فى انجلترا ، إلا أنه يصعب عليه أن يعلن إسلامه ، ويصرح بحقيقة إيمانه لأنه يخاف أن تطول إليه أيدى الاعتداء من قومه ، وهو يدعو إلى الاسلام تحت حجاب أنه لايخالف المسيحية الحقيقية بل

---

١ ـ من مذكرات المستر بلنت ترجمة الأستاذ محمد أمين حسونه ـ العدد ٢١٠ من مجلة الرسالة .

هو متمم لها ، وله فيما يدعو إليه شيعة تنمو فى لندرا ، وبيننا وبينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ، ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره ، وله معارضون كثيرون من الانجليز وغيرهم ، وإذا تقصيت البحث فى جميع حججهم لا تجد فى مقدماتها إلا مايكون راجعاً إلى ماعليه المسلمون الآن من الأخلاق والعوائد والأفكار ، وكلما جاء الرجل لهم بشىء من أحكام كتاب الله ، أو بأثر من آثار المسلمين الأولين ، رأيت أولئك الجاحدين يقابلونه بأحكام يعدها المسلمون من حدود دينهم ، ويعولون عليها فى أعمالهم ، وهى مقصية لهم عن الكمال ، ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال ، فكلما ردهم إلى الله ورسوله ردوه إلى أحوال المنتسبين إلى هذا الدين القويم وهم عاره ، وبهم يهدم مناره ، وتخفى آثاره لو بقى فى أيديهم أمره ، غير أنى أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبسوا أنفسهم ، وانقلبوا فتنة لغيرهم ثم ينتقم منهم بأيدى الظالمين والصالحين « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ـ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » فهنيئاً لمن أعد نفسه ، وسبق نفسه ، فشحذ همته ، وطهر نيته ، وقوم إرادته ، واستجمع عزيمته للقاء ركب الله الذى سيفد عليه ، فيكون إما راجلا فى مشاته ، أو فارسا فى كماته ، أو خادما فى حاجاته ، أو سيدا فى رياساته ، ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه ، وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه » (١) .

ooo

١ ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٦٨ .

ونجحت الدعوة ، وشايعها كثيرون ، واقترب القس تيلر من الاسلام ، ومن يدرى لعله أسلم ولكنه خاف أن يعلن اسلامه خشية الاعتداء عليه . . وكتب تيلر المقالات الطويلة ، وأذاع الخطب فى المجتمعات العامة . قال فى إحداها :

« إن الاسلام من حيث هو دين تبليغى (أى جعل أساسه على تبليغ عقائده الى الناس بطريق الدعوة وإقامة الدليل والحجة وتفويض الأمر للنظر والفكر فى الوصول الى المطلوب عليه من تلك العقائد ، ولم يجعل أساسه على الالزام بما لايعقل بطريق جبرى) بهذا نجح فى قطعة عظيمة من العالم نجاحا يفوق نجاح الديانة المسيحية .

« والداخلون فى الاسلام من المؤمنين لاأقول فيهم إنهم أكثر عدداً من الداخلين فى المسيحية فقط ، بل أزيد على ذلك أن المسيحية تخنس بالفعل بين يدى الاسلام ، والمساعى المبذولة لتنصر الأمم المسلمة ترجع الى الخيبة رجوعا ظاهرا . ليس أمرنا واقفا عند العجز عن إحداث موطئ جديد لأقدامنا فقط ، ولكن المقام الذى نحن فيه نعجز عن حفظه أيضا » (١) .

وقال فى موضع آخر : « فيجب علينا أن نتبصر أمراً وهو أن الدين الاسلامى لايناقض الديانة المسيحية بل يتفق معها فإن ذلك الدين صوت

---

١ - مجلة ثمرات الفنون - العدد ٦٥٦ الصادر ببيروت فى يوم الاثنين ٢٨ صفر من عام ١٣٠٥ - ٢٤ تشرين الثانى من عام ١٧٨٧ .

إيمان ابراهيم وموسى عليهما السلام، وفيه كثير من الأصول المسيحية، وهو يخالف اليهودية فى أنها كانت خاصة وهو دين عام لايختص بأمة واحدة بل يعم كل العالم». (١)

وقال فى موضع ثالث: «إن الإسلام قد نسخ السكر والقمار والبغاء ثلاث لعنات أهلكن البلاد المسيحية، الإسلام قريب جداً من المسيحية والمسلمون كأنهم مسيحيون فتعالوا بنا نساعدهم على الكمال فى دينهم، ولانسعى سعياً عبثاً لإبطاله لعلنا نجد فى الإسلام مسيحية، ونجد محمداً (صلى الله عليه وسلم) آخذا بعضد المسيح فى دينه» (٢).

وكتب المستر G. W. Linter مفتش المدارس بالهند فقال:

«أما أوسع المباحث مجالا فهو مبحث الفرق بين الإسلام والمسيحية فى إمداد التمدن ودفع النفوس إلى قبوله. وإنى أستميحكم العفو إذا قلت إن من لم يقف على دقائق اللسان العربى لايستطيع تمحيص الحكم بأن عقائد الدين الإسلامى هى أشد علاقة بعيشة معتقديه وأظهر أثراً فى أحوالهم العادية من عقائد الديانة المسيحية لسوء الحظ. أما الواقفون على ذلك فيعلمون أن الدين الإسلامى يمد المسلمين بحياة طيبة ويهديهم فيها إلى مسالك من الكمال ربما لاتجد عليها دليلا فى غيره. فإذا كان ذلك وهو الحق الواقع فما بالنا نعدل عن كلمة السواء بين أهل الدينين عند المعاملة ونأخذ

١ - مجلة ثمرات الفنون العدد ٦٥٦.

٢ - نفس المصدر.

بمـا يفرق بين الأمتين [١].

وقال فى موضع آخر : « إن الشريعة المحمدية وهى مؤسسة على كتابها (القرآن) تقرر للأزواج أصولا تخول النساء حقوقاً أفضل مما للنساء الإنجليز حتى بعد ما وضع قانون أموال الزوجات فى سنة ١٨٨٣ ، ولم تنل الإناث حظها من الاحترام والاكرام الحقيق والشفقة والرحمة عند قوم من الأقوام بأوفر مما نالته فى بيوت المسلمين اللهم إلا فى بعض بيوت الأهلين من المؤمنين فى الهند ، وليس لهذا الصنف اللطيف ذكر يدور على ألسنة الشبان المسلمين ولا يكون موضوعا للمحاورات كما هو عند المسيحيين ولكن وضع عليه الحجاب إشعاراً لضعفه وعلو قيمته وغلاء ثمنه وإذانا باستحقاقه للصيانة ، وللعفائف من أرامل المسلمين شهرة فى رعاية التربية الفاضلة .

« وإحسان المسلمين لمواليهم ورأفتهم بالبهائم لأنها مما ينظر إليه الله بالرحمة ، وإنفاقهم فى سبيل الخير ، وسذاجة الأخلاق التى هى من خصائص الصادقين من المؤمنين ، كل هذه الصفات الفاضلة هى بأن تجذبنا إليهم أحرى من أن تبعدنا عنهم ، وهى بأن تبعثنا على تصديق نبيهم أجدر من أن تحملنا على الصياح بتكذيبه ، وأحسن بعمل مرسلينا لو جاهدوا فى سبيل التوفيق

---

١ - ثمرات الفنون العدد ٦٧٢ الصادر فى يوم الاثنين ٢٢ جادى الثانية سنة ١٣٠٥ - ٢٢ شباط سنة ١٨٨٨ .

بين الإسلام والمسيحية جمعا بين أختين من أم واحدة »(١) .

* * *

وقد حاول المعارضون لهذه الدعوة أن يسيئوا إلى الاسلام وأهله ، والقضاء على الدعوة نفسها بإطلاع القس تيلر على مايجرى فى بلاد المسلمين من مساوئ ، ومايقوم به المسلمون أنفسهم مما يتعارض مع ما جاء به دينهم . وجاء القس الى مصر بايعاز من أولئك المعارضين وشاهد بعينيه ما انحدر إليه المسلمون من فساد وضعف ، ولكنه ظل على الرغم مما أحسه من ألم وحسرة يدافع عن الإسلام ويدعو اليه على طريقة الجمعية . قال السيد رشيد رضا :

« أخبرنى الأستاذ الامام رحمه الله تعالى أن اسحاق طيلر هذا لما أكثر فى خطبه ومقالاته من مدح الاسلام والمسلمين لم يجد المبشرون وسيلة لإسكاته الا الاحتيال عليه لزيارة مصر فزارها فصاروا يطوفون به على الحانات والمواخير ويرونه حال المسلمين فيها حتى كف عن هذا الإطراء فى المدح ، ولكنه ظل يدافع عن الاسلام ويدعو الى التقريب والتأليف بين الديانتين وأهلهما بما هو دعوة الى الاسلام نفسه على طريقة الجمعية التى كانت تمده بالمعلومات »(٢) .

---

١ - مجلة ثمرات الفنون العدد ٦٥٦ .

٢ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٨٢٤ .

وعاد الامام الى مصر فى أواخر عام ١٨٨٨ م [١] (١٣٠٦ هـ) فانقطعت بذلك أخبار الجمعية ، ولم يذكر لنا من أرخوا حياة الامام ماحدث لها بعد ذلك وإن كان انقطاع أخبارها يدل على أنها انحلت من نفسها .

وفى رأيى أن قصة جمعية التأليف والتقريب فى حد ذاتها ، وماقامت به من دعوة الى التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة التى هى فى الواقع دعوة الى الاسلام ، وفى رأيى أن هذه القصة وحدها كافية لأن تحل الامام فى مكان المجاهدين ، وكافية للدلالة على مقدار مابذله من جهود . تلك الجهود التى لا يأتى بمثلها إلا رجال مختارون فى أزمان متفاوتة .

---

١ — الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٦٣ (المنار جزء ٨ صفحة ٤٦٥) .

الفصل الخامس

١ - عودة الامام ٢ - إصلاحات الامام :
عمله فى القضاء الأهلى . إصلاحاته فى الأزهر .
عمله فى الافتاء . إصلاح المحاكم الشرعية . عمله
فى نظارة الأوقاف . عمله فى مجلس شورى
القوانين . عمله فى الجمعية الخيرية الاسلامية .
عمله فى جمعية إحياء الكتب العربية .
٣ - الحلقة المفقودة .

عودة الإمام

كان من المفروض أن يعود الإمام إلى مصر فى أوائل عام ١٣٠٣ هـ - أواخر عام ١٨٨٥ م [١]، وهو التاريخ الذى كانت تنتهى فيه مدة النفى ، غير أنه لم يعد فى ذلك الوقت فقد حببت اليه الإقامة فى بيروت ، وطاب له العيش بين أرجائها ، ووجد فيما كان يقوم به من عمل ، وفيما كان يلقيه من دروس ما ألهاه عن العودة سريعاً الى بلاد خرج منها مغضوباً عليه ، ولا يعلم اذا رجع اليها هل يستطيع معاودة جهوده ، والقيام على تنفيذ برنامجه وتحقيق آماله ومطامعه ، أم تقف الحوائل دون ذلك ، ويمنع من السهر على خططه ، ويصدم فى تلك الآمال والمطامع من جديد .

وكان غرض الإمام من إطالة مدة تغيبه وإقامته فى بيروت تحقيق

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٤١٦ .

ما كان يسعى إليه من اشتغاله بالمدرسة السلطانية : وهو تربية جيل يقوم بالدفاع عن الأمة الإسلامية وإصلاحها تحقيقا لقوله للسيد جمال الدين بعد تعطيل جريدة العروة الوثق : « أرى أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض لايعرفنا فيه أحد، فنختار من أهله عشرة غلمان من الأذكياء السليمى الفطرة فنربيهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم إلى مقصدنا ، فإذا أتيح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لاتمضى بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد فى سبيل الاصلاح ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح » ، وكان غرضه أن يعطى لنفسه فرصة يقنع فيها الدولة العثمانية بإصلاح التربية والتعليم فى المدارس بحسب رأيه ، وأن يكون له عمل فى ذلك إذا هم اقتنعوا بما بسطه لهم ، يقول السيد رشيد رضا :

« ولما طال الأمد ولم يستجب لدعوته أحد ، واقتنع بأن الدولة العثمانية غارقة فى بحار جهلها عاد إلى وطنه وهو يعلم أن الخديو « توفيق باشا » غضبان عليه كاره له ، وأن الانجليز أصحاب النفوذ الأعلى فى البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه ، وصلوا من نار عصبيته الملية والوطنية مالم يعهدوا له نظيرا فى الطعن فيهم ، وإثارة العالم الإسلامى والشرق عليهم ، ولكنه هو الشجاع الذى لايعرف الخوف إلا من الله عز وجل » [1] .

وسواء كان الإمام قد عاد من تلقاء نفسه أو عاد بعد أن غضب عليه

---

(١) السيد رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٤١٧ .

السلطان وخاف من انتشار آرائه بين الناس ، وبعد أن رغب فى التخلص منه كما جاء فى قصة « جمعية التأليف والتقريب » . سواء كان هذا أو ذاك فقد عاد الإمام إلى مصر عام ١٣٠٦ هـ [١] — أواخر عام ١٨٨٨ م [٢] . عاد إلى وطنه بعد غيبة قربت من ستة أعوام فلقيه بعض الناس بالترحيب الزائد والسرور البالغ ، أولئـــك هم أصدقاؤه ومريدوه الذين حفظوا الود ، واعترفوا بالجميل ، ولم تدفعهم المغريات الكثيرة إلى الانصراف عنـه ، والتنكر له . وقابله بعضهم متجاهلين أمره منكرين وده وعطفه وإخلاصه ، أولئك هم الجبناء الذين باعوا قلوبهم بالمال والمنصب والوعود الخلابة ، أولئك الذين كشف الامام عن نفوسهم ، وأبان عن طوية قلوبهم فى رسائله التى بعث بها إلى أصدقائه أيام سجنه بعد الحوادث العرابية .

ولما استقر المقام بمحمد عبده حاول كثير من أصدقائه وعارفى فضله والواقفين على سمو نفسه أن يقربوه إلى سمو الخديو من جديد ، وأن يزيلوا كل ما بقى بينهما من جفاء ، وشجعهم على ذلك سماح الخديو له بالعودة الى بلاده . وتسابق أصدقاؤه جميعا يسألون توفيق باشا العفو عما سبق منه ، وكان أول من سعى الى ذلك الأميرة « نازلى هانم » الأديبة الفاضلة ، والسياسية المحكنة ، والعارفة بأقدار الرجال وحقوقهم ، ثم صاحب الدولة

---

١ - المنار للسيد رشيد رضا صفحة ٤٦٥ من الجزء الثامن .
٢ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٦٣ .

« الغازى أحمد مختار باشا ، واللورد كرومر وغيرهم . ولم يخيب الخديو رجاء الراجين وسعى الساعين ، وعفا عنه وهو يقول : « ماعفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو إلا هذا (١) .

* * *

وقد سبقت هذه المرحلة من حياة الإمام مرحلتان : فأما الأولى فالفترة التى أعقبت تخرجه فى الأزهر ، وفيها نادى بإصلاح النواحى الاجتماعية والسياسية والخلقية والاقتصادية ثم الدينية ، وتبع ذلك تجدد معانيه بوحى تلك الموضوعات وتجارب الحياة ، وحبب إليه هذه النواحى ثم دفعه إليها اتصاله بحياة الشعب وتعليمه ثم رؤيته لسياسة الحكومة وأعمالها .

وأما المرحلة الثانية فالفترة التى أعقبت نفيه وفيها علت صيحته السياسية ، ودفعته إلى ذلك تجارب الأعوام الماضية ، ومارآه من تغلغل النفوذ الأجنبى فى بلاده ، بل فى بلاد الشرق عامة ، ثم ما كان لتغلغل هذا النفوذ من آثار سيئة .

وأما المرحلة الثالثة أو الأخيرة فهى التى بدأها الإمام بعد عودته إلى مصر ، وتمتاز « بالناحية العملية فى كل مانالته يده من الشئون كأنه أخذ فى تنفيذ رغباته وتطبيق نظرياته فى دائرة سلمية رزينة وترك كل تلك الحرب

---

١ - أخبر الامام بذلك الشيخ البسيونى مفتى قلعية الخديو فى ذلك العهد .

العامة التى تتعلق بالحال الخارجية لمصر والشرق، ولكنه أخذ يحارب حروبا داخلية فى نواح شتى يحاول بها تطهير جسم البـــلاد من عوامل الفساد المعنوى والمادى كذلك » (١) .

وساعد الإمام على انتهاج هذا النهج الجديد عوامل كثيرة أهمها :

أولا — استقراره فى مصر بعد حياة أمضاها فى نضال وجهاد ثم نفى واغتراب .

ثانيا — إدراك المصريين الذين كانوا ينقمون عليه سلامة نيته ورغبته الصادقة فى إصلاح عيوب الأمة، والقضاء على عوامل الفساد فيها، ثم ساعده حسن صلته بالمصريين والأجانب الذين توفروا على رعاية شئون هذه البلاد .

ثالثا — الخبرة التى اكتسبها أثناء اغترابه، ثم اكتمال استعداده بعد اطلاعه على علوم الغرب ومعارفه . ووقوفه على أخلاق الشعوب وعاداتها .

رابعا — المناصب الإدارية التى تولاها فقد كانت وسيلته إلى تنفيذ ما يريده من خطط الإصلاح والرقى .

وبدأ الإمام بعد أن استقر به الحال وعفى عنه يفكر فى النواحى التى يوجه إليها جهوده، ويجعلها موضع اهتمامه وأول هدف لتلك الجهود . ولما كان الامام يميل إلى التدريس ويرغب فى أن يكون أستاذاً بمدرسة دار العلوم . ولما كان يرى ذلك غير ممكن إذا هو لجأ إلى سمو الخديو

---

١ - الشيخ محمد عبده صفحة ٤٥ .

لتحقيق هذه الرغبة فقد كتب لائحته الثالثة لاصلاح حال التعليم فى مصر وقدمها إلى اللورد كرومر ، وكان يرجو إقناعه بوجوب الاصـــلاح ، وباستعداده لتنفيذ ماراه من وجوه هذا الاصلاح .

ويظهر أن محمد عبده كان يطمع بعد تقديم هذه اللائحة فى أن يعين ناظرا لمدرسة دار العلوم ، وحينئذ يستطيع باستقلاله وحريته السهر على تربية النشأ الجديد التربية الاستقلالية الصالحة التى دعا إليها من زمن بعيد . يقول السيد رشيد : «على أنه لوفاز بما كان يريد من تنفيذ هذه اللائحة ـ وهو جعله ناظرا لمدرسة دار العلوم مستقلا فى تربية تلاميذها ـ لربى لمصر فيها من الرجال من تصلح بهم جميع المدارس الأميرية وغيرها ، ومتى صلح هؤلاء صلح الشعب المصرى كله ، وصلح به الشرق الاسلامى» .

ولم ينجح الامام فى مسعاه لأسباب ثلاثة :

فأما الأول : فلأن الحكومة المصرية لم يكن فيها فى ذلك الوقت من الوزراء ـ على حد قول الشيخ رشيد ـ من يسمو به عقله لفقه هذه اللائحة ويسمو به عزمه لانفاذها .

وأما الثانى : فلأن المهيمنين على شئون الدولة من أصحاب النفـوذ الفعلى من الأجانب كانوا لايميلون إلى مثل ذلك الاصلاح الذى يهذب العقول ويسمو بالنفوس ، ولذلك لم يكن غريبا من السير «إفلن بارنج»[1] العسكرى المزاج أن ينبذها وراء ظهره ويعرض عنها إعراضاً تاماً .

---

١ ـ هو اللورد كرومر العميد الانجليزى فى ذلك الوقت .

وأما الثالث : فلأن الخديو توفيق باشا « أبى صاحبها مديراً ومعلما فى مدرسة دار العلوم وعلل ذلك بأنه يربى الطلاب فيها التربية التى يخشى سموه عاقبتها على بلاده » . (١)

وبقى الشيخ محمد عبده ملازماً داره أو بمعنى آخر متعطلا لا يسند إليه عمل رسمى . ولما كان بقاؤه على هذا النحو خطراً كل الخطورة ، مضراً بأولئك الذى يخافون على نفوذهم لأنه يستطيع أن يجمع فى داره حيث لا سلطان لأحد عليه عدداً من الطلبة والمريدين قد لا يقوى على جمعه فى أية مدرسة ، ولأنه يستطيع أن يلقى عليهم من الدروس المثـــيرة لخواطرهم وأفكارهم ما قد يحجم عن إلقائه أو يضطر إلى عدم إلقائه فى مدرسة خاضعة لنفوذ الحكومة . ولما كان اشتغال الإمام فى مدرسة من المدارس ، وإدارته لها ، واستقلاله بها ، خطرا كذلك كل الخطورة مضراً بأولئك الذين يهيئون الشعب لحكم استبدادى ، ويحاولون إخضاعه لنفوذ مطلق لا يرضى عنه أصحاب الآراء الحرة وطالبو الحكم الشورى . لما كان هذا وذاك فقد واجهت المسئولين مشكلة أجبرتهم على التفكير فى أمر هذا الرجل الذى إن أبعدوه أحسوا الحاجة إليه ، وإن قربوه خشوا من نفوذه وخافوا من سلطانه .

وظل الامام موضع تفكير المسئولين ، وظل العمل الذى يمكن أن يناط به محل بحثهم حتى صدر أمر الخديو بتعيينه فى القضاء .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٥٢ .

إصلاحات الإمام

عمله فى القضاء

كان سمو الخديو يخاف من انتشار أفكار محمد عبده وآرائه بين عدد كبير من الطلبة وجمهور المتعلمين، وكان يخشى ما قد تحدثه دعوته السياسية بين تلاميذه ومريديه من ثورة فكرية، (١) ولذلك أصدر أمره إلى ناظر الحقانية حوالى عام ١٨٨٨م (٢) بتعيين الإمام قاضياً فى المحاكم الأهلية على أن يكون ذلك التعيين خارج القاهرة مركز الحركة الفكرية والتعليمية. ولم تكن هذه الرغبة من الخديو إلا إمعانا فى إقصائه عن الأوساط المثقفة السريعة التأثر بالآراء الجديدة.

وكان الإمام فى ذلك الوقت وقبل أن يعلم شيئاً مما بيت له يود لو يعود إلى التدريس فى مدرسة دار العلوم، وهى مهنة أحبها وشغف بها ووجد فيها مجالا لبث آرائه والقيام بنفسه على غرس مبادئه فى نفوس أبناء الجيل الجديد. وكان الإمام يمنى نفسه بالعودة إلى مهنة جربها فذاق لذة التوفيق فيها، واطمأن إليها، وأدرك أنها الطريق إلى غايته. كان الإمام يرجو هذا ويتمناه، ولكن الخديو أبى عليه رجاءه وأمنيته وأمره بما أوضحتاه من

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٦٦ .

٢ ـ يقول الدكتور تشارلز آدمس إنه عين مستشارا عام ١٨٩٠ أى بعد مضى عامين من تعيينه قاضيا، ومعنى ذلك أنه عين قاضيا عام ١٨٨٨ .

قبل وقال الإمام ساعة بلغه خبر تعيينه قاضيا : « إننى لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا ، وإنما خلقت لأكون معلماً ، وقد جربت نفسى فى التعليم فنجحت » ، (١) وسعى لتغيير هذا الأمر وقال لناظر الداخلية الذى رغب فى أن يشفع له عند الخديو لتغيير القرار : « إننى أعلم أن لا ارتقاء فى التدريس ، وأنى أرتقى فى القضاء إلى أعلى درجة فيه ولكننى لا أحبه » . (٢) وفشلت جميع المحاولات ، وتسلم الامام عمله الجديد فى محكمة بنها ، ثم انتقل منها إلى الزقازيق ثم عابدين بالقاهرة ، (٣) ثم عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف عام ١٣٠٨ هـ - ١٨٩٠ م .

وانتهز الاستاذ الامام فرصة اشتغاله بالقضاء فتعلم اللغة الفرنسية . قال فى ذلك : « بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عند ما كانت سنى أربعا وأربعين سنة ، ولكن ميلى إلى تعلم لغة أجنبية ابتدأ فى أثناء الحوادث العرابية ، فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريباً ، وعندما سافرت إلى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت هناك أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أتعلم شيئاً من الفرنساوية لأن اجتماعى كان بالسيد جمالى الدين وبرفاق من العرب ، واشتغالى بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لى بوقت كاف

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٤٢٠ .

٢ - نفس المصدر والصفحة .

٣ - اتخذ الامام فى هذه الفترة دارا بشارع الشيخ ريحان بالقرب من سراى عابدين العامرة وقد سأله أحد الأصدقاء عن السبب فى اختيار هذا المكان فقال مازحا « تناطح عابدين مناطحة » . نفس المصدر صفحة ٤١٨ .

للتعلم بدراسة منظمة ، فذهب علىّ ذلك الزمان بدون فائدة فى اللغة لا كثيرة ولا قليلة ، أما بعد عودتى من النفى إلى مصر واشتغالى بالقضاء فى المحاكم الأهلية والحكم بها خصوصا فى الجنايات على أصول اللغة الفرنساوية وجلوسى بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين فى لغتها فقد قوى عندى الميل إلى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لا أكون فى معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء [1] .

ولم يكن عند الامام وقت لأن يبتدئ فى تعلم هذه اللغة ، ولكن كان عنده وقت لأن ينتهى ، ولذلك بدأ دراسته بالقراءة فى قصة من تأليف « اسكندر دوما » . وكان يقول للمدرس : « أنا أقرأ وأنت تصلح لى النطق وتفسر لى الكلم ، وما عدا ذلك فهو علىّ ، والنحو يأتى فى أثناء العمل » .

وكان الامام ينتهز الفرصة التى يتيحها له السفر الى الخارج وزيارته لفرنسا وسويسرا فيعمل على زيادة معارفه فى اللغة الفرنسية وتقوية لهجته ، وكان يحضر فى جامعة جنيف دروس العطلة فى الآداب وتاريخ الحضارة . قال الامام :

« إن الذى زادنى تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو أنى وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى ، إلا إذا كان يعرف لغة أوربية . كيف لا ! وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين فى

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٤ .

جميع أقطار الأرض . وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم . أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟ » (١) .

وهكذا برع الإمام فى هذه اللغة براعة قوية , وهكذا برهن على أنه لم يخالجه غرور بنفسه ولا بما حصل عليه على تفوقه فيه ، ولكنه عمل بقول السلف الصالح « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » .

* * *

وإذا نحن أردنا أن نتقصى أعمال الإمام فى هذه الفترة من حياته وجدناها كلها تنحو ناحية الإصلاح ورفع مستوى القضاة فى أعين الناس ، فلم يكن محمد عبده شديد التقيد بالقانون وأحكامه ولكنه كثيراً ما كان يصدر الحكم فى القضايا بما يراه ويشعر به أثناء التحقيق ، ومسائل الربا والتزوير بعض تلك المسائل التى كان يحكم فيها باجتهاده . يقول السيد رشيد رضا : « وقد كان قاضى العدل والإنصاف لا قاضى القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضى المجتهد لا المقلد ، ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الواقع عليه بادئ الأمر ، بل كان يتحرى إظهار الحق وإصابة العدل فى القضايا ، فإن انطبقت على القانون وإلا عمد إلى وسيلة أخرى ولاسيما الصلح » (٢) .

وكان عدم تقيده بتطبيق نصوص القانون وسيلة لطعن حساده عليه والوشاية به ، وقد سأله المستر « سكوت » المستشار القضائى يوما بصفة

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٤ .

٢ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٤٢٠ .

ودية عن نصيب الشكاوى التى تقدم إليه من الصحة ، وأجاب الإمام بصحة هذه الشكاوى ولكنه أبان له فى نفس الوقت عن الحكمة فى الاجتهاد وعدم التقيد بالنصوص الواردة مادامت الغاية الأولى والأخيرة إحقاق الحق بين المتخاصمين .

يقول الدكتور تشارلز آدمس : « ولما جلس على منصة القضاء ، أخذ يتحرى الحق ، وإصابة العدل فى القضايا ، وكان يسعى فى حل المشاكل بالتوفيق بين الخصوم وإصلاح مابينهم ، كلما وجد سبيلا ، فإذا أعانه القانون على ذلك تمسك به ، وإلا صرف النظر عن حرفية القانون ، وأخذ يفسر القانون وروحه فى أحكامه ، ولم يتقيد بمراعاة الأشكال والصور فأثار هذا عاصفة من النقد ممن كانوا يقلدون فى القانون ويتمسكون بنصوصه » (١) .

ولم يكن الامام يفرق بين المصريين والأجانب ، وكم من قضية دخل فيها الأجانب من غير حق حكم فيها غير مراع ما لهؤلاء الأجانب من امتيازات ، ذلك لأنه كان يعلم أنهم مادخلوا إلا لعرقلة التنفيذ وإطالة الاجراءات القانونية . وكان عدم اعتداده بالأجانب الذين يعارضون فى الأحكام الصادرة ضدهم مستمداً من قوته وشجاعته وصواب رأيه ومعرفته بخفايا الأمور .

وكان شهود الزور من الذين اجتهد الامام فى محاربتهم . وقد تعقب

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٦٧ .

رحمه الله أولئك الشهود بالحكم عليهم وإخراجهم من الجلسات الى السجن ، وكان غرضه من ذلك تطهير البلاد منهم وإراحة الناس من عبثهم . ولما رأت الحكومة ما فى عمله هذا من صواب . وما سوف يؤدى اليه من اصلاح نفوس أولئك الضعفاء أمرت بزيادة مادة خاصة بشهود الزور .

وبقدر اجتهاده فى محاربة شهود الزور طارد الفحش والفجور حتى كادت الزقازيق تطهر من رجس البغايا أيام كان قاضياً فيها ، « ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التى يسمح بها القانون على كل بغى تبرجت فى الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب . وقد نقل اليه عن بعض المجان هناك أنه قال مرة لبغىّ يعرفها كيف الحال ؟ قالت : زى الزفت . واذا بقى القاضى أبو عمه هذا فإنه يقطع رزقنا من هذا البلد . عايز يرجع الدنيا لزمان سيدنا النبى »[1] .

ويقول الشيخ رشيد : « أخبرنى أنه كان اذا رأى أو علم بأن واحدة منهن خرجت الى الشارع متهتكة ، أو جلست أمام ماخورها متبرجة تغازل المارين أو تغنى — أمر بعض الشرطة بسوقها الى المحكمة بذنب إغراء الناس بالفسق المحظور فى القانون وحكم عليها بالغرامة أو بالحبس فى الحال فكن يقلن ياويلتنا بل « يادهوتنا » كيف يعرف الناس بنا إذا التزمنا ما يريده هذا القاضى منا من ستر وصيانة وأدب »[2] .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٤٢٢ و٤٢٣ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٤٢٣ .

ومما يؤثر عن الإمام فى ذلك الوقت أنه كان إذا ثبت عنده إجرام مجرم وأراد الحكم عليه بالعقاب كالقتل أمال عمامته إلى جبهته، وحدث أن فعل ذلك مرة فصاح به المجرم خوفا مما قد يعقب ذلك من حكم « بعرضك اعدل العمة حتى أقول لك الصحيح »(١).

وكثيراً ما كان يستلهم الحكم من شعوره ووجدانه. يقول الشيخ رشيد: « وأما براعته فى تحقيق القضايا ونزاهته فى تمييز البرىء من ذى الريبة فحدث عنهما ولا حرج. وقد كان مؤيداً بالوجدان الصحيح والإلهام الصادق، فإن كان كغيره من البشر عرضة للخطأ فى رأيه فقد كاد لا يخطىء فى وجدانه أو إلهامه، وسمعته يقول فى بحث الكسب والاختيار إننى كثيراً ما أنظر فى قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالإدانة مثلا حتى إذا ماتمت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذى كنت بنيته فى ذهنى من وجوه ترجيح الإدانة، وظهر لى بغتة أن المتهم برىء حقاً فأحكم بالبراءة »(٢).

وليس بغريب بعد كل الذى بيناه أن يسمى الإمام بالقاضى المجتهد رحمه الله رحمة واسعة بقدر بلائه واجتهاده.

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام: الجزء الأول صفحة ٤٢٣ .
٢ - نفس المصدر صفحة ٤٢٣ و ٤٢٤ .

إصلاحاته فى الأزهر

وتوجهت نفس الامام لإصلاح الأزهر منذ أن كان طالباً يدرس العلم بين أروقته، ويقول فى ذلك : «إن نفسى توجهت إلى إصلاح الأزهر منذ أن كنت مجاورا فيه بعد التلقى عن السيد جمال الدين، وقد شرعت فى ذلك فحيل بينى وبينه . ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها، حتى إذا ماصدفت الموانع لويت وصبرت مترقباً فرصة أخرى»(١) .

وكان الامام يعتقد بوجوب المبادرة إلى هذا الاصلاح الذى هو فى الواقع إصلاح لجميع المسلمين، وكان على الرغم من استعداده للجهاد فى هذا السبيل يرى أن التغلب على العقبات التى تقف فى طريقه، وتحول بينه وبين مايطمع فى تحقيقه يحتاج إلى سعى متواصل، وإلى زمن طويل، وصبر وطول أناة، وكان يرى أنه لو تم له شىء مما يحلل النفس ببلوغه لمات قرير العين، وودع الدنيا ولاشىء يحزنه .

ودار بين الامام والشيخ رشيد رضا فى أواخر رجب من عام ١٣١٥ هـ — حديث عن الأزهر والآمال المعقودة على اصلاحه . وتناول الامام الموضوع من جميع نواحيه وأفاض فى الحديث، ولخص لنا السيد

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٤٢٥ .

رشيد رضا موضوع هذا الحديث الذى كان ولاشك شغل الإمام وموضع اهتمامه فى المسائل الآتية [١] :

١ — أن اصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام فإن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم .

٢ — أن أمامه عقبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم .

٣ — أن هذا الإصلاح لايتم إلا فى زمن طويل وأنه إذا رأى حال الأزهر قد صلحت قبل موته فإنه يموت قرير العين ، ويرى نفسه سعيدا ، بل يرى نفسه ملكا .

٤ — أنه لايرى لدخوله فى الحكومة فائدة الا الاستعانة على اصلاح الأزهر ، فإنه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له فى الأزهر كلام ولايقبل له رأى .

٥ — أنه لم يحصل شىء من الإصلاح حتى الآن.

٦ — أنه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة فى الاصلاح اغتناما للفرصة فأشير عليه بوجوب التدريج . . وأنه لابد له من المسايرة ، وان كان يخشى أن تضيع الفرصة بما يسمونه التدريج .

---

١ ـ كانت هذه المسائل خلاصة الحديث الذى دار بين الامام والسيد رشيد رضا فى أول مقابلة لهما وكانت فى اليوم الثانى من وصول السيد رشيد إلى مصر .



الفناء الداخلى للأزهر قبل تنفيذ الإصلاحات الحديثة

وكان الامام يحاول انتهاز الفرص السانحة لابداء رأيه وتحقيق آماله فى اصلاح الأزهر فيحال بينه وبين مايسعى اليه . حاول ذلك مرة بعد رجوعه من النفى ولكن الشيخ الانبابى ـ شيخ الأزهر لذاك الوقت ـ لم يقتنع بما أبداه له فذهبت محاولاته أدراج الرياح وباءت بالفشل . وقال للشيخ رشيد رضا وقد غلبه اليأس بعد محاولة من تلك المحاولات الكثيرة : « إن بقاء الأزهر متداعياً على حاله فى هذا العصر محال ، فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه ، وإننى أبذل جهد المستطيع فى عمرانه ، فإن دفعتنى الصوادف الى اليأس من اصلاحه فإننى لا أيأس من الاصلاح الاسلامى ، بل أترك الحكومة وأختار أفرادا من المستعدين فأربيهم على طريقة التصوف التى ربيت عليها ليكونوا خلفاً لى فى خدمة الاسلام ، ثم أؤلف كتاباً فى بيان حقيقة الأزهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ، ومبلغ علومهم ، وتأثيرهم فى الوجود ، وأنشره باللغة العربية ولغة أفرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التى يجهلها الناس حتى من أهله » [1] .

وسنحت الفرصة للإمام بعد ذلك بقليل ، وابتدأ الأمل فى اصلاح الأزهر يعاوده منذ اليوم الذى جلس فيه « عباس باشا الثانى » على كرسى الخديوية . فقد كان عباس باشا يرنو الى التخلص من الاحتلال وتحقيق استقلال البلاد ، ولذلك امتاز عهده الأول بالنشاط والعمل والاصلاح ،

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٤٢٦ .

غير أن الامام وهو من أقوى المصريين عزماً، وأنفذهم رأيا، وأخلصهم قلباً، وأبعدهم نظرا، وأكثرهم معرفة ببواطن الأمور، كان يرى أن السياسة لن تجدى كثيرا فى اصلاح مايريد الخديو اصلاحه لأن ذلك يتوقف الى حد كبير على اتفاق الدول الكبيرة والرجاء فى هذا الاتفاق بعيد. أدرك الامام ما يعترض الاصلاح عن طريق السياسة من صعاب ولذلك رغب أن يقوم هو ومن تبعه من المصلحين بخطوات عملية، وأن يبدأوا فى تنفيذ مايرغبون فيه دون تردد أو إمهال، حتى اذا تحققت آمال رجال السياسة كانت دعائم الاصلاح وأسسه قد ثبتت فى أماكنها ولم يبق غير موالاة التنفيذ.

ورأى الامام بثاقب نظره أن خير وسيلة الى هذا كله أن يتقرب الى الخديو الجديد وأن يحاول كسب عطفه ورضاه، كما يحاول اقناعه بالسعى فى اصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف، وهى المصالح الاسلامية الثلاث التى يشمل اصلاحها اصلاح التربية والتعليم واصلاح المساجد والارشاد واصلاح البيوت. ونجح الامام فى هذا السعى، ووفق فيما رغب فيه فنال الحظوة لدى الجناب العالى وتمتع بعطفه ورعايته، وشجعه هذا على أن يبدى بعض مايعن له. قال لسمو الخديو مرة وقد رآه متبرماً ضجرا من استيلاء الانجليز على جميع أعمال الحكومة: « ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة - الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف - فيمكنه أن يصلح الأمة كلها باصلاحها وقد تركها الانجليز له لأنها دينية فهم لا ينازعونه فيها الآن

ولا يؤمن تدخلهم فى شأنها إذا طال العهد وساعدت الفرص فيجب المبادرة لإصلاحها ، [1] .

وإذا كان قد تقرب إلى الخديو لينال الحظوة عنده . تلك الحظوة التى تسهل له كل أمر ، وإذا كان قد سعى لدى الحكومة ليقنعها بوجهة نظره فإنه قد سعى لدى علماء الأزهر أنفسهم لكى يستميلهم إليه ، ولكى يحبب إليهم الإصلاح ، وكان يرمى من ذلك إلى أن تتم كل خطوات العمل بعد أن ينال موافقة هؤلاء العلماء والشيوخ ويضمن عدم انقلابهم عليه أو وقوفهم فى وجهه .

وكان الإمام يدرك حقيقة العقبات التى تعترض سبيله ، وكان يخالج نفسه شىء من اليأس والقنوط ، قال فى يوم من أيام شهر مارس من عام ١٩٠٥ للصحفى الانجليزى المستر هارولد سبندر وقد زاره فى حجرته الصغيرة بالأزهر والمطلة على ذلك السوق العلمى العجيب الواسع الأرجاء حيث يتلاقى الطلبة من أقصى بلاد الاسلام :

، ها أنذا كما ترونى وحيدا ليس لى من الاساتذة من يساعدنى ، ولا من دعاة الخير من ينصرنى ، أريد أن أعمل فى هذه الجامعة شيئا نافعا بدلا من هذه الشروح العتيقة البالية الخالية من المعنى ، والتى هى أشد ضررا من كتبكم القديمة المؤلفة فى القرون الوسطى . ولكن هل أجد من يساعدنى على

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٤٢٧ .

ذلك ؟ وان لم أجد فهل أفلح فيه وحدى [١] .

وكان محمد عبده يحاول التغلب على اليأس الذى يقوى فى نفسه بما يبذله من صادق الجهد .

ويستطيع المطلع على تلك الفترة من حياة الامام أن يدرك الأهداف التى كان يرمى إليها ، وأن يعرف غاياته من الإصلاح الذى كان يرغب فيه ويطالب بتنفيذه أو يسعى هو نفسه إليه ، فالاصلاح الذى كان ينشده قسمان صورى ومعنوى ، فأما الصورى فهو [٢] :

١ — النظام الذى يقضى على كل ما كان فى الأزهر من الفوضى فى التعليم والحياة البدنية والاجتماعية .

٢ — توسيع دائرة العلوم والمعارف .

٣ — ترقية اللغة العربية .

وأما المعنوى فهو :

١ — إصلاح العقل بالاستقلال فى العلم والفهم .

٢ — صحة القصد فيه بما يفضى إلى ارتقاء الأمة فى دينها ودنياها .

٣ — إصلاح الأخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخاء والوفاء وغيرها .

وقد لخص الدكتور تشارلز آدمس فى كتابه الاسلام والتجديد فى

---

١ - محمد عبده الدكتور عثمان أمين صفحة ١١٣ و ١١٤ .

٢ - تفسير الاصلاح الصورى والمعنوى للسيد رشيد رضا تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٥٦٧ .

مصر إصلاحات الإمام فى الأزهر تلخيصاً جمع كل شىء وأبان عن كل شىء مما لانجد معه بدأ من أن نأتى عليه كما هو إتماما لهذا البحث.

يقول الدكتور آدمس :

« لما توفى الخديو توفيق باشا وخلفه ابنه عباس حلمى الثانى، تقدم إليه محمد عبده بخطة لإصلاح الأزهر لينال عنده الحظوة، ووفق إلى استصدار قانون تمهيدى فى ١٢ رجب سنة ١٣١٢ هجرية - ١٥ يناير سنة ١٨٩٥ ميلادية فألف مجلس لإدارة الأزهر من أكابر شيوخه الذين يمثلون المذاهب الأربعة، ومثل الحكومة فيه الشيخ محمد عبده، وصديقه الشيخ « عبد الكريم سلمان » . دون أن يكون لشيخ الأزهر أو لمجلس إدارته رأى فى انتخابهما.

« وكان محمد عبده من بادئ الأمر الروح المحركة لمجلس الإدارة، ومع أنه كان مؤيداً من الخديوى، معززاً إلى حد ما بسلطان الحكومة، إلا أنه أحب أن يجرى الإصلاح فى الأزهر بإقناع شيوخه، فبدأ باستمالتهم بزيادة رواتبهم. فبينما كان الأقلون من الشيوخ يتناولون راتبا يبلغ ستمائة قرش فى الشهر، كان بعضهم لايزيد راتبهم على ستة عشر قرشا، وكان الأكثرون لاراتب لهم وإنما يعيشون على مايأخذونه من تلاميذهم أو يكسبونه من أعمالهم الأخرى. فسعى محمد عبده حتى عينت خزينة الدولة مبلغ ألفى جنيه لمساعدة الأزهر، تصرف بنظام معلوم، لابرأى شيخ الأزهر وميله كما كان الحال فى المبالغ السابقة، مع الوعد بزيادة المبلغ إذا

جاه بفائدة. فكان هذا حجة له على وجوب تحديد رواتب العلماء وفقا لدرجاتهم، حتى يعرف كل منهم مقدار مايتناوله كل شهر بنظام من غير تزلف إلى شيخ الجامع أو تعرض لأهوائه.

« ثم استصدر بعد هذا قانون كساوى التشريف، وهى أردية تلبس فى مناسبات معينة لتخص أصحابها بالتشريف، وتميزهم عن غيرهم، كما كان فى العصور الوسطى، فصارت تعطى لمستحقيها بمراعاة الأقدمية وغيرها من المؤهلات وكان الرأى فيها من قبل لشيخ الجامع، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء.

« ثم وجه عنايته إلى الاهتمام بمساكن المجاورين، فوجدها مزدحمة لاتتوافر فيها شرائط الصحة، ووجد المجاورين يعيشون على جراية لاتكفيهم وهى تجرى عليهم وفقا لعادة قديمة جداً، فسعى إلى زيادتها وارتفعت من ٥٠٠٠ رغيف فى اليوم إلى ١٥٠٠٠، ثم حصل على زيادة من ديوان الأوقاف أيده الخديو فى الحصول عليها، ونظم الأوقاف الخيرية المحبوسة على الأزهر، وكانت فى حالة سيئة فزاد إيرادها من ٤٠٠٠ جنيه سنويا إلى ١٤٧٥٠ جنيها.

« ووضع مجلس الادارة نظاماً لتوزيع الجرايات اليومية التى كانت مصدر ثروة لبعض الشيوخ والموظفين، وسببا دائما للتخاصم والمشاجرة.

« أما أبناء العلماء الذين كانت تؤول إليهم المرتبات المنحلة عن آبائهم بعد وفاتهم دون قيد أو شرط، فقد جعل لهم القانون شرطاً لاستيلائهم

عليها . أن يداوموا على طلب العلم ليخلفوا آباءهم فى التدريس .

« ثم زاد فى الأماكن المعدة لسكنى المجاورين ، وجدد الأثاث ، وحسن الشرائط الصحية ، وأوصل المياه إلى مساكنهم ليسهل عليهم أداء الفرائض ، وأدخل الاضاءة بمصابيح الغاز بدلا من إنارة الزيت القليل الضوء ، وعين طبيب لمباشرة شئون الطلبة الصحية . ثم أنشئت صيدلية داخل الأزهر لصرف الأدوية مجاناً إلى المجاورين ، وأنشئ لهم مستشفى فيما بعد .

« ووجه عنايته كذلك إلى الشئون الادارية ، فأعدت مكاتب لادارة الأزهر فى بناء قريب منه ، واستخدم عدد من الكتاب لمعاونة شيخ الجامع فى القيام بالأعمال الادارية الجديدة ، وكان شيخ الأزهر قبل ذلك يدير الشئون الادارية فى بيته ، حيث يسعى إليه المدرسون والمجاورون ليرفعوا إليه أمرهم ، بينما كان الجانب الأكبر من الأعمال العادية يقوم بها كاتب واحد يستبد بالأمر فيهم .

« ثم أطال التفكير فى نظام التدريس ، ولكى يتسنى له الحصول على موافقة أغلبية المدرسين على التعديلات التى يرى إدخالها على المنهج ، ألفت لجنة من نحو ثلاثين من أفاضل العلماء ، وعهد إليها فحص العلوم التى تدرس بالفعل ، والاشارة بما ترى إضافته إليها ، على أن ترفع اقتراحاتها إلى مجلس الادارة ، فبينت اللجنة علوم المقاصد ، وعلوم الوسائل ، وأضافت إلى علوم الوسائل الحساب ، والجبر ، وتاريخ الاسلام ، والانشاء ، ومتن اللغة وآدابها ، ومبادئ الهندسة ، وتقويم البلدان ، وألزم طالب الامتحان

للحصول على شهادة العالمية ، بأدائه فى علوم المقاصد ، وبعض علوم الوسائل والحساب ، والجبر ، ثم حتم القانون أن يجنب الطلاب فى السنين الأربع الأولى قراءة الحواشى والتقارير المطوّلة ، وأن يفرغوا لتحصيل جواهر العلوم الدينية بطريقة سهلة التناول ، وشرط عليهم التحلى بمحاسن الأخلاق الشرعية .

• ثم وضع مجلس الإدارة طائفة من القرارات التكميلية بعد أخذ رأى العلماء فيها . منها ماتناول طرائق التعليم وسلوك المدرسين ، ومنها ما تعلق بسير الطالب وآدابه مع الأساتذة ، ومع إخوانه من الطلاب .

• ثم حددت أوقات الأجازات الدراسية . وقصر أجلها حتى زادت شهور العمل من أربعة إلى ثمانية ، وظهر أن القانون الجديد قد أدى إلى إقبال العلماء والطلاب على عملهم فى جد ونشاط .

• وكان متوسط عدد الذين يتقدمون إلى الامتحان ثلاثة فى العام ، ولم يتجاوز عددهم الستة فى أى عام من الأعوام ، فزاد بعد القانون الجديد إلى خمسة وتسعين نجح ثلثهم .

• وخشى بعض العلماء أن تحول العلوم الحديثة بين كثرة الطلاب وبين تحصيل العلوم القديمة المتداولة ، فعقد الشيخ محمد عبده امتحانا ليظهر أن نسبة الناجحين من الطلاب الذين درسوا العلوم الحديثة والعلوم القديمة أكبر منها فى أولئك الذين قصروا همهم على دراسة العلوم القديمة وحدها .

« ثم تبين أن مكتبة الأزهر كانت فى أسوأ حال من الإهمال وسوء الانتفاع، بل كان فى الواقع لاوجود لها. كانت كتبها موزعة مشتتة فى الأروقة المختلفة، وكان أكثرها فى حال يرثى لها، وتسرب كثير من كتبها القيمة إلى أيدى الغربيين، وبيعت نفائسها إلى باعة الكتب بالثمن البخس. فجىء بهذه الكتب من مخابئها محشوة فى الغرائر والمقاطف، ووضعت فى المكتبة، ثم رتبت وصنفت، ونظم مابقى منها فى الأروقة المهمة وعنى بها عناية تامة.

« ثم أنشئت أيضا مكتبات فى المعاهد التى ألحقت بالجامع الأزهر، كالجامع الأحمدى [١] والدسوقى [٢]، ومعهدى دمياط [٣] والإسكندرية [٤] وأصبحت تخضع لقانون الأزهر ونظامه، فنالت نصيبها من الإصلاحات التى أدخلت على المعهد الرئيسى، وأمل محمد عبده أن يتخذ من الأزهر مركزاً لحركة إصلاحية، ونهضة عقلية فى البلاد كلها.

ثم عاد إلى التدريس فى الأزهر وألقى دروساً فى التوحيد، وتفسير القرآن، والبلاغة، والمنطق.

« وينبغى أن نشير هنا إلى ما أبداه الشيخ محمد عبده من عظيم الاهتمام بإحياء اللغة العربية، وأساليبها الفصحى.

---

١ - ألحق الجامع الأحمدى بالأزهر فى ١٦ شوال من سنة ١٣١٢ هـ - ابريل سنة ١٨٩٥ م.
٢ و ٣ - وألحق الدسوقى ومعهد دمياط فى ٦ المحرم سنة ١٣١٣ هـ - يوليو سنة ١٨٩٥ م.
٤ - وألحق معهد الاسكندرية فى ٢٩ المحرم سنة ١٣٢١ هـ - ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٣ أى قبل وفاة الامام بعامين تقريبا.

« وقد استعملها فى دروسه وخطبه وأحاديثه فى الأزهر وغيره ، ولم يقتصر على هذا ، بل سعى أيضا لدى ديوان الأوقاف حتى قرر مبلغ مائة جنيه تصرف لأحد العلماء لتــدريس أدب اللغة العربية الفصحى فى الأزهر »[1] .

ويعلق الدكتور تشارلز على مابذله الامام من جهود متواصلة فى سبيل الجامعة الاسلامية فيقول :

« لقد أسهبنا فى بيان الجهود التى بذلها الشيخ محمد عبــده لاصلاح الأزهر ، لما كان يعلقه عليها من كبير الأهمية ، ولأنها كانت معقد آماله فى القيام بإصلاح شامل للإسلام .

« ولقد كانت الجهود التى أنفقها خلال الأعوام العشرة الأخيرة من حياته ، متجهة إلى تحقيق هذه الأغراض . على أنه مما يؤسف له ، أن مقدار ما وفق إليه من نجاح لم يكن متناسباً مع عظمة أغراضه ، ولا مع إخلاصه فى مساعيه ، ومابذل من جهد مشكور .

« فى الحق أنه أدرك جزءاً من وطره ، وحقق الجانب العادى من غاياته ، أما النواحى الروحية ، وهى أجل خطراً ، فكل مانستطيع أن نقوله فى شأنها هو أنه نجح فى وضع الأسس التى يمكن أن يقوم عليها البناء فى المستقبل .

« وليس لك أن تستنتج من هذا ، أن كل الأزهريين أو كثرتهم كانوا يعارضون كل إصلاح ، فإن كثيراً من قادتهم كانوا يدركون ضرورته ،

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٦٩ ومابعدها .

وعاونوا الإمام وشجعوه فى جهوده عند ما كان يحظى بتأييد الخديو ، ولكنه لسوء الحظ تغير عليه وانقلب تأييده له إلى معارضة قوية للإصلاحات التى كان ينادى بها ، فرجحت كلمة المحافظين ، ولما يئس محمد عبده من إدراك النجاح ، استقال من مجلس الإدارة فى ١٩ مارس سنة ١٩٠٥ واستقال معه صديقه الشيخ عبدالكريم سلمان ، وعضو آخر هو الشيخ السيد أحمد الحنبلى ، وكان هذا آخر عهده بالأزهر لأنه توفى بعد شهور قليلة ، وعاد الأزهر وقتا ما إلى سيرته الأولى ونهجه المألوف لايزعجه من الأمر شىء [1] .

وكان لاستقالة الأستاذ الامام من مجلس إدارة الأزهر دوىٌّ كبير فى أرجاء العالم الإسلامى كله فقد شعر المسلمون لأول مرة بأنهم خسروا رجلا جاهد مخلصا لله وفى سبيل الله ، ولم يكن يرجو من جهاده غير أن يعيد المجد القديم لذلك المعهد الاسلامى الجليل الذى تحمل له القلوب مكانة لاتعدلها مكانة معهد آخر .

---

١ — الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٧٣ ومابعدها .

عمله فى الإفتاء

وفى ست بقين من المحرم ١٣١٧ هـ - ٣ يونيو عام ١٨٩٩ م [1] صدر الأمر العالى بتعيين الأستاذ الإمام مفتيا للديار المصرية دون مشيخة الجامع الأزهر ، ولما كان سمو الخديو يعلم ماسوف يقابل به الإمام هذا التعيين أرسل إليه صديقيه «مصطفى باشا فهمى وحسن باشا عاصم» ليقنعاه بالقبول ويحسنا له الأمر ، وحمل الخديو عاصم باشا رسالة كانت فى الواقع شهادة طيبة من ولى الأمر ، ودليلا من الأدلة الكثيرة على ماناله هذا الرجل بكفاءته وعلمه من تقدير الناس حتى الناقمين عليه والكارهين له ، فأما هذه الرسالة أو الشهادة الطيبة فهى قوله لعاصم باشا : «أخبر صديقك بأنه إذا لم يقبل الإفتاء الآن فإنى أعد ذلك منه إيقاعا لى فى صعوبة شخصية مع الاحتلال ، وأنا أعترف بأنه قليل عليه ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها» [2] .

واضطر الإمام إلى القبول والإذعان ، ولكنه لم يجعل من هذا المنصب وسيلة للراحة ، فإنه على العكس من ذلك كان وسيلته إلى الإصلاح العملى الذى
١٠ احتمل فى سبيله ما احتمل من ألم وشدة . وليس بغريب على الرجل الذى جعل من

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٦٠٢ ، الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٧٥ .

٢ - نفس المصدر الأول والصفحة .

الجريدة الرسمية وسيلة إلى إصلاح أعمال الحكومة ووسيلة إلى الإصلاح الاجتماعى فى الأمة ، أن يجعل من أكبر منصب شرعى وسيلة إلى الإصلاح الإسلامى فى العالم كله .

وفرح الناس بما ناله الامام واستبشروا بهذا التعيين فقد كان وضعاً للشىء فى موضعه ، وتزاحمت رسائل التهنئة عليه ، ونكتفى هنا ببعض ماقاله صاحب الفضيلة الشيخ عبدالرحمن قراعة :

أمولاى يامولاى دعوة مخلص   تقول فيصغى أوتؤم فيهتدى
لكل زمان من بنيه مجدد   لما أبلت الأهواء من دين أحمد
وقد علم الأقوام أن محمداً   مجدد هذا الدين فى اليوم والغد
يمينا بمن بالفضل خصص (عبده   محمداً) الداعى لهدى محمد
وقلده عقد الفتاوى فأصبحت   تتيه به الفتيا بخير مقلد
لتخترق الحجب بالرشد لاالهوى   وتبنى منار الحق بالفكر واليد
فتوضح من إشكاله كل غامض   وتفتح من أبوابه كل موصد
إليك أزف المدح شعرا مقصدا   على بعد عهدى بالقريض المقصد[1]

* * *

وكان المفتون الذين سبقوا الامام يكتفون فى الغالب بما ترسله إليهم دواوين الحكومة من القضايا والمشاكل الشرعية التى يحتاج فيها إلى الافتاء ، غير أن الامام لم يقصر عمله على فتاوى الحكومة ، ولم ينهج فيه نهج سابقيه

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٦٠٣ .

وقد استن سنة ألبست المنصب لباس الرفعة والجلال دأبه فى كل وظيفة أسندت إليه، وفتح صدره لحاجات الأفراد واستفتاءاتهم فعظم شأن الوظيفة وارتفع مقامها فى أعين الناس، وأحس الناس فى مصر والشرق أن الله قد هيأ لهم من يبدد الشبهات، وينير لهم طريق الهدى والرشاد.

«وكان المفتون السابقون قد تابعوا على كتابة عبارة واحدة فى جواب كل استفتاء يأتيهم من قبل محكمة الجنايات بحكم الإعدام حاصلها «إذا ثبت على هذا الرجل أنه قتل الآخر عامداً متعمداً بشرطه حكم بقتله وإلا فلا»، فلما جاء الاستاذ الامام عرض عليه كاتب الافتاء أول استفتاء فى ذلك مع الجواب المحفوظ عنده عن المفتين السابقين، ظانا أنه لايلبث أن يوقع عليه بإمضائه، ولكنه فاجأه بالانكار واستغرب كتابة جواب واحد مبهم عن أسئلة مختلفة فى أحكام قد يكون بعضها خطأ وبعضها صوابا، وأملى عليه كتابا فحواه: أنه لايمكن أن يفتى فى هذا الحكم إلا بعد الاطلاع على وقائع الدعوى وبيناتها والمستندات والحيثيات التى يبنى الحكم عليها، وطلب إرسال صورة صحيحة من ذلك إليه» [1].

وكان الامام مقيداً فى فتاواه الرسمية بمذهب الحنفية، وأما غير الرسمية وهى الفتاوى التى كانت تصل إليه من الهيئات الاسلامية والأفراد فى مشارق الأرض ومغاربها فكان له فيها مطلق الحرية لأنها كانت تختلف باختلاف المستفتين.

° ° °

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٦٤٦ .

وللإمام فتاوى كثيرة أشهرها ثلاث :

الأولى : وردت إليه من الهند يسأله صاحبها هل يجوز استعانة المسلمين بالكفار وأهل البدع والأهواء لنصرة الملة وحفظ حوزة الأمة ، وقد طلب فضيلة المفتى من مشايخ المذاهب الأربعة أن يبدوا آراءهم ثم حققها هو بنفسه وانتهى إلى قوله : « فقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين ، على مافيه خير ومنفعة للمسلمين ، وأن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم ، ومافيه خير لهم ، لم يفعلوا إلا مااقتضته الأسوة الحسنة بالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، وأن من كفرهم أوفسقهم فهو بين أحد أمرين إما كافر أو فاسق ، فعلى دعاة الخير أن يجدّوا فى دعوتهم ، وأن يمضوا على طريقتهم ، ولايحزنهم شتم الشاتمين ، ولايغيظهم لوم اللائمين فالله كفيل لهم بالنصر ، إذا اعتصموا بالحق والصبر ، والله أعلم » (١) .

والثانية : الفتوى الترنسفالية « التى هاجمتها السياسة الخديوية بأقلام كتابها المأجورين وشيوخها المداهنين ، فانكسرت دولة المال والرتب والنياشين ، وفازت دولة العلم والدين ، وكان النصر لكتابها المخلصين » . (٢)

فقد ظن الخديو أنه يستطيع القضاء على ماللإمام من نفوذ ، والإقلال من

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٦٦٦ .

٢ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٦٦٦ .

شأنه فى أعين الناس ، وتحقير علمه بين المثقفين من أبناء البلاد بل العالم الاسلامى كله، ولكن الامام لم يكن بالرجل الذى يصدر فتواه من غير تحقيق ورجوع إلى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان يقوم به فى حياته من رسم الطريق للأجيال القادمة، ولم يكن الامام ليجتهد فى رأى يعلنه قبل أن يوازنه بآراء من سبقه من السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين . وكان النجاح نصيب الامام، وباءت الحملات التى شنت عليه بالفشل التام ، وطويت الصحف على خزى أصاب أولئك الكتاب المأجورين .

أما الأسئلة التى قدمها الترنسفالى وطلب الافتاء فيها فهذا نصها :

١ — يوجد أفراد فى هذه البلاد تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد إليهم فهل يجوز ذلك أم لا (١) ؟

وقد أفتى الامام بجواز لبس القبعة لأن الاسلام لم يقيد أهله بزى خاص ، ولأن حكمة هذا الدين العام أبت أن تقيد شعوب الأرض كلها بعادات طائفة منهم كأهل الحجاز أوغيرهم ، ولهذا لبس النبى عليه الصلاة والسلام من لبوس النصارى والمجوس والمشركين كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة . (٢)

٢ — أن ذبحهم (أى نصارى الترنسفال) مخالف وذلك لأنهم يضربون البقر بالبلط وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية ، والغنم يذبحونها

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٦٧٦ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٦٧٥ .

بغير تسمية أيضا ، هل يجوز ذلك أم لا [١] ؟

وأراد السائل كما يتضح لنا الاستفهام عما إذا كان يجوز للمسلم أن يأكل من تلك الذبائح لأنه ليس من شأن هذا المسلم أن يسأل عن أفعال غير المسلمين إذا لم يكن غرضه الاستفادة منها أو محاكاتها. وقد أفتى الامام بالجواز مستدلا على ذلك بآيات من كتاب الله وماقال به جمهور الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين [٢] .

٣ — أن الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية ويصلون خلفهم العيدين ، ومن المعلوم أن هناك خلافا بين الشافعية والحنفية فى فرضية التسمية وفى تكبيرات العيدين ، فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر أم لا [٣] ؟

وقد أجاز الامام هذه الصلاة وكانت فتواه موافقة لعمل سلف الأمة الصالح بدون استثناء [٤] .

وأما الفتوى الثالثة فهى هل يجوز للمسلم أن يودع أمواله فى صندوق التوفير وأن يأخذ عليها فائدة ، وقد أحل الامام ذلك وأباحه .

والذى يطالع فتاوى الامام ويمعن فيها النظر يلمس روح الاستقلال والتحرر من أغلال التقليد . ولما كان من أهم مطامع الامام وغاياته

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٦٧٦ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٦٧٦ .

٣ - نفس المصدر والصفحة

٤ - نفس المصدر والصفحة

تطهير الدين من البدع والخرافات وجعله موافقا لمقتضيات العصر فقد راعى هذه الناحية فى كل ما كان يأتيه من أعمال ، وما كان ينادى به من إصلاح واجتهد الامام فى أن تتمشى فتاواه كلها مع روح العصر وأن تساير الزمن لأنه كان يعتقد أن الدين يسر لا عسر .

يقول الدكتور تشارلز آدمس : « كانت الفتاوى العديدة التى أفتى بها تتناول الأمور التى نشأت عن مخالطة المسلمين فى مصر لغيرهم ممن يخالفونهم فى الجنس ، ويباينونهم فى الدين ، وكانت تمس كذلك أحوال المدنية الحديثة ولاسيما مانشأ عن الظروف التى جعلت المصريين يخضعون للقانون أكثر من خضوعهم للشريعة .

وكانت فتاواه كلها تتميز بروح من الاستقلال والتحرر من أغلال التقييد ، وتزخر بالرغبة القوية فى جعل الاسلام ملائما لحاجات المدنية الحديثة ، ولكن هذا الاستقلال فى الرأى هاج معارضة مرة ممن ظلوا يستمسكون بأهداب القديم »[1] .

وقد أذاعت هذه الفتاوى شهرته رغم محاولات التهجم عليها وإنكارها والطعن فيها . وكانت هذه الفتاوى سببا فى أن تعبر شهرته من مصر إلى بلاد الشرق ثم تطوف فى العالم الاسلامى كله ، وتجعله زعيما دينياً يشار إليه بالبنان .

وليس من السهل على المرء فى هذه الايام أن يتصور كيف كانت فتاوى

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٧٦ .

الامام تقابل فى ذلك الوقت بكثير من الأقاويل والمفتريات التى لم يسلم من أذاها شخص المفتى وشرفه . والواقع أن أسباب كل هذه الاقاويل والمفتريات دسائس نسجت خيوطها حول المفتى للنيل منه وإقصائه من عمله ليخلو الجو أمام المغرضين والطامعين .

ومما يدل على ذلك اتهامه بالوهابية والزندقة تمهيدا للطعن فى صلاحه لمنصب الافتاء ، ويدل على هذا الاتجاه قول « محمد بك أبى شادى » :

« وحيث قد خرج عن التقليد المنصوص عليه فى أمر التولية ، فيرى العلماء أنه صار معزولا شرعا من وظيفة الافتاء بمجرد هذا الخروج »[١] .

وقد نشرت للمفتى بعض الصور المفتراة عليه والتى أظهرته فى مواقف مشينة رغبة فى الحط من مقامه بين الناس ، ولكن كل ذلك لم يثنه عن عزمه ، ولم يحل بينه وبين التمسك بما رآه حقا وصدقا ، وتنفيذ ما اعتقد فيه الخير والبركة .

وظل الامام يواصل جهوده متخذا من منصبه وسيلة لإصلاح عام ، وتطهير لأوهام طال عليها الزمن ، وعلاج لعلل وأمراض ساعد على انتشارها جهل وجمود ، وظل الامام متقلدا منصب الافتاء حتى وافاه الأجل المحتوم والعالم الاسلامى أشد ما يكون حاجة إليه .

---

١ ـ محمد عبده للدكتور عثمان أمين صفحة ١١٦ .

إصلاح المحاكم الشرعية

وكانت البلاد فى ذلك الوقت تضج بالشكوى من فساد النظام فى المحاكم الشرعية ، ومن خلل الإدارة وبطء العمل ، حتى لقد رأى بعض الباحثين إلغاءها وإضافة أعمالها على أعمال المحاكم الأهلية بحجة توحيد القضاء ، وأهلية قضاة هذه المحاكم الأخيرة للحكم فى الأعمال الشخصية الدينية .

وقد حاولت الحكومة النظر فى هذا الفساد المرة بعد المرة ، وحاول المتوفرون على الإصلاح إيجاد علاج لتلك العلل والأمراض فأعياهم الاصلاح — ولما أسند منصب الإفتاء إلى الأستاذ الإمام اتفق رأى أولى الأمر عام ١٣١٧ ﻫ — ١٨٩٩ م على تفويض شأن المحاكم الشرعية وإصلاحها إليه . وكان ذلك أول عمل نيط به منذ تولى منصب الإفتاء .

وقام الامام بزيارة المحاكم الشرعية فى مختلف البلاد ، والتفتيش على أعمالها صغيرها وكبيرها ليضع تقريره على ضوء الحقيقة والواقع يقول محمد عبده : « علمت عقب تعييني فى وظيفة إفتاء الديار المصرية أن سأكون عضواً فى اللجنة التى عزمت الحكومة الخديوية أن تكل إليها النظر فيما يجب إدخاله على المحاكم الشرعية من الإصلاح الشرعى والنظامى ، فرأيت من الواجب علىّ أن أكون على بصيرة من الأمر العظيم الذى سأدعى إلى البحث فيه ، وأنه لا يتم لى ذلك إلا بالاطلاع على ماهو جار فى هذه المحاكم والبحث فى العلل التى عم الكلام فيها ، وما يجب أن يوضع لها من الدواء . مع الحرص

على قواعد الشرع وأصوله ، ومراعاة مصالح العامة ، والآخذين بأحكام الشريعة المطهرة فى عقائدهم ومعاملاتهم ، وإزالة ما عمت منه شكواهم ، مما ينسب إلى عمال المحاكم أوالعوائد المتبعة فى سير أعمالها » . [١]

وتناول التقرير الذى قدمه الامام بعد تلك الزيارات الطويلة جميع ما يمت إلى المحاكم بسبب من الأسباب كالحاجة إليها ، والأماكن التى تشغلها والكتبة ، والقضاة ، والحجاب ، والأعمال الكتابية ، ونظام العمل ، والدفاتر ، والعقود ، والأعمال الحسابية ، وتشكيلها ، واختصاصاتها ، والمرافعات وغير ذلك من الأمور التى رأى بثاقب نظره حاجتها إلى الاصلاح أو التعديل .

وقدم الإمام هذا التقرير بمقدمة أحاطت بكل شىء وقال عنها السيد رشيد : « ثم عهدت الحكومة إلى رجل من أكابر علماء الشرع الإسلامى ومن واسعى الاطلاع فى القوانين الوضعية ، والعارفين بأحوال الزمان ، ألا وهو الأستاذ العلامة الشهير الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية لهذا العهد بأن ينظر فى أدواء المحاكم الشرعية ومزاجها ، ويبين دواءها ويصف علاجها ، ويضع فى ذلك تقريراً ، فبقى الناس فى أمر مريج [٢] حتى ظهر التقرير فإذا هو لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ويبين مبتداها ومنتهاها . ووصف علاجها ودواها ، وأظهر للملأ أن خلل هذه المحاكم

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٦٠٧ .
٢ - أى أن الناس كانوا مضطربين فى حيرة مما سيقرره .

بعضه من تقصير الحكومة نفسها، وبعضه من تقصير القضاة والكتبة. وقد أجمع المطلعون على التقرير من أهل العلم الشرعى وغيرهم على أنه جمع فأوعى، وأرشد إلى الإصلاح الحقيق وهدى، وأثنت عليه الجرائد كلها على اختلاف مشاربها ومذاهبها، وتشوقت نفوس سائر الناس للاطلاع عليه»[1].

يقول الامام فى تقريره: «ولا يخفى أن الشعب إنما هو مؤلف من البيوت التى تسمى عائلات، وأساس كل أمة عائلاتها، لضرورة أن الكل إنما يقوم بأجزائه، ولما تعلقت مصالح البيوت فى أدق روابطها بالمحاكم الشرعية كما هو الواقع اليوم، تبين مقدار حاجة الأمة فى صلاحها إلى إصلاح هذه المحاكم، وظهر أن منزلتها من بناء الحكومة المصرية منزلة الركن الذى لو ضعف ظهر أثر ضعفه فى البنية بتمامها.

«إذا ظهرت هذه المحاكم فى مظهرها الدينى الجليل، وسارت سيرتها الشرعية القويمة، أدخلت أصول النظام فى أصغر البيوت فضلا عن أعلاها وأعادت بالعدالة الأبوية ما فقده الناس من نظام الألفة، وقد رأينا أن الرجل يدخل المحاكم الاهلية مخاصما، فيخرج منها محامياً، فأحرى بمن يقوم بين يدى قاض ينطق بالعدل الالهى أن ينقلب وفى نفسه أثر من خشية الله»[2].

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٦١١ و ٦١٢.

٢ - نفس المصدر صفحة ٦٠٨ و ٦٠٩.

وبين الإمام فى تقريره المسائل التى كانت السبب فى تبرم الناس بالمحاكم وسخطهم فقال : « وشكوى الناس تنحصر فى صعوبة المعاملة مع الكتاب ، وطول الزمن على القضايا خصوصا إن كانت مهمة ، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين بأحكام الشريعة ، فضلا عن سائر العامة ، وهوى القاضى أو ضعف يقظته ، وشكوى القضاة تنحصر فى رداءة مقامهم ، والتقتير عليهم فى المرتبات وسائر النفقات التى لابد منها ، والنظام يشكو من التساهل فى المحافظة عليه »(١) .

وكان من أهم وجوه الإصلاح التى طالب بها فى تقريره هذا أمور ثلاثة :

الأول — توسيع دائرة اختصاص المحاكم الشرعية .

الثانى — عدم حصر منصب القضاء الشرعى فى الحنفية .

الثالث — أن تؤلف لجنة من العلماء لاستخراج كتاب فى المعاملات الشرعية ينطبق على مصالح الناس .

وقد اهتم مجلس شورى القوانين بإصلاح هذه المحاكم حتى أن الحكومة ألفت بناء على طلبه لجنتين برئاسة الإمام إحداهما لتحضير جميع الأحكام الشرعية التى يحتاج إليها القضاة فى عملهم ، والثانية لإعداد مشروع بإنشاء

---

١ — تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٦١٠ .

مدرسة القضاء الشرعى ، وقدم الإمام مشروعه قبل سفره الأخير إلى الإسكندرية بأيام قلائل غير أن الأجل لم يمهله حتى يرى نتيجة جهوده وسعيه .

لقد كان رحمه الله شديد الرغبة فى إصلاح هذه المحاكم ، شديد الحرص على أن تكون محترمة موقرة فى أعين الناس فذلك أدعى إلى الالتجاء إليها عند الحاجة ، والنزول عند حكمها فيما يعرض عليها من القضايا والمنازعات . .

عمله فى نظارة الأوقاف

وكانت نظارة الأوقاف كما كانت المحاكم الشرعية لاضابط لها ولا نظام ، تتحكم فيها الأهواء والشهوات ، وترتفع أصوات المستحقين بالشكوى فلا يسمع لهم صوت ، ويطالب رجال الإصلاح ببحث العلل وأسباب الفساد فلا يجاب لهم طلب ، ويشكو المترددون على المساجد من جهل الأئمة والوعاظ وفساد عقولهم فلا تسمع لهم شكاية ، ويتألم خدمة بيوت الله من مؤذنين وملاحظين ومرتلين من فقرهم وسوء حالهم وضآلة مرتباتهم فتصم الآذان عن سماع آلامهم . فلما عين الأستاذ الامام بحكم منصبه الدينى عضوا فى مجلس الأوقاف الأعلى أوجد روحاً غير الروح القديمة البالية ، وأوقد شعلة من الحميــة والنشاط فى قلوب أعضاء المجلس حملتهم على النظر فيما يعرض عليهم لعلاج هذه العلل والأمراض برغبة صادقة واهتمام كبير ..

ولم يقصر الامام اهتمامه فى محاولة الأصلاح على ناحية دون ناحيـة ، ولكنه اهتم بالإصلاح المالى كما اهتم بالإصلاح الادارى ، ولم ينس أن يوجه جزءاً كبيراً من عنايته لإصلاح النواحى الشرعية التى فتحت له باب إصلاح المساجد ، وتحسين حالة الذين يقومون فيها من رجال الدين والادارة .

ولاشك فى أن إدارة المساجد الموجودة الآن فى وزارة الأوقاف لابد

أن تكون نتيجة لما أوحى به، وطالب بتنفيذه، فقد رأى رحمه الله أن إصلاح المساجد يمكن تحقيقه صوريا ومعنويا بنظام يقرر إنشاء إدارة المساجد، وكيفية تعيين الخطباء والأئمة وشرط كونهم من العلماء المرشدين، ثم إقامة الدروس والمواعظ التى تفيدالناس وتفقهم على أصول دينهم وأحكام شريعتهم.

ووضع الامام فى ذلك تقريراً مفصلا تضمن وجهات نظره، ولكنه اكتفى فى خريف عام ١٩٠٣ بتقديم اللائحة الخاصة باصلاح المساجد، وقد حال دون تقديم التقرير كله ما وقع بينه وبين سمو الخديو «عباس حلمى الثانى» من خلاف.

وكان هذا الخلاف الذى دب بين سمو الخديو والامام فاستحكمت حلقاته سببا فى إهمال النظر حتى فى هذا الجزء الخاص بالمساجد. وظل المجلس يؤجله من جلسة إلى جلسة حتى وفق فى ٨ فبراير من عام ١٩٠٤ وبعد طول الاهمال والاعراض إلى إقرار جزء منه خاص بترتيب الخدمة والمرتبات وشروط التوظف.

وقد جاء فى العدد ٧٩٦٥ من جريدة الأهرام: «أبنا فى أعدادنا السالفة فائدة لائحة المساجد التى يعمر بها الازهر وتعمر بها الجوامع، ويقام عماد الدين والعلم والادب، وقلنا إن معاداة هذه اللائحة والقيام فى وجهها هو عبارة عن معاداة صالح الازهريين وتقدمهم، والوقوف فى وجوههم. ولقد اتفق بعض وصفائنا أمس على أن إنفاذ هذه اللائحة قد أجل إلى العام

المقبل ، أى حتى عودة رجال الحكومة من الأجازة ، فأخذنا نبحث عن سبب التأجيل فعرفنا أن فضيلة القاضى الأكبر رفع عريضة إلى الجناب الخديوى يشكو فيها من بعض ماجاء فى اللائحة ، ويدعى أنه مخالف لشروط بعض الواقفين ، كأن يكون بالمسجد مبخر وسقاء وكناس ، فاللائحة جمعت وظائف كثيرة فى شخص واحد ، فالمعية ترجمت شكوى فضيلة القاضى وأرسلت هذه الترجمة إلى الوكالة الإنجليزية ، فأجابتها الوكالة أن الوقت قد انقضى وأن جناب اللورد لايقدر الآن على درس الشكوى واللائحة وأنه ينعم نظره فيها بعد عودته من الاصطياف ، فلهذا أجل الإنفاذ .

« ولقد دهش العقلاء لهذا العمل لأن المحتلين أعلنوا مراراً وجهاراً أنهم لايتعرضون لأمر من أمور الدين ، فما الذى حمل المعية إذن على إرسال تلك اللائحة إلى الوكالة الإنجليزية ، ألا توجد فى البلاد سلطة دينية عاقلة عالية تقدر على درس اللائحة وتمحيصها ؟

« ولقد دار فى جميع الأندية أن ذلك كله نتيجة التسابق لارضاء المحتلين فكما أن دولتلو رياض باشا جعل جناب اللورد كرومر صاحب المقام الارفع ، كذلك المعية أحالت على جنابه شكوى العلماء وشؤون المساجد والجوامع .. فما أكبر حظ دولة تجد مثل هذا من أمة تحكمها وبلاد تحتلها » .

ويفسر كلام الاهرام ماذهبنا إليه من أن الخلاف كان سببا فى تعطيل

كثيرمن مشروعات الاصلاح ، ثم يبين لنا كيف حورب الإمام والوسائل التى كان يلجأ إليها معارضوه .

يقول السيد رشيد رضا فى هذه اللائحة التى حوربت ، وفى الآمال التى كان يعقدها الإمام على مايرغب فيه من إصلاح : « أجال هذا المصلح الغيور قداح الفكر فى هذه المسألة فرأى أن السعى فى إصـــلاح حال المساجد يستتبع إصلاحا آخر وهو خدمة العلم والاعانة عليه بإيجاد مورد جديد لرزق أهل الأزهر يرغب الناس فى طلب العلم » [1].

ويقول حسن باشا عاصم فى تأبينه : « وكان من مقتضى منصب الافتاء أن كان رحمه الله عضوا فى مجلس الاوقاف الاعلى فكان نبراسا يستضىء برأيه فى تطبيق أعماله على أحكام الشرع الشريف وفى حل المشكلات . ومن اقتراحاته المفيدة أن تشكلت لجنة تحت رئاسته وضعت نظاماً للمساجد لو عمل به كما هو لعمرت بيوت الله وبيوت خدمتها ، ولكانت عونا على إحياء علوم الدين » [2] .

ولاعجب فى ذلك فقد كان رحمه الله عنوان الحركة والنشاط فى كل مكان ، ورمز الاخلاص والجد فى كل عمل .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٦٣٨
٢ - نفس المصدر صفحة ٦٣٢ .

عمله فى مجلس شورى القوانين

وكانت الحكومة فى ذلك الوقت واقعة تحت النفوذ الانجليزى ، لاتبرم أمراً حتى تستشير فيه ، وكان العميد البريطانى يجول فى البلاد ، مرة متودداً إلى الشعب ينظر فى ظلاماته وشكاواه حتى يظن الناس الخير على يدى حكومته ، والعدل والانصاف من شيمة أهله . ومرة متوعداً من يخالف أوامره ، ويخرج عن طاعته ، وينفذ غير مايريده أوتريده بلاده .

وكان مجلس شورى القوانين يجتمع وكأنه لايجتمع ، فقد كان أعضاؤه بين عاملين : عامل الرغبة فى خدمة الوطن خدمة صادقة ، وبذل كل ما يستطيعون بذله من جهود لتخفيف تلك الاعباء الثقيلة التى فرضها الاستعمار ، وعامل سوء النية الذى كان متوفرا فى رجال الحكومة . أولئك الذين لم يكونوا ليحفلوا برأى أولئك الاعضاء .

وفى ١٨ صفر من عام ١٣١٧ هـ — ٢٥ يونيو من عام ١٨٩٩ م [١] ، وفى الوقت الذى كان المجلس يجتمع فيه ثم ينفض على غير النظام الذى وضع له ، وفى الوقت الذى لم يكن يستطيع فيه المجلس تأدية الرسالة التى حملتها له الأمة ، صدر الأمر العالى بتعيين الأستاذ الامام عضوا فيه بدلا من إدريس بك راغب [٢] المستقيل .

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٧١٩ .

٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن القسم الاول من الجزء الثانى صفحة ٢٨٠ .

ومن طريف ماحدث أن « عمر باشا لطفى » كان رئيساً للمجلس ، وكان الإمام غاضباً عليه ، وكان يكرهه أشد الكره لاعتقاده فى خيانته ، وكان لشدة كرهه له لايطيق مقابلته أو النظر إليه ، فلما صدر أمر تعيين الإمام وقع فى حيرة شديدة وقال للسيد رشيد : « إنه ليشق على أن أحضر جلسات هذه الجمعية تحت رئاسة هذا الخائن لوطنه الجانى عليه ، وأنا لا أستطيع أن أراه فكيف أعمل فى مجلس هو رئيس له » [1] . وتوجه إلى الله أن يجعل له مخرجا من هذه الحيرة أو المشكلة ، ولم يلبث أن مات عمر باشا فجأة فى ٩ ربيع الأول — ١٧ يوليو من نفس العام .

ولو كان الأستاذ الإمام ممن يتظاهرون بالتقوى والصلاح ، أو التقرب إلى قلوب العوام عن طريق البدع والخرافات التى تتسلط على العقول لادعى لنفسه الولاية والورع ، ولرضى أن يذيع عنه أصحابه ومريدوه مثل هذه الحادثة ليتوافد عليه العوام والخواص ممن ضعف إيمانهم ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك لأن المسألة كانت فى نظره وفى نظر من يعرفون قدره لاتخرج عن توفيق من توفيقات الأقدار لايمكن أن يستغلها الامام لاهو ولا أتباعه الذين يحاربون البدع والخرافات .

عين الامام عضوا فى المجلس وحاله على ماوصفناه من فوضى وفساد ، ولكنه لم يلبث بشخصيته القوية ، وسمو إدراكه ، وعلو همته ، وواسع

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٧١٩ .

اطلاعه أن يوجد روحا جديدة من النشاط والصبر والاحتمال ، وأن ينتقل به من حال إلى حال .

وكان أول مافعله الامام سعيه لازالة سوء التفاهم الموجود بين المجلس والحكومة ، وبدأت الحكومة بجهوده وآرائه تحل رأى المجلس محل الاعتبار وقد شجع ذلك على مواصلة العمل ، وعلى تقوية رجاء الأعضاء . وكان من آثار هذه الروح الجديدة أن انتظم عقد الجلسات ، وعظمت ثقة الأمة فى المجلس ، ولا عجب فقد كان الامام رئيسا لأكثر اللجان الهامة ، وكل لجنة شكلت للتفاهم مع الحكومة على أمر من الأمور .

يقول السيد رشيد رضا : « وكان أكثر ماترسله الحكومة إلى المجلس لينظر فيه يؤلف له لجنة تحت رياسة الفقيد ، لتدقق النظر فيه وتعرض رأيها على المجلس ، وكان له رحمه الله الرأى العالى والصوت المسموع فى كل مسألة وكل مشروع ، فكنت تراه فى المسائل المالية حاسبا اقتصاديا ، وفى المسائل الادارية إدارياً ماهرا ، وفى اللوائح والقوانين قانونيا خبيراً ، وفى الأمور الشرعية إماما فقيها ، وكان المجلس يعهد إليه مذاكرة الحكومة فى الشؤون العظيمة ليكون الحد الأوسط فى شكل القياس فتخرج به النتيجة صحيحة فى خدمة البلاد »[1] .

وكان الامام شديد العناية بأعمال المجلس ، شديد الاهتمام بها ، وكانت غايته من هذه الجهود المضنية غايته من التوفر على كل عمل يناط به .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٧٢٢ .

وكان غرضه الأول والاخير فى هذا العمل بالذات تعويد الاعضاء القيام بالاعمال النيابية خير قيام . يقول الامام لمن كانوا يحاولون إقناعه بالتخفيف من أعباء الاعمال ، وإنفاق بعض جهوده فى عمل آخر كتأليف كتب فى الدين تنتفع بها الامة : « إن الغرض الاول من العمل فى المجلس هو التعاون مع الاعضاء على الجد والاهتمام بالبحث فى الامور العامة ومصالح البلاد ، وتربية الرأى العام فى الامة ليكون ذلك إعدادا لنفوس طائفة منا للفصل فى الاحكام بالشورى (أى الحكومة النيابية التى بث فكرتها أستاذه الافغانى) ، فإذا ارتفعت هـــذه الملكة فى الهيأة الحاضرة للمجلس فإنها تنتقل منها إلى الهيأة التى تخلفها ، ويكون ذلك جرثومة من جراثيم الاصلاح فى البلاد » [1] .

وكان الامام فى أخلاقه ، وفى معاملته لزملائه من أعضاء المجلس مثال الشجاعة والوفاء والاخلاص والصبر . يقول صديقه « حسن باشا عبدالرازق » فى حفلة تأبينه التى أقيمت يوم الاربعين : « كان الاستاذ الامام رحمه الله واسطة العقد فى مجلس الشورى فالتفت حوله القلوب ، وعرف الكل مكانته من قوة الحجة وسداد الرأى وطهارة النية ، وكان إخوانه من رجال الشورى يلجأون إليه إذا اشتبه الامر وخفى الصواب ، فينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، وكان مع هذا أسرع الناس قبولا إلى

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٧٤٢ .

الحق ، وأوسعهم له صدرا ، فإذا سقت إليه الحق هشت له نفسه ، وقرت به عينه ، ولم يصرفه عنه تمسك برأى ولا تعصب لمشرب » [١] .

ومن سوء حظ مصر أن مدة عضويته لم تطل فقد توفاه الله بعد سنوات خمس من تعيينه عادت بعدها كل المصالح التى خدمها إلى ما كانت عليه من الفوضى والارتباك ، وليس أدل على ذلك من إلغاء المجلس نفسه فى يوليو من عام ١٩١٣ [٢] بعد ما صار إليه من ضعف شجع المصريين على الحملة ضده .

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثالث .

٢ ـ تاريخ العصر الحديث الاستاذ عباس الخرادلى صفحة ٢٦١ .

عمله فى الجمعية الخيرية الإسلامية

وحدث حوالى عام ١٣١٠ هـ — ١٨٩٢ م أن مشعوذاً روسياقدم إلى القاهرةوقام بألعاب غريبة تهافت الناس على رؤيتها تهافتاً عاد على صاحبها بكثير من الربح ، وكان من عادة هذا الرجل أن يخصص دخل آخر ليلة له فى أى بلد من البلادللجمعيات الخيرية ، ولما لم يكن فى مصر جمعية خيرية فقدسلم الرجل دخل آخر ليلةله فى القاهرة لسعادةالمحافظ وكان يومها ابراهيم رشدى باشا ، . ورغب المحافظ فى أن يستشير رجال الوجاهة والنفوذ قبل التصرف فى هذا المبلغ ، وانتهت استشاراته إلى أنه من العار على بلد إسلامى يدعو دينه إلى البر والتعاون والإحسان ومديد المساعدة للمحتاج والمسكين أن يخلو من جمعيات أوجمعية تدعو إلى هذا كله [1] .

وكان هذا الحادث وماشاهده الإمام فى ربوع أوربا ، وما لمسه أثناء زياراته لتلك البلاد من أداء الخدمة العامة ، وماشاهده من اهتمام الناس بالتعاون على فعل الخير . كان هذا كله سببا فى التفكير جديافى إنشاء جمعية تقوم على تربية أولاد الفقراء من المسلمين ، وإعانة العاجزين منهم عن الكسب . وكان الأستاذ الامام صاحب الفكرة والرأى يسعى وزملاؤه حسن باشا عاصم ، وسعد زغلول باشا ، وأحمد حشمت باشا وغيرهم لنشر

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٧٢٦ و ٧٢٧ .

فكرة التعاون على الخير والدعوة إلى الجمعية .

وأنشئت الجمعية فى نفس العام (١٨٩٢) . وبدأت تشق طريقها فى تؤدة وحذر ، ولكنها لم تسلم مع ذلك من محاربة أعداء الخير والاصلاح ، والناقين على رجالها المفكرين . وكان الأستاذ الامام يبذل فى دحض حجج الكائدين ، وافتراءات المفترين ، وأكاذيب الواشين ما يعجز عن بذله كثيرون . يقول السيد رشيد :

« أنشئت الجمعية للتعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين ، وإعانة العاجزين منهم عن الكسب على شقاء الحياة ، فاتهمها أعداء البشر بالسياسة ، وسعوا بها إلى ذوى النفوذ والسلطة ، ولولا سعيه فى الدفاع عنها وإقناع أهل الحل والعقد بأنها خيرية محضة ليس من موضوعها ولا مما تقصد إليه شىء سياسى أوسرى لعفت رسومها ، ثم إنه خدمها بنفسه وبالتعاون مع أصدقائه المؤسسين لها معه كوكيلها وأعضاء إدارتها لهذا العهد خدمة جليلة حتى ارتفعت عن طور الطفولة ، وصار ثباتها مضمونا بحول الله وقوته »[١] .

وكان الغرض الأول من إنشاء هذه الجمعية ، أو الغرض المقصود لذاته هو تعويد المسلمين الاجتماع للخير والتعاون على البر والخدمة العامة ، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان بالفقراء . قال الإمام فى خطاب له قصد به بيان الأغراض التعليمية التى تتوخاها مدارس الجمعية :

---

١ ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٧٢٦ و٧٢٧ .

«وأهم ماتقصده الجمعيـــة من التربية فى مدارسها تنشئة المتعلمين على الفضائل كالصدق والأمانة اللذين عليهما مدار السعادة . مانجحت أمة إلا بهما ، ولا هلكت إلا بفقدهما ، وقد حث الإسلام وجميع الأديان على هذين الخلقين ، ونهى عن الكذب والخيانة أشد النهى ، وإننا مع ذلك نرى الكذب والخيانة فاشيين فى الناس إلى حد سلبت معه ثقة الناس بعضهم ببعض ، وفقد الثقة مؤذن بالخراب والدمار . هذا التعليم سلم يرتقى عنه الغنى إلى التعليم العالى ، ويجعـــل الفقير على مقربة من الغنى فى الفكر والخلق ، فإما أن يجد فيلحقه ، وإما أن يحسن الاستفادة منه بخدمته ومساعدته فى أعماله بالصدق والأمانة ، فهذا التعليم لايستغنى عنه أحد حتى الحمّار والجمّال» [1] .

وفى عام ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م [2] انتخب الإمام رئيسا للجمعية فدعاه ذلك إلى مواصلة السهر على مافيه خيرها وصلاحها ، وزيادة العناية بأمرها والتوفر على شئونها . وكان من أهم المسائل التى أخذها الإمام على عاتقه السعى لإقناع العظماء وأصحاب الوجاهة بمساعدة الجمعية ، ثم الدفاع عنها وبث روح الدين والتربية الاسلامية فى مدارسها .

وظل الامام رئيسا للجمعية يبذل لها من صحته ووقته وماله مايوسع نطاق عملها حتى نودى إلى ربه فلبى النداء .

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٧٤٣ .
٢ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٨٠ .

عمله فى جمعية إحياء الكتب العربية

كان الأستاذ الامام يجهر بالدعوة كما يقول هو نفسه إلى « إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى ، أو فى المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب : الأول ما كان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم لا فى صورته ولا فى مادته ، ولا يزال شىء من بقاياه إلى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم ، غير أنه والحمد لله قليل ، والنوع الثانى ما كان يستعمله الأدباء المتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتراعى فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئاً فى الذوق ، بعيداً عن الفهم ، ثقيلا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية . وهو وإن كان يمكن رده إلى أصول اللغة العربية فى صورته لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها ، ولا يزال هذا النوع موجوداً فى عبارات المشايخ خاصة . ثم ورد علينا فى أخريات الأيام ضرب آخر من التعمير كان غريبا فى بابه وهو ما جاءنا من الأقطار السورية فى جريدتى الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس

البستانى ، وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب وبه أنشئت جريدة الأهرام فى مصر وقد محى أثره والحمد لله ، [١] .

أمام هذا الضعف الطارئ على أساليب اللغة العربية لم يجد الإمام بدا ـ وقد توفر على النهوض بالأمة فى كل مرافق الحياة ـ من الدعوة إلى إصلاح هذه الأساليب ، وبقيت هذه الرغبة قوية نزاعة إلى عمل جدى يعود على اللغة بالخير المرجو .

وقد بذل الامام فى هذا السبيل أيام كان محرراً أول بالوقائع المصرية ثم أيام اتصاله بالأزهر ما أشعر الناس بصدق رغبته فى إعادة اللغة إلى المستوى الذى كانت عليه وهى فى أوج المجد .

يقول الدكتور آدمس : « ولم يكن هذا تطرفا منه فى الحماس للعلم ، بل كان يرى أن اللغة العربية هى أساس الدين ، وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال » [٢] .

ويقول الامام فى خطبة ألقاها فى تونس : « إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لاصلاح عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذى صدهم عن فهم ما جاء فى كتب دينهم ، وأقوال أسلافهم ، ففى اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم ، وكنوز الأدب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل

---

١ ـ بقلم الاستاذ الامام وهى جزء من التاريخ الذى كتبه بنفسه للسيد رشيد رضا ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١١ و ١٢ .

٢ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٨٠

ملكة اللسان »[١] .

وفى عام ١٩٠٠ م أتيحت له الفرصة بإنشاء جمعية « إحياء العلوم المصرية » تحت رئاسته ، وقد رأى رحمه الله أن لا فائدة من إحياء أمثال الكتب المتداولة ، وإنما الذى يفيد حقا ، ويعود على اللغة بالخير إنما هو إحياء الكتب القديمة التى توفر على إنشائها كبار الأئمة والعلماء أيام ازدهار اللغة ، وقد طبع فى ذلك الوقت « روح البلاغة » و « أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز » للشيخ عبدالقادر الجرجانى ، ثم كتاب « المخصص » لابن سيده فى سبعة عشر جزءا ، وقد ساعد على تصحيحه الشيخ محمد الشنقيطى وشرع فى طبع كتاب « الموطأ » للإمام مالك بعد الحصول على النسخ الخطية من تونس وفارس وغيرها .

* * *

الآن وقد انتهينا من سرد جهود الامام العملية وكشفنا القناع عن مقدار الدور الذى لعبه فى إصلاح نواحى الحياة فى مصر يحلو لنا أن نعيد النظر فى تلك الجهود . لقد كانت صفحة ناصعة من صفحات الامام سجلها له التاريخ بمداد من الذهب لتكون هدى لأبناء الأجيال القادمة ، يطالعونها فيطالعون فيها كيف يتغلب حب الوطن على حب النفس حتى ينسيها كل شىء إلا العمل على رفعة هذا الوطن ، ورقيه وفلاحه

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٨٠ .

وحتى ينسيها الآلام فلا تحس صعاب الطريق ، ولا تهولها وشاية الواشين ، ولا تنال منها مكائد الحاسدين والناقمين ، وإنما يدفعها ذلك كله إلى مواصلة الجهاد والثبات على الرأى ومضاعفة الجهود .

وإنى لأسائل نفسى الآن هل وجد فى مصر زعيم جمع كل الصفات التى جمعها محمد عبده وتناول فى إصلاحه شتى النواحى كما تناول ذلك المصلح الكبير . لقد برهنت أعماله على أنه كان الزعيم العلم ، والرجل الفرد ، والمصلح الذى لا يعوض .

الحلقة المفقودة

عندما استعرضنا أعمال الإمام وإصلاحاته العملية ظهر لنا أنه كان فى كثير من مشاريعه عرضة لعوامل مختلفة تحاول إحباط تلك المشاريع، والحيلولة بينه وبين مايبتغيه من اصلاح، ولما كانت أهم عقبة وقفت فى طريقه هى مناوأة الخديو عباس له وجب علينا أن نبحث العلاقة بين الرجلين لنكشف الستار عن جزء من تاريخ الأستاذ الإمام..

كان توفيق باشا طيب القلب، محبا للهدوء والسكينة، وكان إلى جانب هذا ضعيفامترددا نخضع للإنجليز كل الخضوع، واستسلم لسلطتهم كل الاستسلام، ولم يعارض فى عمل يعملونه أو أمر يأتونه، ذلك لأنه ظن أن لهم فضلا عليه، وإليهم يرجع تثبيت دعائم عرشه، وبقاؤه له ولذريته من بعده، وكان عليه ـ وقد اعتقد فى هذا ـ أن يحفظ جميلهم ويعمل بمشورتهم.

ولما توفى توفيق باشا وخلفه ابنه الشاب «عباس حلمى الثانى» فى ٨ يناير من عام ١٨٩٢ م، لم ير ما رآه والده من قبل. وكان عباس حين بلغه نبأ وفاة والده يتلقى العلم فى أوربا حيث مبادئ الحرية التى أشرب بها قلبه، وكان عباس شابا يمتلىء صدره بالحمية والنشاط، وثابا يرنو إلى السلطة والحكم، متألما من ضعف الجانب المصرى إلى حد جعل لانجلترا الكلمة العليا فى البلاد، راغبا فى أن يسعى جهده ليعيد لها حرياتها المفقودة.

ولم يكن عباس وهو آت على الحال التى وصفناها يشعر نحو الانجليز بشىء مما شعر به والده ، ولكنه « شعر بأن له حقوقاً ، ولمصر حقوقاً ، وبأن هذه وتلك من الحقوق يجب أن تصان . وقد قابلت البلاد أميرها الشاب بما زاد فى شعوره بهذا العبء ، وبما جعله ـ وهو فى فتوة الشباب ، وهو آت من بلاد حرة هى النمسا كانت تود لو لم تقع الحوادث التى أدت إلى احتلال انجلترا مصر ـ يسير فى سياسته على أساس ماله ولمصر من حقوق يجب أن لا يسلم فيها لانجلترا مادام يستطيع الدفاع عنها »[1] .

وكان هذا الشباب ، وهذه القوة والفتوة ، وهذا الإخلاص لمصر ، وهذا التنكر للدولة المحتلة من الأسباب التى حببته إلى المصلحين الذين وجدوا فيه مشجعا لهم وحافزا لجهودهم . . وكان محمد عبده فى هذه الفترة من التاريخ الرجل الفرد الذى توجهت إليه القلوب والأبصار ، وعلى جهوده علقت الآمال . .

وترقب الناس ماسوف تتكشف عنه الأيام ، وما سيقوم به كل من الرجلين ، حاكم البلاد الذى يسعى لخدمتها ونفعها عن طريق السياسة ، والمصلح الكبير الذى يجاهد عن طريق التربية والتعليم والإصلاح الاجتماعى والادارى . . ولم يطل انتظار الناس فقد أسرع محمد عبده لعباس يخطب

---

١ ـ لمعالى الدكتور هيكل باشا ـ مقدمة القسم الأول من الجزء الثانى من « مذاكرتى فى نصف قرن » للمرحوم أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى سابقا .

وده، ويطلب الحظوة عنده، ويسعى للتقرب منه، وأن يكون موضع ثقته، ولم يخيب عباس آمال محمد عبده فقد احتضنه وشجعه فى مشاريعه..

يقول المرحوم أحمد شفيق باشا: «ترجع حركة الاصلاح الحديثة فى الأزهر إلى أواخر سنة ١٨٩٤، وذلك أن الشيخ محمد عبده لما رأى من عباس جرأته وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الانجليز مال إليه، وتقرب منه بواسطة «محمد ماهر باشا» فاستقبله عباس بترحاب وعطف، ومال إليه أيضا لما آنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى، وتقابلا مرارا بصفة غير رسمية فى عابدين والقبة والمنتزه، وتحدثا فيما يمكن عمله لخدمة الوطن وتحقيق أمانيه» (١).

ومضى محمد عبده فى خطواته الموفقة فى إصلاح الأزهر، وإعلاء شأن الافتاء، وتثبيت دعائم الجمعية الخيرية الإسلامية، ثم ماتفرع من هذه النواحى كلها حتى «حوم حوله — أى حول الخديو الشاب — أولو التملق والنفاق من رواد المنافع الشخصية الذين يتزلفون إلى الملوك والأمراء، بما يلذ لهم من الاطراء والتذلل والاستخذاء، فصادفوا منه أذنا صاغية، ونفسا واعية، فكانوا كلما قربوا منه، يجتهدون فى إبعاد أولئك المخلصين عنه، وفاقا لسنة الله فى تنافى الاضداد» (٢).

وقد آلم أولئك المتزلفين المتملقين أن ينافسهم غيرهم فى مكانتهم عند

---

١ - مذكراتى فى نصف قرن - القسم الأول من الجزء الثانى صفحة ١٨٥.

٢ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٥٦٩.

الخديو ، ويقاسمهم غيرهم عطفه وتشجيعه ، وآلمهم أكثر من هذا وذاك أن يكون المنافس والغريم رجلا عالما يتقرب بأخلاقه وفضائله ، ويتقرب بآرائه ونصائحه ، ثم يتقرب بعد هذا كله بعلمه وعمله ولا شيء لأولئك المتملقين من كل هذا اللهم إلا ملابس تخفى ماوراءها من قذارة وحقارة .

ومن الغريب أن يشجع سعى أولئك الوشاة بعض ذوى المكانة والرأى ، ولاشك فى أن الذى دفعهم إلى هذا التشجيع حسد دب فى قلوبهم ، وغيرة اشتعلت نيرانها فى صدورهم ، ورغبة فى أن تكون لهم الحظوة كلها ، وأن يكون الرأى رأيهم ، والشورى شوراهم .

يقول صاحب الحوليات : [1] « كانت العلاقات بين الخديو والشيخ محمد عبده إلى ذلك الحين — أى سنة ١٩٠٢ — على أحسن حال ، ولكن حدث فى يوم ٨ نوفبر أن قابل مصطفى بك كامل [2] والشيخ على يوسف سمو الخديو ومكثا عنده مدة كبيرة ، وبعد ذلك بأيام بلغنى أن الخديو ينقم على الشيخ محمد عبده بسبب ماقدماه فى حقه من الوشايات » [3] .

ويقول السيد رشيد رضا عن نوع آخر من المتملقين الوشاة : « كان

---

١ ـ صاحب الحوليات هو المرحوم الحاج أحمد شفيق باشا .

٢ ـ يقول السيد رشيد رضا فى كتابه عن الامام صفحة ٥٩٣ أن محمد عبده لم يكن يقيم لمصطفى كامل باشا وزنا لاثرته واعجابه وكونه مسخرا للخديو بالمال . وكان يقول فى وصف مقالاته أنها مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف ، وقد حاول مصطفى كامل أن يكون من مريدى الامام ولكنه لم يفز ببغيته لعدم المشاكلة بين الرجلين .

٣ ـ مذكراتى فى نصف قرن ـ القسم الاول ـ من الجزء الثانى صفحة ٤١٣ .

من أولئك المتزلفين بعض شيوخ الأزهر الذين اتصلوا بالخديو الشاب فاغتر بشهرتهم وسمعتهم وشكلهم، وخضوعهم وخشوعهم وخنوعهم، فشككوه أولا فيما كان أقنعه به الشيخ محمد عبده من فساد التعليم فى الأزهر، وفساد الأخلاق فى رجال العلم والدين، والحاجة إلى تجديد التربية والتعليم فيه، شككوه حتى شك أوكاد» [1].

وكان لابد لوشاية الواشين أن تتخذ طريقها إلى قلب الخديو لا لأنه كان يشك فى نيات محمد عبده وإخلاصه وجهاده، ولكن لأنها كثرت وتعددت نواحيها، وكان لابد لهذه الكثرة وهذا التعدد أن يتركا أثراً تزيده الأيام والحوادث. ووجد الشك فى قلب الخديو. وبدأ هذا الشك يجسم له الحوادث، ويفسرها له تفسيرات كثيرة ويؤولها تأويلات مختلفة.

أما الحادثة الأولى التى بدأت تغير قلب الخديو، وتعمل عملها إلى جانب وشاية الواشين، وسعى الناقين لحادثة كسوة التشريف، فقد «انحلت كسوة من الدرجة الاولى من كسى التشريف بموت أحد كبار العلماء، فأرسل الخديو إلى شيخ الأزهر من يبلغه أمر سموه الشفوى بتوجيه هذه الكسوة إلى الشيخ «محمد راشد» الإمام الخاص لسموه فلم ينفذ فاستاء أشد الاستياء فلما اجتمع عنـــده علماء الأزهر فى مقابلة التشريفات الشهرية قال سموه لشيخ الأزهر بصوت الاستياء واستفهام الإنكار : ألم آمرك بتوجيه

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٥٧٠ .

كسوة فلان إلى فلان ؟ فتلعثم الشيخ فى الاعتذار ، فقال الشيخ محمد عبده بصوت جهورى جرىء : إن الذى قرره مجلس إدارة الأزهر هو التنفيذ لأمر أفندينا ، لأنه مقتضى ما نص عليه القانون المتوج باسم سموه . وأما الأوامر الشفوية فلا نعرفها ، فإذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريف العلمية بمقتضى إرادته الشخصية فليصدر بذلك قانونا آخر يفسخ هذا القانون أومادة قانونية نصها : كساوى التشريف للعلماء توجه بأمرنا » [1] .

وأما الحادثة الثانية فهى الخاصة بأرض أوقاف الجيزة وسببها « أن بيت زرفودا كى فى الإسكندرية اشترى من الحكومة حديقة وسراى الجيزة وجزءا من الأرض الزارعية التى أمامها على النيل ، ثم اتفق أن يستبدل أرض الوقف الواقعة بجوار الكوبرى الأعمى ، بتفتيش الخديو بمشتهر ، وكان الخديو يرغب فى هذه الصفقة من ناحيتين : الأولى بيع تفتيش مشتهر ، والثانيـة الاشتراك مع زرفودا كى فى الأراضى التى تشترى من الوقف ، فطرحت المسألة على مجلس الأوقاف الأعلى وكان حسن باشا عاصم عضوا فيه بصفته رئيسا للديوان الخديوى ، وكان بيت زرفودا كى يقدر أرض الوقف بمبلغ مائة وثلاثين ألف جنيه وتفتيش مشتهر بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه ، ولكن حسن باشا عاصم والشيخ المفتى طلبا العكس فى تقدير ثمن الوقف والتفتيش وقال المفتى « إن الأنفع للوقف فى مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن لا بالغلة السنوية فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٥٧٣ .

برئاسة باشمهندس الاوقاف لتقدير ثمنها وثمن أرض مشتهر ، وقرر المجلس الاعلى أن يدفع زرفودا كى مبلغ ٢٠ ألف جنيه زيادة حتى يكون ثمن التفتيش مائة وثلاثين ألف جنيه فقط »[١] .

ولما كان الخديو يرغب فى التخلى عن أرض مشتهر وإنجاز الصفقة على وجهها الأول ، فقد اشتدت حفيظة سموه على الإمام وعلى رئيس ديوانه .

وفى هذه الاثناء ذاع فى البلاد كلها خبر قضية الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد . وكانت القضية خاصة بزواجه من السيدة « صفية السادات » كريمة السيد عبدالخالق السادات . وكان عقد الزواج قد كتب فى دار السيد محمد توفيق البكرى ولم يكن والدالعروس يعلم بشىء من هذا ، فلما علمه أحفظه هذا العمل وأغاظه ، ووجد فيه منكرا لايرضاه لنفسه ولا لكرامته ، ودفعته المرارة وحفزة الألم إلى أن يرفع دعوى بالتفرقة بين كريمته والشيخ على يوسف بحجة عدم أهليته . وقد اتخذت الصحف من هذه القضية وسيلة للطعن فى صاحب المؤيد ، والتشهير به .

ولما كان سمو الخديو يشجع الشيخ على يوسف ويوافقه على عمله ويعتبره من أتباعه المقربين إليه . ولما كان الاستاذ الإمام يعارض فى هذا الزواج فقد اعتبره سمو الخديو خصما له ، عدوا لأصدقائه وأتباعه .

---

١ - مذكراتى فى نصف قرن القسم الثانى من الجزء الثانى صفحة ٤٥ و٤٦ .

ولم تكن هذه الحوادث وغيرها تمر دون أن تترك فى الجو غبارا يحجب عن عينى الخديو نور الحقيقة . الحقيقة التى اختفت وراء مظاهر أخرى لم تكن من قبل موضع تفكير أو اهتمام . من هذه المظاهر ما كان يراه سمو الخديو من عزة نفس الإمام وشممه وإبائه ، وكانت من قبل صفات تعلى من قدر الإمام فى نظره ، فلما غضب عليه ، وتنكر له ، وبدأ يسىء الظن به ، رأى فى هذه العزة وهذا الشمم والإباء عجرفة لا تليق فى مقامه ، وكبرياء لا يصح لتابع أن يظهرها أمام سيد البلاد ، وكان يقول فى ذلك : « إنه - أىّ الإمام - يدخل علىّ كأنه فرعون ، ويقول الإمام عند ما يبلغه ذلك : الله يجزيه ، أهو فرعون أم أنا ؟ إننى لست إلا رجلا من رعيته » (١) .

وقد استغل الوشاة هذه الفرصة للإساءة إلى الإمام بما لم يكن هو نفسه يفكر فى أنهم يتمكنون من الخوض فيه والتعرض له ، ولكنها الغيرة أعمت قلوبهم فأباحت لهم التحدث عن كل شىء ، حتى اتهامه بأنه غير مخلص لسموه ولا راض عن إمارته ، بل يكره آل « محمد على » ويؤلف عصبة لنزع الإمارة منهم وجعلها جمهورية . ويعلم الله أن محمد عبده لم يكن يرضى حتى بما يحط من قدر عباس أو يسىء إلى شخصه أو ينال منه . قال للسيد رشيد رضا بمناسبة حادثة من الحوادث الخاذلة . إنه يظن أننى أسر

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٥٧٣ .

لخذلانه وكيف ذلك وهو رأس لنا ؟ ولا يمكن أن يهبط الرأس ويكون مادونه من الأعضاء عاليا رفيعا ، فأنا أشعر بأنه كلما سقط يسقطنا معه ولاسيما سقوطه تحت الانجليز »[1] .

وبدأ الخديو بعد الأزمة التى حدثت على أثر إقالة وزارة مصطفى فهمى باشا ، ثم الأزمة التى أعقبت زيارة سموه للحدود . بدأ الخديو منذ ذلك الوقت يصانع الإنجليز فى الظاهر ، ويرضخ لآرائهم ، ويلين جانبه فى كثير من الأمور خوفا من تكرار تلك الأزمات التى كانت تسىء إليه ، ولكنه كان على الرغم من هذا الرضوخ الظاهر حاقداً على اللورد كرومر ، مستمرا فى السعاية الخفية ضده ، ولما كان كرومر يحمل للامام قسطا كبيرا من المودة والتقدير ، ويقابل الامام ذلك بصداقته ووده ، فقد صور المفسدون للخديو هذه العلاقة بأنها تأييد للاحتلال البريطانى على البلاد أو على شخص سموه على الأقل[2] .

ويعلم الله أن الامام لم يكن يتقرب من كرومر ويصادقه إلا لمصلحة مصر وفائدة البلاد .

ولم تكن العلاقة بين محمد عبده وكرومر إلا علاقة رجلين يقدر أحدهما الآخر ويكنّ له من الإجلال والاحترام مايراه أهلا له ، يقول رشيد رضا : « كان اللورد يجله - أى الامام - ويقدره قدره ، ويستشيره

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٥٧٤ .

٢ - نفس المصدر الاول صفحة ٥٧٥ .

فى بعض المسائل الحكومية المهمة، ويتحاشى أن يهيج ووجدانه ووجدان حزبه الراقى على الانجليز، وكان الأستاذ يداريهم لعلمه أنه لايستطيع البقاء فى مصر بدون ذلك » (١).

وهنا يجب أن نبين أنه على الرغم من صداقته لذلك العميد المتغطرس العنيد لم يكن يستغل مكانته عنده ضد معارض له، أوحاقد عليه، ولكنه كان على العكس من ذلك يستغلها فى وقف تنفيذ كل عمل يرى فيه إهداراً لكرامة البلاد، والحيلولة دون كل فكرة ترمى إلى الانتقاص من شأنها، بل ومنع كل مامن شأنه أن يمس استقلالها ويعتبر تدخلا فيما يجب أن يكون الرأى فيه للمصريين وللمصريين وحدهم.

ولو كان الأستاذ الإمام يصادق كرومر ويصافيه لينتصر به على الخديو لأعانه فى مواقفه، وشجعه فى آرائه، ولكننا نراه على الرغم من هذه المصادقة ينحاز إلى جانب الخديو بل ينصره على العميد البريطانى، ويبدى له من الرأى الصائب مايكون فيه حل المشاكل وفض الخلاف. وليس أدل على ذلك من حادثتى قاضى مصر (٢) وليون فهمى (٣).

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٥٧٥.

٢ - أشار كرومر بتعيين قاضى القضاة (رئيس المحكمة العليا الشرعية) من المصريين، ولما كان هذا العمل يعتبر قطعا لأقوى صلة تربط مصر بالدولة العثمانية، وكان الخديو لايرغب فيه فقد هاله الأمر، واشتد به الضيق، ولم يجد غير وسيلة واحدة تنقذه من مأزقه هى استشارة الشيخ محمد عبده الذى أشار عليه باخطار العميد البريطانى إذا جاء يطلب تنفيذ رغبته بأن وجدانه الدينى لايسمح له بذلك لانه من حق السلطان بماله من صفة الخلافة. وقبل اللورد كرومر هذا العذر عندما أخبر به لأن تربيته السكسونية توجب عليه احترام الوجدان، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

٣ - رجل من دهاة الأرمن استخدمه الخديو فى بعض شئونه الخاصة، وكان يستغل قربه من

ولم يكن من السهل الهين على رجل من الحاشية مهما علا مركزه أن ينصف الإمام فى حضرة الخديو ، أويذكر له حقيقة هذا الرجل ونواياه. وكان لهذا الضعف أثره السيء على البلاد ، فقد ظلت الحلقة مفقودة بين الرجلين . واستمر الخديو فى عناده وشكوكه . تلك الشكوك التى أوحت إليه بالانتقام من الامام ومناهضة كل عمل له .

ولجأ الخديو للانتقام من الامام إلى وسائل كثيرة منها العمل على إخراج حسن باشا عاصم ، من رئاسة ديوان الخديو ، وكان عاصم باشا من أعز أصدقاء الامام وأخلص مريديه ، ومنها سعيه لدى الانجليز وإيهامهم بأن محمد عبده يعارض فى اتفاقه معهم ويثير ضده الشعب ، أوبمعنى آخر يثير الشعب ضد هذه السياسة الجديدة . سياسة التقرب والمسالمة . ومنها إيعازه إلى المعارضين من رجال الأزهر والعلماء بنقد طريقة الاصلاح الجديدة التى يسير عليها محمد عبده ويحاول بها فتنة الناس عن دينهم . ومنها اظهاره بمظهر الرجل الذى لايحافظ على دينه وكرامته . ومنها محاولة إفهام الشعب أن

الخديو فيسلب المال ، وحدث أن اختفى عن الأنظار فأراد العميد البريطانى تفتيش سراى المنتزة وبحث المحروسة بحجة أن ليون فهمى معتقل فى واحد منهما . ولما كان تنفيذ هذا الأمر يعتبر إهانة للخديو فقد طلب هذا من محمد عبده مقابلته بالاسكندرية لابداء رأيه فسافر إليه ليلا وفى الصباح نصح له باخراج ليون فهمي من معتقله إذا كان معتقلا حقا ، ثم كتابة بلاغ إلى معتمدى جميع الدول المعترفين باستقلال مصر تحت سيادة الدولة العثمانية يبلغهم فيه ماعتزمه الانجليز ، على أن يحمل الانجليز تبعة ماهم مقدمون عليه ويخطر العميد بذلك كله إذا فكر فى اجراء التفتيش .

ولما بلغ العميد ماعتزم الخديو القيام به اعتقد أنه لايقدم على عمل كهذا إلا وهو واثق من نفسه فامتنع عن التفتيش وانتهى الموضوع .

المفتى الأكبر يحاول منع المسلمين عن أداء فريضة الحج بحجة الخوف من الوباء. ومنها السعى لتعكير العلاقات بينه وبين جلالة السلطان عبد الحميد.

وانتهت هذه المساعى كلها باستقالة الأستاذ الإمام من عضوية مجلس إدارة الأزهر كما بينا من قبل، ولم يحاول الإنجليز منع الخديو من تضييق الخناق على محمد عبده فى هذه الناحية لأنهم كانوا فى الواقع يحاولون التدخل فى شئون الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية وهو ما كان الإمام يحاول صدهم عنه، ولكنهم مع هذا أبوا على الخديو أن يتدخل لإقصائه عن منصب الإفتاء بأى حال من الأحوال لأنهم كانوا مع هذا يقدرونه قدره، ويعرفون مكانته، ويخافون إن هم أقصوه من كل منصب له أن يثور عليهم هو وحزبه، وكلهم من المثقفين أصحاب الرأى الناضج والفكرة السديدة.

والذى يؤسف له أن الخديو ظل ناقما على الامام حتى وفاته، وقد عاتب المرحوم «أحمد شفيق باشا» لسيره فى جنازته كما يتضح من رسالته الآتيـــة : —

« كان الجناب العالى يظن أنكم تحافظون على تنفيذ رغباته السنية غاية المحافظة، وكان يعلم أنكم تقدرون أوامره العالية حق قدرها، وكان يعتقد أنكم لاتخطون خطوة إلا فى سبيل رضاه وبأمره الكريم، وكان يتيقن أنكم تكونون على من رغب عنه ومع من رغب فيه، ولكن قدر فكان.

« قلتم فى جوابكم الأخير إن المفتى مكث أربعة أيام كوامل من يوم

الجمعة ٧ الجارى (يوليو) إلى يوم الثلاثاء ١١ منه والروح تنازعه وهو ينازعها إلى أن غلبته فتركته، أى أنكم كنتم متوقعين له حصول الأمر آنا بعد آخر خلال هذه المدة، بل على مابلغنا أن أقاربه حتى الحكومة جهزت له مايلزم لتشييع جنازته قبل موته بيومين، وسعادتكم على ماأنتم عليه من معرفة الحقيقة والحالة، فلم لم تستفهموا بإشارة برقية عما يلزم وقت أن تبلغ الروح الحلقوم، هذا أمر واجب عليكم كان اللازم أن توجهوا فكركم إليه قبل كل شيء ولكنه ياللأسف فاتكم.

• علمتم بموته فكان من الضرورى أن تعلموا أيضا بأنه سترد إليكم تعليمات بخصوص ذلك الحادث، وما كنتم تبرحون السراى ولا إلى منزلكم حتى تأتى أوامر الخديو اللازم اتباعها.

أخبر الجناب العالى أطال الله بقاءه بإشارة برقية عن هـــذا الحادث، فما معنى ذلك؟ معناه أن ماالذى يعمل فى هذه الظروف، وتعتقدون أن الجناب العالى لابد وأن يصدر أوامره بمايعمل إزاء هذا الأمر، فإذا صدرت بعمل شيء فقوموا بتنفيذه، وإن وردت بدونه فاعلموا أن الأمر مهمل • الجنازة حارة والميت كلب؟» فلا تعملوا شيئا.

• يظهر والله أعلم، أنكم أردتم بالمسير وراء نعشه المجاملة بعدالموت وهو على ماتعهدونه عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو الأمير وعدو العلماء وعدو المسلمين وعدو أهله، بل وعدو نفسه، فلم هذه المجاملة؟

• صدرت لكم أوامر بمايعمل، فلم لم تبذلوا جهدكم فى تنفيذها ولم لم تسعوا

وراء سريان مفعولها حتى بذلك تكونون أديتم مافرضه عليكم الإخلاص ؟

« قلتم إن الأوامر وردت والجثة بين مصر والاسكندرية فلم يمكن تنفيذها بالثغر ولكنها نفذت بالقاهرة ، فأين ذلك التنفيذ وقد سار في الجنازة القاضي والشيخ حسونه وغيرهم .

« قلتم في جوابكم إنكم منعتم الشيخ علي يوسف من كثرة الاطناب والمدح . فما فائدة ذلك وأنتم أول من يعلم أن مثل ذلك ألفاظ سيالة تنقضي بمجرد النطق فلا أثر لها ، لكن تنفيذ الأوامر هو الذي يترتب عليه المقصود ، على أن المؤيد أفرغ جعبته في مدح الرجل فلم يبق شيئا مما منع عنه ، ولو فرضنا أن المؤيد لم يذكر شيئا للرجل ، فهناك جرائد أخرى لا يمكن منعها تقوم بالإطناب والمدح ، وقد قامت فعلا والأوامر العالية على خلاف ذلك . سعادة أحمد زكي باشا موجود عندكم فلم لم تستشيروه ؟ ألم تعلموا سبب امتناعه عن تشييع الجنازة ، ألم تعتقدوا ما كان عليه المفتي من العداء والمعاكسة للدين وأهله وأنصاره ؟ ولكنه أمر فات والرجل مات وغير ممكن رد ماقد فعل » [1] .

ولو أن الساعين إلى الخير استطاعوا أن يوفقوا بين الرجلين ، ويعيدوا إلى القلبين صفاءهما الأول لاستفادت البلاد من حاكم يرنو إلى الاستقلال والحرية ، ولكنه فقد البطانة الرشيدة ، والأصدقاء الأوفياء .. ومن مصلح يجاهد لإسعاد الوطن ورقيه ، ولكنه ابتلي بالناقمين عليه أصحاب المنافع

---

١ - مذكراتي في نصف قرن القسم الثاني من الجزء الثاني صفحة ٧١ ومابعدها .

والغايات الشخصية .

ومن الانصاف للحق والتاريخ أن نبين ماقد يغيب عن أفهام بعض الناس ، فإن سمو الخديو كان شابا جريئا كما بينا من قبل ، وكان صادقاً يحب الخير للبلاد ، ومثله لاتخفى عليه نوايا الناس وأعمالهم ، وما تنطوى عليه صدورهم ، ولذلك لم يشك فى إخلاص محمد عبده لمصر ، وفى حسن أعماله ، وكل ماهنالك أنه أصغى للوشاة فتأثر بأقوالهم ، وكان فيما جاهر به من عداء مندفعا بحماس الشباب ، فلما مات الامام تكشفت له نوايا أولئك الوشاة ، وبانت أعمالهم ، وظهرت مقاصدهم ، وقد تألمت نفسه لما شهده ولمسه ولما أظهرته الأيام ألما شديدا كشف عنه حديث له مع السيد رشيد رضا بعد غضب دام تسع سنوات [1] ، وهو يقول فى حديثه :

« تعال ياشيخ رشيد تعال . الله يرحم الذى كنت تعمل معه أينما ذهب ، إنه قد ثبت عندى أنك تعمل لخدمة الإسلام لالنفسك . وأنه ليس لك مصلحة شخصية ، إنك لم تطلب منى شيئا لنفسك قط ، وإنى قد جربت هؤلاء العلماء ١٨ سنة ، وكنت أحسن الظن بهم ولكنى لم أر أحدا منهم يهتم إلا بالجراية والجنيه وكسوة التشريف » [2] .

---

١ - كان الخديو غاضبا على السيد رشيد رضا تبعا لغضبه على الاستاذ الامام ، فقد كان السيد من أكبر مريديه وراوية أخباره وصاحب الجريدة التى تدافع عنه ، وتنتصر له ، وتنشر أبحاثه ومقالاته

٢ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٥٧١ .

وليس أجمل من أن تحقق الأيام صحة ما كان يذهب إليه الامام من أن الناس فى ذلك الوقت قد فسدوا فى كل ناحية فهم فى حاجة إلى إصلاح فى الدين ، وإصلاح فى الخلق ، وإصلاح فى التربية والتعليم ، وليس أجمل من أن تثبت الأيام أن أولئك الذين هاجوا الامام لم يكونوا ليلتفتوا لمصلحة الأمة المنكوبة والشعب البائس ، وإنما كان كل همهم منفعة عاجلة وغاية قريبة ، وفوائد لأشخاصهم تضيع بجانبها كل الفوائد . ويكفى قول الخديو : « ولكنى لم أر واحدا منهم يهتم إلا بالجراية والجنيه وكسوة التشريف » يكفى ذلك إنصافا للامام بعد وفاته .

٢٤/١/٥٠.

الفصل السادس

١ - الامام وجهوده العامة ٢ - أسفار الامام
٣ - الدفاع عن الاسلام

الإمام وجهوده العامة

يظن بعض الناس أن جهود الامام تنحصر فى دعوته الدينية وماألف لها من كتب ، ثم فى الدروس التى ألقاها فى الأزهر بعـــد تخرجه فيه ، أما ما كان له بعد ذلك من نشاط فهو نشاط الرجل الحكومى الذى يؤدى واجبه ، والذى لايريد أن يفرط فى هذا الواجب ، بل يرى أن من حق الأمة عليه الوفاء لعمله والاخلاص فى القيام به والاطلاع عليه . والواقع أن محمد عبده لم يكن هذا الرجل الحكومى ، ولم يكن يحب أن يكونه ، ولو أنه أراد لنفسه ذلك لقنع بوظيفة مستشار بمحكمة الاستئناف ، وأراح نفسه من جهد متواصل ، وعناء مستمر ، ووفر على نفسه سخط الجامدين ، وكره الحاقدين ، وغضب من لهم الأمر والسلطان .

وقد رأينا كيف كان الامام يخرج على تقليد الوظيفة فى كل منصب يسند إليــــه فيجاهد جهاد الرجل الحر ، ويكافح كفاح من لا يؤمن بغير المصلحة العامة التى هى فوق كل مصلحة . والذى يثبت مانذهب إليه الآن من أن الامام لم يكن بالرجل الذى يقنع بخدمة الأمة المصرية خاصة والاسلامية عامة عن طريق الوظيفة وحدها تلك الأعمال التى قام بها فى دائرة غير

تلك الدائرة الحكومية، والجهود التى بذلها فى محيط غير المحيط الإدارى .

من هذه الجهود ما بذله لإصلاح حال التربية والتعليم فى كثير من أقطار العالم الإسلامى . كتب فى ذلك لوائح ثلاثة لم يدفعه إليها غير المصلحة العامة وخير المجموع :

الأولى : تلك التى كتبها فى منفاه ببيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها إلى سماحة شيخ الاسلام بالآستانة وذلك فى ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ هـ، ومنها يعلم أنه لم يأل جهدا فى النصح للدولة، وأنها لو عملت بإرشاده وصدقت أمله ورجاءه الحسن فيها لأحيت الاسلام، وجددت مجده، وكانت بذلك ذات سيادة إسلامية حقيقية » [1] :

وأفرد الإمام جزءا كبيرا من هذه اللائحة لشئون المسلمين بين فيه الأسباب التى أضعفت شوكتهم، وأطمعت الدول فيهم . تلك الأسباب التى لم تخرج عما اعترى نفوسهم من ضعف الإيمان بالدين، وما تبع ذلك من انحرافهم عن طريقه وتنكرهم له . قال الامام :

« المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم، وأنحت الأيام على معاقد إيمانهم، ووهت عرى يقينهم، بما غشيهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم، وقد تبع الضعف فساد فى الأخلاق، وانتكاس فى الطبائع، وانحطاط فى

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى للسيد رشيد رضا صفحة ٥٠٥ .

الأنفس، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرتع، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ويتنافسون فى اللذات البهيمية، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته، أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم »(١).

ولكنه حين كشف عن الداء الذى ابتلى به المسلمون لم ينس أن يذكر علاج تلك الحال، فقد قسم الناس فى الدولة العثمانية إلى ثلاث طبقات لا من حيث الجاه والغنى، ولاما يشعر بالتفرقة بين هذا وذاك، ولكن من حيث طبيعة كل قسم واستعداده للعمل الذى يلائمه. وزاد على ذلك فوصف لكل قسم من هذه الأقسام — وهى طبقة العامة، وطبقة المرشحين للوظائف، وطبقة المعلمين والمرشدين — ما يناسبه من التعليم والتربية.

الثانية : تلك التى بعث بها إلى والى بيروت على أثر انتهائه من تقديم اللائحة السابقة، وبعد أن انتهى من النص على أن هذا القطر من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام : بعد أن نص على هذا كله بحث حالة أهالى جبل لبنان وما يجب على الدولة أن تقوم به لإنهاض ذلك الفريق من كبوته قال فى ذلك :

« وأما إذا توجهت من الدولة لمحة نظر إلى استبقاء قلوب رعاياها اللبنانيين لها، وتطهيرها من تلك الأغيان الطارئة عليها، فما أيسر أن يتم

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٠٦ .

لها قصدها، وتذهب تلك المساعى [١] هباء منثورا، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم، فلا بد من النظر فى وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثمانى » [٢].

ثم تحدث بعد ذلك عن ولايتى بيروت وسوريا ومقدار الأثر الذى أنتجته المدارس الأجنبية فى أبناء البلاد، ثم ماصحب ذلك من عاقبة وخيمة على أولى الشأن أن يتداركوها قبل فوات الوقت. قال فى ذلك:

« ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثمانى على قواعد توافق حال أهل البلاد، وقام بإدارته رجال متبصرون حذاق فى إصابة الأغراض والرمى إليها لبزت تربيته جميع تلك التدابير، واجتثت أصول تلك المفاسد، وإنما يلزم لذلك سعى خارج المكتب لجلب التلامذة إليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب » [٣].

ولم يفته فى إجماله أن يذكر أحوال أهل المذاهب الدينية كالنصيرية والشيعة والدروز فى حوران والمسلمين من أهل السنة، وأن يذكر مقدار مايحتاجه كل فريق من التربية والتعليم. ولما كان أهل المذهب الأخير عماد الدولة، وركنها الشديد، وقومها الحقيقيين، وفيهم عصبتها الثابتة، فقد اقترح على الوالى أن يزيد من عنايته بإصلاحهم حتى لايذهب أعوان التربية

---

١ - يقصد بالمساعى ماتبذله الدول الأجنبية للسيطرة على البلاد وماترمي إليه مدارسها المبعثرة فى جميع الأنحاء من التأثير فى عقول الناشئة وطبعهم بطابعها وثقافتها الخاصة.

٢ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٢٦.

٣ - نفس المصدر صفحة ٥٢٧.

الشيطانية بقلوبهم ، ولا ينحط بهم الفساد النفسى إلى أسفل مما وصلوا إليه . واقترح لذلك تنظيم مكتب داخلى يؤكل فيه ويشرب ويكون من صنف المكاتب العالية ، يوضع له قانون ينظم إدارته والإشراف عليه ، وبرنامج للدروس يوافق حالة البلاد ، واشترط لهذا المكتب أموراً أربعة :

الأول — أن يكون مديره عارفا باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم .

الثانى — أن يكون التعليم باللغة العربية فى جميع العلوم .

الثالث — أن يكون أساس التعليم فيه إحياء الدين وتمكين حب الدولة من القلوب .

الرابع — أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة ، ولا ينحصر همه فى أخذ راتبه الشهرى ، وأن يكون حكيما فى تصرفه ، وفى حال يجلب ثقة الناس به .

الثالثة : ومن جهود الامام كفاحه لرفع مستوى التعليم فى مصر ، وقد بين حاجة البلاد إلى ذلك فى لائحة أو تقرير رفعه إلى اللورد كرومر - وقد ذكرنا الغرض من ذلك فى الفصل السابق عند الحديث عن عودته من الخارج بعد النفى - وكتب الامام فى هذه اللائحة أو التقرير عن المدارس الأميرية والأجنبية والجامع الأزهر والكتاتيب الأهلية والمكاتب الرسمية الابتدائية والمدارس التجهيزية والعالية ، وكتب عن المعلمين والمربين ومدرسة دار العلوم ، وكتب عن نفقات الاصلاح فيما لو أخذ برأيه ، وعملت الحكومة على

تحقيق وسائل النهضة والرقى .

ويستطيع كل من يطالع التقرير أن يدرك بسهولة مقدار تفهم الرجل لحالة البلاد وحاجاتها . وليس أدل على ذلك من نظرته البعيدة إلى طبيعة مصر والمصريين ، ويحسن بنا أن نترك للقارئ فرصة الاطلاع على هذا الجزء ليشاركنا فى إعجابنا بالرجل وسعة علمه وإدراكه لخفايا الأمور . قال الامام :

طبيعة مصر والمصريين (١)

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فساحة الصالح منها للسكنى لاتزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة ، وهى محاطة من أطرافها بالصحارى الجدبة والمياه المالحة ، وليس فيها من الغابات مايعوذ به الوحشى من الانسان ، ولذلك نرى كثيرا من أنواع الوحوش التى كنا نراها كثيرة فى البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض بإصلاح الأراضى الزراعية وانتشار الانسان فى أطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة ، وأهل مصر لايعرفون معنى المهاجرة من دار إلى دار ، ولايمكن أن يتصوروا ذلك مادام فى أرضهم نبات ينبت ، فإذا أمحلت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها ، وتاريخ الماضى وشاهد الحال ينطقان بذلك ، ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين ، كل قادم إليهم امتزج بهم ، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم ، وانتسب نسبتهم فصار مصريا

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٣٥ ومابعدها .

وأحرز جميع خواص المصريين ونسى أصله وغاب عن أعقابه منشأه. ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر. فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك، وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينقص من عددهم مقدارا يذكر، ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون.

أهل مصر قوم سريعو التقليد، أذكياء الأذهان، أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة، فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم إلى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم فى ديارهم من أى الوجوه، فلا يبيدون من حاجة، فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى فى بلادهم.

لحاكمهم إذا كان رأسا فهم بدنه، وإذا كان عاملا فهم آلته، فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمى إليه أنظار الدول السامية المقام فى المدنية.

أهل مصر فى موقع عرف كل الناس منزلته من الأرض، وهو ممر أهل المشرق إلى المغرب، وأهل المغرب إلى المشرق، وهو فى حلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الأمم، فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الأمم مثل هذه البلاد.

الأمم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضا على التمكن فى أرض مصر أو الفوز بإحراز المنافع السياسية أو المالية فيها، فالوساوس والدسائس

لاتنقطع نفثاتهامن أولئك الأحزاب يبثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم . وأعظم فاعل فى نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) أن يقال إن صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم وإنكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت .

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى إليهم ، كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم ، فلكل كلمة من هذا القبيل مكان فى نفوسهم ، ولكن ربما لايظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحيانا ، غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن ، ثم لايلبث أن يعود إلى حاله ، فالله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التى يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى إليهم .

يقال إن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ أنه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم ، وأثبتهم قدما فى المواطن ، ولا يعلم متى يوجد القائد ، ومن أى جنس يكون إذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجرى حيث تجد سبيلا للاندفاع ، ثم هم لايقدرون النظام قدره مهما كان بالغا من الصلاح ، ولايبالون به ، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق ، فلا يستطيع حاكمهم أن يثبت سلطته عليهم على أمر مكين ، بل هم دائما فى التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة ، إلا إذا أخذوا بتربية صحيحة ، فهناك تنضبط أحوالهم ، وينشئ النظام احترامه فى قلوبهم ، ويهتدى صاحب السلطة إلى طريق تصريفهم .

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس إذا لم يكن مبعثها الحق ينشآن عند المصريين من أمرين : الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجوه المصالح ، والثانى حرمانهم من التربية التى تطبع فى نفوس أغلبهم الاستقامة والتؤدة والتبصر فى العواقب ، ومرجع الأمرين إلى سوء العقيدة ، وظن ماليس بواجب واجبا ، وظن الواجب غير واجب ، فما دامت هـذه حالهم فهم رعية غير صالحة ، فلا يصلحون بدنا لرأس ، ولا آلة لعامل ، لاختلال المدارك وفساد الارادات .

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذى سلطة يفهم هذا السر ، وتنفذ بصيرته إلى هذه الحقيقة ، فلهذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنا يعتد به ، وكل إصلاح نظامى نشأ فيهم كالبناء على الهواء ، فالسلطة التى تسعى فى أن تجعلهم رعية صالحة ، تكون قد فتحت فى نفوسهم فتحا جديدا ، وظفرت ببغيتها منهم ظفرا مبينا ، وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم .

أهل مصر قوم أذكياء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية للتأثر ، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية ، وهى أن البذرة لاتنبت فى أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها وإلا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة وصحتها . وإنما ألقيت على الباذر .

+ أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعا فيها ، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح للتربة

التى أودعه فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك ماشوهد من أثر التربية التى يسمونها أدبية من عهد محمد على إلى اليوم ، فإن المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فسادا ـ وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات ـ فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها فى نفوسهم .

لا أتكلم عن إصلاح لدين غير الاسلام فى مصر ، فإن غير المسلمين فيها العدد القليل ، والجمهور الأغلب من المسلمين .

الدين الإسلامى الحقيق ليس عدو الألفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم فى المصلحة ، وإن اختلف عنهم فى الدين ، وفى آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وإرشاده إلى مظان الفوائد ، والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الأخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس ، أو آلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الإسلامى كان أوسع نظرا فى الأمور ، وأطهر قلبا من التعصب الجاهلى ، وأقرب إلى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر ، وإنما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه ، وهذه آيات القرآن شاهدة على ما نقوله ، اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت .

إن القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب

حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لايختلفون عنهم إلا فى بعض أحكام قليلة ، ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ، ولاقلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر .

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة ، ولم يروامربيا يأخذهم بدينهم فحرموا خيره ، ولم يبق عندهم إلا مافيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين — وليس بدين — على أنه ليس فيهم من ينكر أن القرآن كلام الله وأنه ينبوع الدين ، ولكن ليس لهم من معاهد التربية إلا جهتان : المدارس الأميرية ، ومدرسة الأزهر الدينية ؛ وليس فى الجهتين مايهديهم لما يجعلهم رعية صالحة ، وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول مايصلحهم .

من يتوجه من ذوى السلطان إلى ذلك لايجد أقل مقاومة من العامة ، ولا أغلب الخاصة ، وفى مصر فرصة لاتوجد فى غيرها لمن أراد ذلك ، فإن بلادا غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد ، أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أى مسلك يختار للتربية ، وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لاغير ، فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها فى المدارس ، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ، ولا يتعرضون لما زاد عنها لابالنفى ولا بالإثبات ، ويندبون لتدريس ذلك ذوى قدرة على صرف الأذهان عما وقر فيها ، وتطهيرها

عما علق بها من الزوائد الضارة ، ولا يجدون معارضا لهم من أهل الدين ، لأنهم لا يهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة ، وما دامت الأصول محفوظة ، فأنظارهم عن غيرها منصرفة ، وأكبر دليل على ما نقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف فى المدارس ، على ما فيه من مباينة الدين والانتهاء إلى خلعه بالمرة » .

* * *

وهناك نواح أخرى ضرب فيها الإمام بسهم وافر فكان خير قدوة وأعظم مثل . من هذه النواحى ناحية البر والخير . ولم يكن الإمام يرجو من بره وعطفه مجرد الإحسان وإعانة المنكوبين فى أحداث الزمان ، ولكنه كان يرنو إلى ما هو أعظم من ذلك وأجل خطراً فى نهضة الأمة . كان يرجو تعويد الأمة على البذل عند الحاجة ، وتربيتها على التعاون عند الشدة ، ودفعها إلى الاهتمام بالشئون العامة التى يجب أن يهتم بها كل فرد ، ثم تعويدها بعد هذا كله على البذل فى سبيل الله وفى سبيل الإنسانية .

وجهود الإمام فى هذه الناحية نوعان . الأولى خفى وهو بذله وإحسانه من ماله الخاص أو مال أصدقائه ومريديه الذى كان يجمعه لهذا الغرض . وكم من عائلة أنقذها الإمام بهذا المال من شقاء وبؤس ، وكم من غنى تنكرت له الأيام فأعانه ، وكم من يتيم رفه عنه آلامه ، وكم من امرأة كريمة حفظ لها كرامتها من أن تراق فى الاستجداء وطلب المعونة ، وكم من بيت أدخل على أهله السرور وفرج همهم ، وكم من طالب أعانه ليتم علمه ، وغريب

أشعره أنه بين أهله وقومه وإخوته فى الدين .

ولم يكن الامام يحب أن يذاع عنه جهده فى هذا السبيل لأنه كان يريد أن يتصدق صدقة لايتبعها منّ ولا أذى ، وكان لايريد أن يسيء إلى تلك العائلات التى نشر عليها عطفه ، وحنانه وأولئك الأفراد الذين أعانهم ببره وإحسانه .

ويروى عن الأستاذ الإمام فى هذه الناحية حوادث كثيرة منهـــا مايستدل به الأستاذ حسين شفيق المصرى على حب الامام للخير وإسراعه لتلبية نداء الواجب وإعانة المحتاج . قال ضمن ماقاله تحت عنوان حسنات لاتحصى [١] :

« كان فى الأزهر الشريف طالب فقير يعيش بجنيه واحد يرسله إليـه أبوه من بلده آخر كل شهر ، وجاء رمضان إحدى السنين وكان أوله بعد نهاية الشهر الإفرنجى بأيام ، وأصابت والده عسرة فلم يرسل الجنيـه ، ونفد مامعه ، فجاء رمضان وكل مايملكه قرش واحد ونصف قرش ، فماذا يفعل ؟

« تألم الشاب أشد التألم ، وحدثته نفسه بأن يتناول طعام الفطور عند أحد كبار أساتذته ، ليتسحر بالقرش والنصف ، وفى أمله أن يجيء الجنيـه فى غد ذلك اليوم أويفعل الله ما يشاء ، فلما كان عصر اليوم ، ذهب إلى

---

١ - العدد ٢٥٦ من مجلة الأثنين والدنيا .

دار ذلك المدرس الكبير وجلس مع الزوار وأخذوا يتحدثون فى العلم وفى شئون الدنيا إلى أن قرب وقت المغرب ، فأخذوا يسلمون على صاحب الدار وينصرفون واحدا فواحدا ، والشاب قاعد لا يتحرك ، إلى أن لم يبق غيره ، فغلبه الحياء وحدثته نفسه بأنه إذا سلم على شيخه واستأذن فى الانصراف يستبقيه للإفطار معه وليس الباقى على المغرب غير دقائق ، وقام فى حياء ومضض ، وسلم على الأستاذ فرد التحية بأحسن منها ، وخرج يتعثر فى الحيرة والغيظ .

« قال لنفسه - يقولون إن الشيخ محمد عبده كافر ، وسأذهب لأرى هذا الكافر لأنى لا أظن كفره أشد من هذا الكفر الذى وجدته الآن ، أيصرفنى شيخى وليس بيننا وبين المغرب غير دقائق وهو يعلم سوء حالى ، ويفهم من بقائى إلى آخر الزوار أنى فى حاجة إلى البر ثم أصدقه وأصدق غيره فيما يزعمون عن الشيخ محمد عبده ؟

« وصمم على أن يبيت على الطوى ويركب قطار المطرية بالقرش والنصف ذهابا ورجوعا ليدخل بيت الشيخ محمد عبده فى عين شمس ، ويرى ما يكون منه هو الآخر .

« وأسرع إلى محطة كوبرى الليمون وركب القطار ونزل بعين شمس بعد المغرب بنحو ثلاثة أرباع الساعة ، وسأل عن بيت الشيخ فوصفوه له ، فوصل والشيخ قد خرج قريبا من الباب ، ورآه مقبلا فعاد إلى الدار وأمر الخادم أن ينتظره ويدخله عليه بغير إذن .

« فلما سلم عليه قال : ياغلام خذ الشيخ إلى قاعة الطعام وهيء له أحسن فطور ، ولولا أنى أفطرت لأ كلت معه .

« فقال الطالب وقدخجل من هذه المفاجاة : إننى أفطرت يامولانا الأستاذ .

« فقال الشيخ — الوقت الذى فات على المغرب على قدر طريقك من الأزهر إلينا ، فكيف أفطرت ؟ وكيف تكذب فى أول كلمة تقولها ثم تريد أن أصدقك فيما ستحدثنى عنه ، قم فأفطر ثم تتحدث .

« وبعد أن أفطر الشاب ، أعاده الخادم إليه فأحسن استقباله وسأله عما يريد ، فتأثر حتى بكى ، وقال وهو لايتدبر مايقول من اضطراب نفسه (بعد أن وصف حاله وزيارته لشيخه) فقلت أنا أذهب إلى الشيخ محمد عبده الكافر . . الخ .

« ثم أدرك خطأه ، فصمت وأخذ يمسح دموعه ، فهدأ الشيخ روعه وهو يبتسم ، ووعده خيراً ، وأمره بأن يوافيه إلى وزارة الحقانية غداة غد ، ووضع فى يده وهو خارج قرطاسا فيه نقود ، قدر الشاب أنها ستة قروش أوسبعة ، فلما بعد من الدار فتح القرطاس فإذا فيه خمسة جنيهات من الذهب ، قال راوى هذا الخبر إن الشاب أخبره أنه لم ير مثل هذا المبلغ مجتمعا من قبل .

« ولقيه الشيخ فى وزارة الحقانية فى غد ذلك اليوم ، وطلب تعيينه فعينوه بوظيفة مرتبها ٥ جنيهات كل شهر ، وتعهده الأستاذ الامام بعنايته إلى أن

أصبح من كبار موظفى المحكمة الشرعية الكبرى فى السودان ثم فى مصر ».

° ° °

أما النوع الثانى من جهوده فى سبيل البر والخير فكانت ظاهرة جلية يعرفها كل من عاصر الامام أو قرأ عنه ، وهى الناحية التى تعاون فيها مع اللجان المنظمة تحت رئاسته . وأشهر أعماله فى هذه الناحية اللجنة التى كونها لإعانة جرحى الجيش المصرى فى حرب السودان ومساعدة أرامل موتاهم وأبنائهم ، وقد جاء فى المنشور الذى أذاعه الامام على الأمة ورجالها النابهين وأصحاب الجاه والنفوذ ما نصه :

« قد عرف الكافة ماجاء به الجند المصرى الذى سيق على البلاد السودانية مما يخلد له ولبلاده المجد والفخار ، ولايخفى على أحد ما أصاب تلك الجنود فى الأيام الأخيرة من قتل بعض ضباطهم وأفراد عساكرهم وجرح عدد كبير منهم ، وإن كان ماأصابهم قليلا فى جانب الظفر الذى نالوه بمعونة الله وثباتهم وشجاعتهم .

« ومن المعلوم أن من قتل منهم ترك أيتاما وأهلا فيهم الضعفاء وذوو البأساء ، ومن جرح قد يعجز عن الكسب ولو شفى ، ويحتاج إلى مايقيم أوده ولو إلى أجل ، ومكان هؤلاء الشجعان من أهالى البلاد هو مكان الأخ الكريم من أخيه ، أو العضو الشريف من البدن السليم ، ولا يسمح ذو مروءة أن يدع أخاه فى مثل هذا المصاب يذهب فريسة الحاجة ، والبدن

السليم لابد أن يألم لما يصيب أعضاءه، ولهذا كان لأنباء هذا المصاب هزة فى قلوب الكثيرين من أهل الإحساس الطاهر فى جميع الطبقات، وأفاض كثير من الجرائد فى استنهاض الهمم لمساعدة أولئك الرجال أو أهليهم، وكان لكل واحد من سكان القطر المصرى أن يبتدئ بدعوة باقيهم إلى هذا العمل المجيد، والبادئ فى الخير الداعى إليه هو فى الحقيقة خادم لمن يستنهضه، فإنه إنما يفتح سبيلا لظهور كرم السجية، وسطوع ضوء الحمية » (١).

وجاء فى نهاية المنشور : « وحيث أن .. تكم من أهل الفضل وذوى الهمة والمروءة رأيت أن أبعث إليكم بهذا رجاء أن يرى لهمتكم الأثر الجليل فى هذا العمل الجيل، مع العلم بأن من يتفضل بدفع شيء من المعونة لإخوانه المصابين فإنما يفعل ذلك لمحض الشفقة والرحمة، وصدورا عن الهمة والمروءة، ومن المعلوم أنه لاينقص مال من صدقة، ولن تخذل أمة كان التعاون من سجاياها، فأرجو أن تساعدوا بما استطعتم، وأن تقبلوا المساعدة ممن يليكم ويقرب منكم، ومايجتمع لديكم تتفضلون بإرساله إلى سعادة أمين الصندوق « أحمد سيوفى باشا » بمصر ويرسل إلى ..... تكم الإيصال حسب العادة، والله لايضيع أجر المحسنين » (٢).

ورحبت الصحف المصرية كلها بهذا المنشور إلا جريدة المؤيد التى

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٣١ و ٨٣٢ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٨٣٢ و٨٣٣ .

رأت أن تزج بالمشروع فى ميدان السياسة، وأن تنكر على القائمين به صدق النية والتوجه إلى الخير المحض.. وغضب الإمام لتعليق المؤيد وانبرى للرد عليه ردا أفحم صاحبه وأقلق مضجعه، وأرغمه على الكشف عن وجهة نظره بما يشبه الاعتذار.

ثم كانت اللجنة التى شكلت لإعانة منكوبى الحريق فى ميت غمر، وها هو ذا المنشور الذى أذاعه على الشعب يحثه فيه على البذل والجود رحمة بأولئك المحتاجين البائسين:

« قد بلغكم ولاريب من أخبار الجرائد ماعليه أهل ميت غمر، بعد الحريق الذى أصاب بلدتهم، فهم بلا قوت، ولاساتر، ولامأوى، فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته، أفما كان يتمنى أن يكون كل الناس فى معونته! فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل بهم، ولينفق من ماله وهمته مايدفع الله به عنه مكروه الدهر، إن شاء الله، (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان، وثقوا بوعد الله، فكلكم يؤمن بالله، وكلكم يوقن أنه أصدق القائلين، وأقدر القادرين، فارجو من همتكم أن تدفعوا شيئا من مالكم فى مساعدة إخوانكم، وأن

تبذلوا مافى وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم فى هذا العمل ، وترسلوا بما تجمعون إلى الداعى .

رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية

« محمد عبده » (١)

* * *

أضف إلى هذه المساعى وهذه الجهود التى بذلها الإمام عن طيب خاطر ولم يدفعه إليها إلا واجب أملاه عليه حبه لهذه الأمة ، ورغبته فى تخفيف آلامها . أضف إلى هذا كله ما كان يبذله من جهد فى دروس الأزهر ، تلك التى كان يرمى من ورائها إلى غايته الأولى والأخيرة وهى إصلاح الإسلام وإمداده بالقوة والحياة حتى يعيد الشعوب الإسلامية إلى ما كانت عليه من عزة ومجد .

وأما دروسه فى التفسير فكان يرجو من ورائها بيان ماخفى من أمر الدين ثم تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوصه ، يقول جولد زيهر : « إن تفسيره يمثل جوهر التعاليم الدينية التى كان يدعو إليها هو وجمال الدين » (٢) .

ويقول السيد رشيد رضا : « أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن موضوع تنزيله ، وفائدة ترتيله ، ومافيه من علم ونور ، وهدى ورحمة ،

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٤٥ .

٢ — الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ١٠٦ .

وموعظة وعبرة ، أما محمدعبده فعلى نقيض هذا ، وجه عنايته فى دروسه إلى بيان مافى القرآن من هداية على الوجه الذى يتفـــق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه ، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير ، والهداية والإصلاح . ثم العناية بمقتضى حال هذا العصر فى سهولة التعبير ، ومراعاة أفهام القارئين » (١) .

٭ ٭ ٭

وكان الامام يلقى دروس التفسير بالرواق العباسى الذى كان يضيق بالمستمعين ، وكان يفد على هذه الدروس كثير من الأساتذة والأدباء والصحفيين والموظفين أمثال الشنقيطى ، وسعد زغلول ، وأحمد تيمور ، وحفنى ناصف ، والمنفلوطى ، وعبدالوهاب النجار ، ومصطفى عبدالرازق . وللإمام مدرسة ذاعت دروسها فى كثير من البلاد ، حملها أمثال الشيخ اسماعيل الحافظ من طرابلس الشام ، والشيخ أحمد المحمصانى من بيروت ، والشيخ الترماتينى من حلب ، وادوارد براون أحد المستشرقين الإنجليز .

وكنت ترى المستمعين عند مايبدأ الامام درسه وكأن على رءوسهم الطير ، فلا تسمع لهم صوتا ولا نحنحة ولا همسا . وكلهم أذن واعية وأعين محدقة بالشيخ : فإذا عرض لأحدهم إشكال فلا يجرأ على سؤاله فى الحال ، وإنما يؤخره إلى ما بعد انتهاء الدرس ، فإن الشيخ يجلس بعد الدرس برهة قصيرة ليجيب على مايرد عليه من الأسئلة .

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ١٠٦ .

« أما كيفية إلقائه فلا يحدر فى كلامه ولا يسرع فى قراءته، بل كان كلامه مقطعا جملة جملة، بلهجة فصيحة وبلاغة نادرة.

« وكان جديا فى قراءته، يعلوه وقار وهيبة، فإذا مرت به آية رحمة ألان كلامه، وإذا مرت آية عذاب ووعيد ارتفع صوته وزادت هيبته، وكان أديبا فى كلامه وخطابه، نزيها فى حديثه عن كل ما فيه بذاءة أو لفظ مستهجن »[1].

ولم تكن دروس الامام تخلو من فكاهة مستملحة يقتضيها المقام يرسلها ترويحا للنفوس من حين إلى حين. دخلت فتاة صغيرة فى نحو الثانية عشرة من عمرها، وتخطت المستمعين إلى حيث كان يجلس والدها من حلقة الدرس، فلما التفت اليها الناس استغرابا نظر اليهم الامام قائلا: دعوها حرة فلعلها المرأة الجديدة، وكان ذلك تورية من الاستاذ على أثر ماشغل الرأى العام نتيجة للآراء التى جاء بها كتاب المرأة الجديدة لقاسم بك أمين.

وحدث مرة أن أكثر أحد المجاورين من الأسئلة الفارغة فى درس التفسير، واعترض على رأى الامام فى تفسير بعض الآيات لأنه يخالف مايوافق رأى الجمل - وهو أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشى - ولم يكن من الامام إلا أن قال على الفور: « إنى أقرر مايدل عليه المعنى الجليل والكلام

---

١ - من وصف شامل بعث به الشيخ ابراهيم الترماتينى إلى الدكتور عثمان أمين - محمد عبده صفحة ١٢٣ و ١٢٤ .

البليغ ، ولا يعنيني أوافق عليه الجمل أو الحمار »[1].

رحم الله الاستاذ الأمام فقد كانت دروسه كما يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى : « مثلا عاليا فى طريقة الالقاء والتفهيم ، وفى العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة إلى القلوب . وكانت دائرة معارف يجد اللغوى فيها حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آى القرآن على معارفهم »[2].

---

١ ـ محمد عبده للدكتور عثمان أمين صفحة ١٥٢ .

٢ ـ نفس المصدر صفحة ١٢٢ .

أسفار الإمام

كان الإمام عريض الآمال، ولم تكن آماله تنحصر فيما يرجوه لمصر وأهلها، ولكنها احتضنت العالم الإسلامى كله، وكان يود لو يستطيع أن يقدم خدماته لكل دولة من دوله، وأن ينهض بكل شعب من شعوبه وقد انبسطت أمامه رقعة العالم وأفسحت له مجال العمل. وكان الإمام كبير الهمة عظيم النفس. ورحب العالم بهذه العظمة حتى أن أوربا طمعت فى أن تعطيه ماعندها من مقومات الحضارة الحديثة ليدعو لها فى الشرق، وأن تأخذ ماعنده من فلسفات الشرق وحكمه لتعيد النظر فى درسها على ضوء العلم الحديث، ولتعلم كيف ساد الشعب العربى دول العالم فى العصور الماضية، وكيف استطاع ذلك الشعب أن يخرج هذه المدنية الإسلامية العظيمة فى مدى قليل من الزمن.

ودفعت هذه الآمال العريضة محمدعبده إلى السفروالتجوال فى الأقطار المختلفة، وقد أوضحنا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ماقام به الإمام أثناء وجوده فى بيروت بعد الحوادث العرابية، ثم فصلنا ما كان له من جهود، ومابذله من تضحية أيام توفره على إصدار جريدة العروة الوثقى فى باريس. وأشرنا كذلك إشارة عاجلة إلى المهمة التى قام بها فى لندن عقب انتدابه لمفاوضة الساسة الإنجليز فى شئون مصر والسودان. أشرنا إلى هذا

كله ونحب فى هذا الفصل أن نذكر شيئا مفصلا عن أسفار الإمام التى لم نفصلها من قبل، وما كان يرجوه من هذه الأسفار.

* * *

عند ما كان الإمام فى باريس يصدر هو وأستاذه جمال الدين جريدة العروة الوثقى انتدبته الجمعية لمفاوضة الإنجليز فى المسألة المصرية والسودانية، وسافر الإمام إلى لندن فوصلها فى شهر يوليو من عام ١٨٨٤ م حيث نزل ضيفا على صديقه المستر «ولفرد بلنت» بشارع جيمس، وقد سهل له صديقه مقابلة كثير من أقطاب السياسة والزعماء والنواب أمثال «بارنل» و «ولفرد لوسن» [١] و «لابوشير» [٢].

وكتب مندوب جريدة «البال مال غازيت» فى عدد ١٧ أغسطس من ذلك العام فقال:

«نعتقد أن الشيخ «محمد عبده» أول مصرى أصيل يزور هذه البلاد، فقد عرفنا من قبل أشخاصا كثيرين من أتراك وشراكسة وسوريين وأرمن

---

١ - كان محمد عبده يرجو أن يدلى لوسن ببيان عن رأيه فى السياسة المصرية، ولكن يظهر أنه لم يتمكن من ذلك، غير أنه لم يفته أن يصرح له فى قوة أن أول خطوة لوضع أساس للسلام فى مصر هو جلاء العساكر الانجليزية عن وادى النيل.

٢ - قال لابوشير للامام إن خير وسيلة لاخراج الانجليز من مصر عدم دفع الضرائب مادام جيش الاحتلال فى البلاد، وقال له محمد عبده إنهم لو فعلوا ذلك لاتخذ الانجليز منه ذريعة لضم البلاد المصرية إلى أراضى الامبراطورية البريطانية.

ويهود، وكلهم يدعون أنهم مصريون، لكننا لم نعرف مصريا عريقا فى مصريته كالشيخ محمد عبده الذى قدم لزيارة لندن اليوم. فهو يقينا فلاح، يلبس جبة زرقاء، وعمامة بيضاء، ولا يتكلم الفرنسية (١) ولا الانجليزية، بل ولا التركية، إنما يتكلم العربية لغة قومه، وليس عليه أدنى مسحة من التقاليد الأوربية، وهو متوسط الطول، أسمر اللون، ذو لحية سوداء، حاد البصر ذو وقار ومظهر مهيب، له ابتسامة جذابة، وإذا استشاره محدثه تكلم كلام الفصيح المتواضع، قوى الحجة، وثاب الذكاء، مشرق الطلعة وضاح الجبين.

« تلك أول مرة يزور فيها الشيخ أوربا، ليرى بعينه البلاد التى كانت السبب فى نكبة وطنه » (٢).

ودار بين مندوب الجريدة وبين الأستاذ الإمام حديث طريف ذكره فى كتابه الدكتور عثمان أمين بكلية الآداب المصرية، ولطرافة هذا الحديث ولكونه يدل على ناحية من جهود الامام رأينا أن نثبته كما هو زيادة فى التعريف بالرجل وجهوده:

« سأل مندوب الجريدة الشيخ محمد عبده عن رأيه فى الحالة الحاضرة فى مصر، وعن السياسة التى يجب اتباعها. فأجاب الشيخ: « لقد وجه إلىّ هذا السؤال مرارا منذ جئت إلى لندن، وكل انجليزى لقيناه يؤكد لنا أنه يريد الخير لمصر، لكن أين هم رجال السياسة عندكم الذين حاولوا تأييد

---

١ - لم يكن محمد عبده قد تعلم الفرنسية حتى ذلك الوقت فقد تعلمها بعد اشتغاله بالقضاء كما بينا من قبل.

٢ - محمد عبده للدكتور عثمان أمين صفحة ٨٦ ومابعدها.

تصريحاتهم وتأكيداتهم ؟ إننا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية كنا نظن أن الإنجليز يناصرون قضية الحرية ، لكننا لم نعد نعتقد بمثل هذه الظنون ، فإن الحقائق أقوى وأبلغ من الكلام . إنا نرى أن انتصاركم للحرية هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل ، لقد قضيتم على عناصر الخير فينا لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا » .

المندوب : « صدقنى هذا ليس بصحيح ، وإن يكن يبدو كذلك . فلا المستر جلادستون ولا أحد من الوزراء يريد شيئا آخر غير الجلاء عن مصر فى أقرب فرصة ، وعلى أتم وجه .

الشيخ : « إذا كان الأمر كذلك فلم لا تغادرون بلادنا فى الحال ؟ لقد علمنا الانجليز شيئا واحداً : هو التضامن فى رغبتنا أن نراهم يرحلون من بلادنا . حق أننا تطاحنا وأردنا أن نحطم استبـــداد حكامنا . شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا ، ورغبنا لبلادنا إصلاحا سياسيا وتقدما يشبه تقدم أوربا فى طريق الحرية ، لكننا الآن نعلم أن هناك ما هو شر من استبداد الحكام . وشر من ظلم الأتراك وليس فى مصر من قد بلغ به الظلم حدا يرجو معه مساعدتكم ، إن لنا إليكم رجاء واحدا : أن تغادروا بلادنا حالا من غير رجعة » .

المندوب : « وتوفيق (الخديو) هل تصفحون عنه كما صفحتم عن الأتراك ؟ » .

الشيخ : توفيق باشا أساء إلينـــا أبلغ السوء ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لايمكننا أن نشعر إزاءه بأدنى احترام ، لكنه إذا ندم على مافرط منه ، وإذا عمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سوءاته . إننا لانريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية » .

المندوب : « والفرنسيون ؟ إننا إذا تركنا مصر الآن ، فهذا معناه أنهم يحتلون بلادكم بدلا عنا » .

الشيخ : « لانظن ذلك ، الفرنسيون يعرفون أننا لانقبل حكمهم كما لانقبل حكمكم ، نقاومهم كما قاومناكم . إننا لانريد لوطننا حكاما أجانب عنا — كائنة ما كانت بلادهم ، ونحن نعرف كيف نجعل حكمهم فينا أمراً مستحيلا ، ومهما يكن الحال ، فالفرنسيون لايستطيعون أن يسيئوا إلينا أكثر مما أسأتم أنتم » .

المندوب : « والمهدى ؟ » .

الشيخ : « لاخطر على مصر من حركة المهدى ، إنما الخطر من وجودكم أنتم فيها ، وأنكم إذا غادرتم مصر فالمهدى لن يرغب فى الهجوم عليها ، ولن يكون فى هجومه أدنى خطر ، وهو الآن محبوب من الشعب ، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربى ، وسينضمون إليه عند قدومه » .

المندوب : « أليس السودانيون قوما متعصبين ؟ » .

الشيخ : ليس السودانيون أكثر تعصبا منى . حينما كنت أعلم الفلسفة فى

القاهرة، كان كثيرون من الطلبة المصريين يخشون حضور دروسى ، بينما كان هنالك ٨٤ طالبا من السودان، وكانوا جميعا يحضرون للاستماع إلىّ نعم ليس السودانيون متعصبين، لكنهم إذا شعروا بالخطر الأجنبي يتهدد بلادهم، ثاروا وأصبحوا حينئذ متعصبين. وما مثلهم فى ذلك إلا مثلكم أنتم إذا رأيتم جيشا من المسلمين فى شوارع لندن!».

المندوب: «ألهذا الشعور علاقة بخبر الهياج فى بلاد العرب؟».

الشيخ: «الخبر صحيح وكنا ننتظره من زمان، ولاشك أن تعاهدكم مع الأحباش قد سهل هذا الهياج. فالمسلمون إذا هددوا قاموا للجهاد، وليس أهل اليمن أشد تعصبا من السودان، ولكنهم يحبون حريتهم كما يحبها العرب جميعا».

المندوب: «وماذا يجب أن نفعل لإيقاف هذه العاصفة؟».

الشيخ: «كفوا عن تهديدنا وغادروا مصر».

المندوب: «ولكن ماذا يكون مصير المسيحيين فى مصر إذا تحقق جلاء جيوشنا عنها؟ فهلا تحدث فيها مذابح جديدة؟».

الشيخ: «لم يحدث فى مصر مذابح اللهم إلا المذابح التى سببها الإنجليز أنفسهم. إن وصول أسطولكم إلى الإسكندرية هو الذى دفع الغوغاء إلى الشغب، وإن إنزالكم جيوشكم بها هو سبب حدوث الاضطراب فى طنطا. لم يقتل من المسيحيين أحد قبل حضوركم إلى مصر، ولن يحدث من ذلك شىء بعد جلائكم، فلا نزاع بيننا وبين المسيحيين طالما عاشوا فى ظل

قوانيننا ولم يتدخلوا فى شئون حكومتنا » .

المندوب : « إذاً فأنت تعتقد أن لاشىء يحول دون السلام والرغد فى مصر إلا وجودنا فيها ؟ ألست تود أن يعود حزب الحرية قبل مغادرتنا ؟ ألا ترغب أن تعود أنت ورفاقك إلى مصر ؟ » .

الشيخ : « إنى كنت أقترح سياسة جديدة لو خطر ببالى أن لدى حكومتكم أدنى رغبة جديدة فى خير بلادنا ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فما فائدة الكلام ؟ » .

المندوب : « لكن تكلم ، فإنى أرى ـ كيفما كانت رغبة الحكومة ـ أن فى انجلترا كثيرين ممن يريدون إنصاف مصر بأى ثمن » .

الشيخ : « اذا رأت انجلترا أن تتدارك خطأها كما قلت فيجب عليها أولا : أن تقدم الينا دليلا على إخلاصها وحسن نيتها ، فتأمر بإرجاع جيوشها من مصر . ثانيا : أن تتفق مع دول أوربا ومع سلطان تركيا على إقامة حاكم جديد فى مصر . وليس لى أن أذكر اسم ذلك الحاكم ، بل ينبغى على كل حال أن يختار من الرجال المحبوبين من الشعب المصرى ، وأن يكون تعيينه لمدة محدودة ، نحو ٧ أو ٨ سنين . وفى نهاية هذه المدة يحق للشعب أن يختار بنفسه من يحكمه » .

المندوب : « لكن كيف تتعرف رغبات الشعب ؟ وبأى شكل من أشكال الانتخاب » .

الشيخ : « إن الحاكم الجديد متى كان مجيئه لإنقاذ مصر من الجيوش

الإنجليزية ، فيكون محبوبا من المصريين ، ولكن يشترط أن يكون مسلما وأن يكون ـ بقدر الإمكان ـ مصرى المولد ، وينبغى أن يقنع ذلك الحاكم بسلطة محدودة . لسنا نريد ملكا وإنما نريد زعيما . والمصريون يفهمون ويقدرون حاكما من هذا النوع » .

المندوب : « وإذا وجد حاكم كهذا فهل تعود أنت ورفاقك المنفيون إلى مصر ؟ وماذا تقول فى عرابى ؟ » .

الشيخ : « أحب أن يعود عرابى الى مصر . وأنى أرى خير منصب له أن يكون رئيسا لمجلس النواب الذى ينشأ لمراقبة حاكم مصر ، وعرابى خطيب وأفكاره نبيلة ، وهو رجل مخلص ، ونفوذه يتجه نحو الخير ، لكنه لا يعنى بالتفاصيل فلا يصلح لتولى الأعمال الإدارية . فإن أرجعتموه فليكن رئيسا للمجلس إذا انتخبه الأعضاء » .

المندوب : « والوزارة ؟ إن حكومتنا تشكو من أنها لا تجد مصريين من أهل الكفاية لتولى الحكم فى البلاد » .

الشيخ : « إذا كانت حكومتكم فشلت فى إيجاد هؤلاء الرجال فالذنب ذنبها . مصر لا ينقصها رجال أكفاء وشرفاء ، لكنكم تطلبون رجالا ينفذون ما تريدون . وليس فى مصر رجل مخلص لبلاده يقبل أن يعمل لمصلحة الحكومة الإنجليزية . دعونا نختار لنا حاكما ، وسترونا متضامنين فى العمل معه . إننا معشر المصريين نريد الإصلاح ، نريد العدالة ، نريد التعليم ، نريد

حاكما نستطيع احترامه . دعوا أمتنا تختار زعيمها ، ودعوها تحكم نفسها بنفسها » .

المندوب : « وهل جميع المصريين آراؤهم مثل آرائك ؟ إنى أميل إلى الظن أن تسعين فى المائة من الفلاحين يريدون حكومة مسيحية تخفف عنهم ثقل الضرائب ، ويفضلونها على حكومة إسلامية تفرضها عليهم » .

الشيخ : « تلك أوهام ، لقد أثقلت ظهور الفلاحين بالضرائب ، لكنهم فى الوقت الحاضر لايشكون منها وإنما يفكرون قبل كل شيء فى تخليص بلادهم من حكم الأجنبى . بل إنهم ليفضلون أن يدفعوا أكثر مما يدفعون لتحقيق هذه الغاية . إنى أعلم ذلك ، فإنى على اتصال بالمراسلين فى جهات كثيرة فى مصر . يمكنكم إذاً أن تلغوا جميع الضرائب ، فلن يحمدوا لكم هذا الصنيع إذا كنتم تتخذون من ذلك عذرا للبقاء فى بلادهم . لا . . اتركونا وشأننا ، فإننا إذاً نسأل الله أن يجزيكم خيرا مما صنعتم ، ولكن لاتحاولوا أن تسدوا الينا جميلا لانرتجيه منكم ، فان معروفكم قد مسنا بضرر بليغ [1] » .

ودار حديث بين محمد عبده واللورد هرتنجتون الوزير الانجليزى أثبت فيه الأول أن فى الشعب المصرى من محبي أوطانهم مثل ما فى الشعب الانجليزى ، وأن ليس فيه الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس ، وأن هذه النفرة

---

١ ـ محمد عبده للدكتور عثمان أمين صفحة ٨٦ وما بعدها .

عما أودع الله فى فطرة البشر ، وان المسلمين مهما كانوا وعلى أى وجه وجدوا لا يصلون من الجهل الى الدرجة التى يتصورها الوزير ، فان لهم من خطب الجمعة ومواعظ الوعاظ مايقوم مقام العلوم الابتدائية ، وأقنع محمد عبده محدثه بانتشار العلوم والآداب الجديدة فى مصر منذ عهد محمد على الكبير على نحو ما هو موجود فى أوربا ، وإن هذه العلوم والآداب قد انتشرت فى جميع القرى المصرية فأضاف بها المصريون الى الشعور الطبيعى والتقليد الدينى محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومى .

وجدير بالمصريين بعد أن تبينوا ماتبينوه من حب الامام لمصر أن يذكروا له تلك الصفحات المجيدة من دفاعه عن قضية البلاد .

* * *

ولما كان الامام مهتما بأحوال العالم الاسلامى شديد الرغبة فى التعرف على أحوال المسلمين وماهم عليه من قوة أوضعف ، شديد الرغبة فى معرفة الأدواء والعلل التى انتابتهم على أن يكون ذلك عن قرب حتى يتمكن من وصف الدواء الناجع ، فقد بدأ أسفاره إلى هذا العالم الاسلامى برحلة إلى الآستانة العليـة فى صيف عام ١٩٠١ وكان فى صحبته الشيخ على يوسف صاحب المؤيد .

وصل الإمام إلى مقر الخلافة ، وبعد أن قدم فروض الخضوع والولاء للسلطان الأعظم قام بزيارة صاحب الدولة والسماحة شيخ الاسلام ، ودار بين الرجلين حديث عن العلم والعلماء تناول تعريف العالم الذى يستطيع

أن يخدم الأمة بعلمه ، والذى تستطيع الأمة أن تستفيد منه بما هيأه له من هذا العلم . وقد جاء فى هذا الحديث : [1]

الشيخ — لاشك أن أغلب المشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة بأحوال الناس ويفوتهم العلم بما عليه أهل العصر ، ولوخبروا الزمان وأهله لأمكنهم أن يحموا شرعهم ، ويعلوا شأن أهل ملتهم ، مع أن العالم لايكون عالما حتى يكون مع علمه عارفا ، والعارف هو الذى يمكنه أن يوفق بين الشرع وبين ماينفع الناس فى كل زمان بحسبه ، ومن كان بارعا ، فى العلوم الدينية ولكن لايعرف حال أهل عصره ، ولايراقب أحكام زمانه ، فلا يسمى عالما ولكنه يسمى « متفننا » ، أعنى إنه يعرف فن النحو أو فن الفقه أوما أشبه ذلك ، ولايسمى عالما على الحقيقة حتى يظهر أثر علمه فى قومه ، ولايظهر ذلك الأثر إلا بعد علمه بأحوالهم وإدراكه لحاجاتهم .

المفتى — ماتقوله سماحتكم هو المعروف عند الأولين من علمائنا . وقد جاء فى كثير من كتب السادة المالكية تعريف العالم بأنه (العاكف على شأنه ، البصير بأهل زمانه) وهو تعريف للعالم بالغاية من علمه ، والعكوف على الشأن أن لايضيع العالم زمنه إلا فيما يفيده ويفيد العامة ، لأن هذا هو شأن العالم الذى ينبغى أن يعكف عليه . ولذلك اتبعه بالوصف الآخر وهو

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٥١ ومابعدها .

البصر بأهل الزمان لأن البصر بأهل الزمان إنما يدخل فى الغاية من العلم لأنه وسيلة للتمكن من العمل به فى أهل ذلك الزمان. وكأن صاحب هذا التعريف يقول من فرط فى شىء من زمنه ولم يستعمله فيما من شأنه أن يستعمله فيه، أو أساء استعماله بسبب جهله بأحوال هذا الزمان، فهو ينثر المقال نثرا لايبالى كيف يقع، ولايعرف هل يصفع عليه أويخضع له ويخشع. ومن كان كذلك فهو خارج عن مفهوم العالم لاينطبق عليه تعريفه. وغاية مايمكن أن يصل اليه إن عرف شيئا من العلم أن يسمى حافظا له.

الشيخ — نعم إن مما يؤسف عليه الأسف العظيم أن من كان من علماء المسلمين على شىء من العلم فإنما يعد فى الحقيقة متفننا ولايصح أن يطلق عليه اسم العالم. وبذلك بقيت الشريعة مدفونة فى الكتب وحرمت أرواح أهليها من التمتع بآدابها — ثم تبسم قائلا: ولعل الذى مال بحملة الشريعة إلى البعد عن شؤون العامة هو أنهم أرادوا أن يخدموا أنفسهم خاصة دون الناس عامة.

المفتى — وهل تعد سماحتكم ذلك خدمة لأنفسهم مع مازام فيه من الضعة والخمول، وحرمان أعاليهم من الحقوق التى يتمتع بها أسافل غيرهم، وفرار الدنيا من وجوههم وهم أتعب الناس فى طلبها، وبغضها لهم وهم أحرص الناس على حبها. وإذا قنع أحدهم بشىء منها فهى وقفة العاجز لاقناعة العزيز، أفما كانوا أعز وأكرم، ومقامهم أسمى وأعلى،

أو كانوا علماء على النحو الذى عرفه أسلافنا .

الشيخ — صدقت فإن من أراد أن يخدم نفسه وجب عليه أن يخدم العامة لاندراج المصلحة الخاصة فى المصلحة العامة ، فإذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت الخاصة أيضا ، وإذا حفظت الأولى حفظت الثانية .

المفتى — نعم يامولاى هذه هى القاعدة الحقيقية ولكن مدرسى كتب الفقه لايعتنون بتقريرها لطلبتهم . فهؤلاء الذين سميتهم سماحتكم متفننين لم يرووا هذه القضية فيما درسوا ، فلعل ذلك عذرهم فيما نسوا .

وساء هذا الحديث بعض النفعيين الجهلاء ، الذين يحلو لهم أن يدمجوا كل شىء فى السياسة لغرض فى نفوسهم فقالت جريدة المقطم فى صبيحة اليوم التالى لنشر الحديث فى المؤيد : إن العلماء فى مصر عموما ، وعلماء الأزهر خصوصا قد استاءوا منه ، ووقع عليهم كالصاعقة (١) . والله يعلم أنه لم يكن فى مقدور هذه الجريدة أن تعلم باستياء العلماء جميعا فى مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها فى ليلة واحدة .

وكتب مصطفى كامل فى جريدة اللواء فقال مما قال : « لاينكر أحد فى مشارق الأرض ومغاربها أن الإسلام فى حالة يرثى لها ، وأن المسلمين فقدوا فى هذا العصر كل قوة ونفوذ (٢) » ، ثم أنحى باللائمة على شيخ الإسلام ومفتى مصر وأشركهما فى المسئولية فقال : « ومسئولان

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٥٣ .
٢ - نفس المصدر صفحة ٨٥٥ .

مثل الآخرين (بل قبلهم) عما نحن فيه من تأخر وجهالة وسوء حال »[1] .

وبما يؤسف له أن مصطفى كامل باشا الذى نعده باعث الحركة الوطنية فى مصر . ونافخ روح الثورة فى الشباب تعمد مهاجمة الامام على الرغم من معرفته بأن المصلحين الثائرين على القديم لايستطيعون عمل شيء وخاصة فى بلاد الاسلام قبل أن يوافق ملوكهم وأمراؤهم وإلا كانوا ثائرين خارجين على النظام ، والثورة أبغض شيء إلى العلماء وخاصة الأستاذ الإمام ، وكان طريقه فى الإصلاح — كما بينا فى كثير من أجزاء هذا الكتاب — التؤدة والحذر وتلقين الشعب النظم الجديدة عن طريق التربية والتعويد .

واتسعت دائرة السعايات ضد الامام حتى بلغت الآستانة ، وكانت رغبة المعارضين له أن يقبض عليه رجال « المابين » ويزجوا به فى السجن إمعانا فى الحط من كرامته ، واتفق أن كان المرحوم أحمد شفيق باشا موجودا هناك فى ذلك الوقت وعلم بما دبر ضد الإمام فأسرع إلى إحباط تلك التدابير المنكرة بالشفاعة له عند السلطان ، وإعلان ضمانه له ، وقد رفع الإمام بناء على طلب شفيق باشا عريضة إلى مقام الخلافه يعلن فيها ولاءه وخضوعه .. ومما يثبت سعى شفيق باشا ومقدار ما أسداه إلى المفتى تلك الرسالة :

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٨٥٣ .

« سيدى الفاضل

« ها أنا أرسل إليكم جملة جوابات سلمها إلىّ حضرة الشيخ على يوسف لتوصيلها إليكم .

« بلغت « القول أغاسى » السلام من طرفكم فسألنى عما إذا كنتم توجهتم إلى لوندره حيث كان بلغه ذلك فأكدت له أن هذا الخبر مكذوب بالمرة .

« بعد توجهكم سألنى الباشكاتب عنكم فقلت له إنكم سافرتم إلى أوربا ومنها ستتوجهون إلى مصر ، فأورانى سروره من عدم مساسكم بشىء ، وقال الحمد لله على أن تداركتم الأمر أما التلطيف فسيكون عند تشريف جناب الخديو .

عند مقابلة سموه أرجوكم عدم إطالة الثناء فيما قمت به من الواجبات التى يفرضها علىّ حبي لسيدى لأنه لاحظ علىّ فى بعض الأعمال التى أجريتها فى مسئلتكم .

« سفير انجلترا تأسف على عدم إمكانه مقابلتكم وكلفنى أن أبلغكم ذلك ، ولما أفهمته المسألة على وجه الإجمال تكدر ولكنه استصوب كل مافعلناه .

« وإنى أهديكم وافر التحية والإكرام والسلام أفندم .

٢٠ أغسطس سنة ١٩٠١ أحمد شفيق [١] »

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٦٥ .

وعاد الإمام إلى مصر فوصل الإسكندرية يوم ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ هـ — ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ م واستقبلته البلاد كلها استقبالا باهرا تجلى فيه حب الأمة له. وقال العلامة الشيخ محمد محمود الشنقيطى فى قصيدة قدمها له:

«أيا من نأى عنا وغابا — وبعد قضائه الحاجات آبا
تغنينا بشعر الصدق لما — عزمت إلى أباطحك الإيابا
وكأس بالأباطح من صديق — يراه لو أصبت هو المصابا
ومسرور بأوبتنا إليـــه — وآخر لايحب لنا الإيابا»[1]

• • •

وسافر الإمام عام ١٩٠٣ إلى انجلترا للمرة الثانية، فمر فى طريقه بكثير من دول أوربا، واستغل هذه الفرصة لزيارة معاهد العلم والوقوف بنفسه على طرق التربية الحديثة، وقد صرح له أثناء مروره بفرنسا بزيارة أى معهد من معاهد العلم الفرنسية فى أى وقت يشاء.

وفى أثناء وجوده بانجلترا زار كليتى أكسفورد وكمبردج، وكتب المستر «إدوارد براون» أستاذ اللغتين العربية والفارسية فى كلية كمبردج رسالة إلى جريدة المؤيد قال فيها:

«ولقد كان كل من فى المدرسة فرحا مسرورا بزيارة هذا الرجل العالم العظيم، وأعجب بعلمه وفضله وسمو آرائه جميع العلماء والعظماء، وتمنوا لو أقام بينهم زمنا طويلا. وفى اعتقادى أن فضيلة المفتى قد شرف الشرق

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٦٥.

وعلماءه فى هذه الديار [1] » .

واجتمع الامام « بسبنسر » الفيلسوف الإنجليزى الكبير ودار بين الرجلين أوقل بين الغرب والشرق حديث تناول الحالة الاجتماعية فى أوربا والأسباب التى أدت إلى رجوعها القهقرى فى الأخلاق والفضيلة . وتركت هذه الزيارة فى نفسه أثرا قال عنه فى مذكراته :

« ماذا حركت منى كلمة الفيلسوف « الحق للقوة » الخ ؟ جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل فأثارت حرارة وهاجت فكرا ، لوجاءت من ثرثار غيره كانت تأتى مقتولة ببرد التقليد ، فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلا تحرك إلا اشمئزازا وغثيانا .

« وهؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد فى راحة الإنسان وتوفير راحته وتعزيز نعمته (أعجزهم) أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها على الانسان حتى يعرفها فيعود إليها ، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامع المضىء ، أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذى غشى الفطرة الانسانية ، ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحانى ؟ حار الفيلسوف فى حال أوربا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ الرجوع إلى الدين . . الدين هو الذى كشف الطبيعة

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٧٦٧ .

الإنسانية وعرفها إلى أربابها فى كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها (١) .

° ° °

وسافر الإمام من أوربا إلى تونس والجزائر للوقوف على أحوال المسلمين وآثار الإسلام ، ثم لتوجيه الأفراد وجهة دينية صحيحة يعلو بها قدرهم ، وترتفع بها مكانتهم ، وتعيد لهم مجد الإسلام وماضيه . وأرسل بعض الحاقدين عليه رسالتين إلى الحاكم الفرنسى فى الجزائر إحداهما من القاهرة والثانية من الإسكندرية يوقعون فيهما بالأستاذ الإمام ، غير أن الحكومة الفرنسية أهملت الرسالتين واستقبلت الامام بما يليق بمقامه .

واجتمع الامام فى الجزائر بكثير من رجال الأدب كالشيخ « محمد بن الخوجه » والشيخ « عبد الحليم بن سماية » وألقى عليهم تفسير سورة العصر ، ثم نزل فى تونس على « خليل أبو حاجب » زوج الأميرة نازلى (٢) وألقى على التونسيين درسا قيما فى العلم والتعليم .

وكان الامام ينصح أهل تونس والجزائر بالعمل والنشاط . ولخص السيد رشيد رضا نصائحه فيما يأتى (٣) .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٦٩ .
٢ - نفس المصدر صفحة ٨٧٣ .
٣ - نفس المصدر صفحة ٨٧٣ .

١ — الجد فى تحصيل العلوم الدينية والدنيوية فى طرقها القريبة .

٢ — الجد فى الكسب وعمران البلاد من الطرق المشروعة مع الاقتصاد فى المعيشة .

٣ — مسالمة الحكومة وترك الاشتغال بالسياسة .

وعرج الامام فى طريق عودته على صقلية وشاهد آثار العرب فيها وقصر الملك «روجار» ، والكنيسة الكبرى فى (بلرم) العاصمة ، كما زار غيرهما من الآثار . وعاد إلى مصر فتلقاه أهلها بالحفاوة البالغة ، ومما يحسن الاشارة إليه من رسائل التهنئة التى لا عد لها ولا حصر تلك الأبيات التى بعث بها الشيخ مصطفى عبدالرازق (١) :

«أقبل عليك تحية وسلام	يا ساهرا ، والمسلمون نيام
تطوى البلاد وحيث جئت لأمة	نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدر أنى سار يشرق نوره	والحق أنى حل فهو إمام
إن يقدروا فى الغرب عليك قدره	فلمصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بما	يلهى الصغار وجدت الأيام
لازلت غيظا للضلال وأهله	والله يرضى عنك والإسلام» (٢)

* * *

ولم يكن الامام وهو الذى سافر شرقا وغربا ، وساح فى كثير من

---

١ — معالى مصطفى عبدالرازق باشا وزير الاوقاف .

٢ — تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٨٧٥ .

الأقطار مستطلعا أحوال المسلمين لينسى زيارة السودان وهو القطر الشقيق ، والجزء الذى لاينفصل ، والبلد الذى تربطنا به وشائج النسب والدين والجيرة .

وعزم الامام على السفر إلى السودان وتهيأت له الفرصة عام ١٩٠٥ ، فقد غادر القاهرة مساء ١٥ يناير من ذلك العام . ووصل الخرطوم البحرية فى منتصف ليلة الجمعة ٢٠ يناير وكان فى استقباله المستر « بونهام هارتر » سكرتير قضائى السودان ، وصاحب السعادة اللواء السير (سلاطين باشا) المفتش العام بالسودان ، وصاحب السماحة الشيخ (محمد هارون) قاضى القضاة وغيرهم من كبار الموظفين والأعيان . وكانت السفينة البخارية الخاصة بسعادة الحاكم قد أعدت لنقل الامام ومستقبليه إلى الخرطوم .

وفى صباح السبت ٢١ يناير شاهد الامام آثار المهدية بأم درمان ، ثم المحكمة الشرعية ، ثم المدرسة التى اختبر تلاميذها ووقف بنفسه على مقدار حظهم من العلم ، وقضى يومى الأحد والاثنين فى زيارة مدرسة غردون ومايتبعها من الورش المعدة لمن يريدون التخصص فى الحرف كالنجارة والحدادة والبرادة وصب المعادن والنقش . وهكذا قضى الامام الأيام الأولى له فى السودان فى زيارة دور العلم ومعاهده ، وهى التى كان يعلق عليها كل آماله فى الإصلاح ، فلما اطمأن إلى مايجرى عليه التعليم فى تلك البلاد بدأ فى زيارة دواوين الحكومة والمحاكم .

ولقد أراد المصريون الموجودون فى السودان دعوته إلى زيارة ناديهم فماطل فى تلبية الدعوة لما بلغه من إقبالهم على شرب الخمر فى ذلك النادى. وكان غرض الامام من رفضه لتلك الدعوة الكريمة الاحتجاج الصامت على عمل ينكره أشد الإنكار بل يراه سببا من أسباب هذا الضعف الطارئ وهذا الانحلال الذى دب فى صفوف المسلمين.

وآلم المصريين رفض الإمام رجاءهم، واستكثروا أن يعود إلى وطنهم دون أن يعرج على ذلك النادى، وقبل أن يشملهم بعطفه. وخاف المصريون أن يصبح هذا العمل حديث الناس وسبة عار فى جبينهم فألحوا فى رجائهم، وتوعدوا من بلغ الامام ما أغضبه وأثاره. وخاف الامام أن يحدث بامتناعه بعد هذا فتنة بينهم فزار النادى وتفقد جوانبه واستمع لخطبائهم وشعرائهم، ولكنه أبى أن يغادر المكان قبل أن يلقى عليهم درسا فى مضار الخمر والحكمة فى تحريمها.

وفى مساء الخميس ٢٦ يناير لبى الأستاذ الامام الدعوة الموجهة إليه من الضباط المصريين لتناول العشاء فى ناديهم (الميس) ثم أدى فى اليوم التالى صلاة الجمعة فى المسجد الجامع بأم درمان، ثم زار مدرسة الراهبات بدعوة من ناظرها القس «جون».

وفى ظهر يوم الثلاثاء ٣١ يناير وهو يوم عودته إلى مصر تناول طعام الغذاء مع الحاكم العام وقاضى القضاة ومفتى السودان وغيرهم.

يقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار وكان فى ذاك الوقت أستاذا بمدرسة غردون الكلية :

« كانت أيام إقامة الأستاذ بالخرطوم عندأهلها وأهل أم درمان أعيادا ومواسم ، وكانت البيوت التى يكون فيها كأنها الكعبة لاتخلو من طائف ، والعلماء والأدباء يوافونه من كل فج وناحية ، هذا سائل وذاك مسترشد والآخر مستبصر فى كتاب الله أوسنة نبيه أوعقيدة من العقائد أوعلم من العلوم .

« وربما حمل إليه الرجل عدة أسفار يعرض عليه ما أشكل عليه فهمه منها ، فكان يميط اللثام عن كل معضلة ، ويذلل صعاب المشكلات بفكرته الوقادة ، وكان يحث الناس على فعل الخير مع أهله وغير أهله ، وجرت لذلك مناقشات طويلة فى غير مجلس بينه وبين محبيه وأصدقائه من أفاضل الأدباء ، وقد أربى فى رأيه هذا على أبى العلاء فى قوله :

« كن صاحب الخير تنويه وتفعله

مع الأنام على أن لايدينوكا »

« وكان يقول : يجب على الإنسان أن يفعل الخير على أنه خير على كل حال سواء صنع مع أهله أوغير أهله (لايذهب العرف بين الله والناس).

« وبالجملة فقد كان فى السودان مثال الخير ، وموضع عناية العامة والخاصة ، وقد كان صاحب السعادة الحاكم العام يعنى به عناية العارف بقدره ، الذى يقدر مساعدته للبلاد السودانية قدرها ، وكان يسأله عن

ملاحظته على الكلية والمحاكم الشرعية ، فإذا أخبره بشىء قيده فى مذكراته ليجرى الأمر على مقتضاه فى الوقت المناسب ». [1] وقد تركت أسفار الامام فى نفسه أثرا كبيراً كتب عنه مانصه :

« أما الأسفار إلى البلاد العثمانية ومعاشرة كثير من المسلمين غير مسلمى مصر فقد كان من نتائجها عندى أنى عرفت حق المعرفة أن مرض المسلمين نشأ من أمرين : الأول الجهل بدينهم وإبداع مالم يكن منه وإلصاقه به واختلاط ماهو من الدين بما ليس منه ، حتى صار ما هم عليه دينا أجنبيا عن أصل الدين الاسلامى الطاهر الرفيع . الأمر الثانى استبداد الحكام الظالمين من المسلمين فى جميع أقطار الأرض .

« وقد سافرت بعد ذلك مرات إلى أوربا وأفريقيا فكان أثر الاسفار فى بلاد المسلمين زيادة البصيرة فى ذلك الذى عرفته لأول الأمر ، وأثر الأسفار فى أوربا قوة الأمل فى إصلاح أحوال المسلمين ، فما من مرة أذهب إلى أوربا إلا ويتجدد عندى الأمل فى تغيير حال المسلمين إلى خير منها ، وذلك بإصلاح ما أفسدوا من دينهم ، وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شئونهم ، وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون أفراد ظلمتهم ، وهذه الآمال وإن كانت تضعف فى نفسى عند ما أعود إلى ديارى لكثرة ما ألاقى من العنت ، وشدة ماأصادف من المصاعب ، وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر فى منافعهم ، وشدة عداوتهم لأنفسهم ، وقوة رغبتهم فى تمكين

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٨٨٨ .

ظالميهم من رقابهم ، وحبهم فى الاستعباد لهم لغير سبب معقول ، لكنى متى عدت إلى أوربا ومكثت فيها شهرا أوشهرين تعود إلىّ تلك الآمال ، ويسهل علىّ تناول ما كنت أعده من المحال ، ولا تسألنى عن السبب فى ذلك فإنى لا أستطيع تفصيله ولكن هذا ماتحدثه الأسفار فى نفسى » (١) .

وقد سمعت من أكثر من سيدة من عائلة الأستاذ الامام أنه أحس فى رحلتـه إلى السودان ، ولأول مرة ، بالمرض الذى لازمه حتى وفاته . ولم تطل المدة التى لازمه فيها هذا المرض أكثر من ستة أشهر وافاه بعدها الأجل المحتوم .

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٨٤٦ و٨٤٧ .

الدفاع عن الإسلام

جاء محمد عليه الصلاة والسلام بالدين الحق، ورسم فى حياته طريق الدعوة إليه، وبين للذين سيخلفونه على رعاية هذا التراث المجيد كيف يعملون على نشره والمحافظة عليه. ولم يلحق رسول الله بالرفيق الأعلى حتى كانت الرسالة قد بلغت، وأكمل الله للناس دينهم وأبلغهم على لسان نبيهم المصطفى فى حجة الوداع: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى. ورضيت لكم الاسلام دينا» (١).

وسار الخلفاء الراشدون سيرة الرسول، ولم تمض سنوات حتى كان علم الاسلام يرفرف خفاقا على كثير من البلاد، وحتى كان جند الاسلام يحمرون الممالك والأمصار فى الشرق والغرب، ودانت البلاد لسلطانهم من الأندلس فى غرب أوربا إلى الهند وإلى التركستان وإلى الصين فى شرق آسيا، وانتهى أمر المسلمين بعد هذا التقدم السريع فى قليل من السنين إلى وقوفهم وجها لوجه أمام المسيحية فى مدينة قسطنطين، كما تغلب المصطفى على الوثنية ومحاها من كل بلد وجدت فيه هو وخلفاؤه الأولون.

وقف المسلمون بعد هذه الفتوحات الباهرة، وهذه الانتصارات العظيمة أمام المسيحيين موقف جهاد ونضال. فقد كان المسلمون يجاهدون

---

١ - قرآن كريم. سورة المائدة آية ٣.

لنشر دينهم ، والدعوة إليه وتعميمه فهو دين الأولين والآخرين . وكان المسيحيون يناضلون هذا الغزو الذى يأتيهم من كل ناحية . هذا الغزو الذى يحاول السيطرة على بلادهم وعقولهم وإيمانهم . « واستمر القتال بين أتباع عيسى وأتباع محمد قرونا متتالية ، ولم يقف القتال على حرب الأسنة والمدافع بل تعداها إلى ميادين الجدل والنضال الكلامى ، جاء المتقاتلون فيها بأسماء محمد وعيسى ، وجعل كل فريق يلتمس الوسيلة لتأليب السواد ، واستثارة حماسة الجماهير وتعصبها [١] » .

« على أن الإسلام حال بين المسلمين وبين الحط من مقام عيسى ، إنه عبدالله آتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركا أينما كان ، وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حيا ، وبرا بوالدته ولم يجعله جبارا شقيا ، فسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا ، أما المسيحيون فقد جعل الكثيرون منهم يعرضون بمحمد ، وينعتونه بأوصاف يبرأ منها المهذب من الرجال ، شفاء لما فى نفوسهم من غل ، واستفزازا وحفزا لشهوات النّاس الدنيا » [٢] .

•

ولم تهدأ ثائرة النفوس على الرغم من تقدم العالم ، وعلى الرغم من هذه الحضارة التى قضت على عصور الهمجية والجهل ، وعلى الرغم من هذه النزعات الجديدة التى يطلقون عليها حرية الأديان وحرية الرأى . ولعل هذه

---

١ - حياة محمد لمعالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا صفحة ٢ .
٢ - نفس المصدر صفحة ٣ .

الثائرة أشد توقدا فى هذه الأيام مما كانت عليه فى العصور الماضية ، ذلك لأن القتال مستمر فى الخفاء يعمل فى ظلام التبشير بالدون من الوسائل .

وكان لهذه الحرب الجديدة التى شنها كتاب أوربا وفلاسفتها فى العصر الأخير الذى يسمونه عصر النور والعلم ، أوعصر التسامح وسعة الأفق أثر كبير فى حياة الشرق الفكرية . وكانت هذه الحرب ضد الاسلام أوضد محمد وأتباعه على وجه أصح سببا قويا فى قيام المسلمين للدفاع عن نبيهم الكريم الذى أصبح هدفا لسهام نقدهم بعد أن عجزوا عن مهاجمة رسالته . وكانت سببا قويا فى قيام المسلمين بالبحث عن الأسباب التى ساعدت أولئك الكتاب والفلاسفة على مهاجمتهم والنيل منهم لعلاجها والقضاء عليها .

ولقد كان من آثار هذه المنبهات كلها أن شهد العالم فى السنوات الأخيرة نشاطا يدب فى أوصال الشعوب الإسلامية ، ورغبة قوية فى الدعوة إلى الاسلام ونشر تعاليمه الصحيحة فى كافة البلاد والأمصار . وكان من دلائل هذا النشاط ما يعده الأزهر من بعثات مختلفة ، وماتدعو إليه الهيئات والأفراد من تعاون الدول الإسلامية .

وذكرتنى هذه الجهود لإعلاء شأن الإسلام وإعادة مجده القديم

بالجهود الجبارة التى بذلها المرحوم الأستاذ الإمام، ولذلك رأيت أن أخصص لهذه الجهود فصلا قائما بذاته أجمع فيه ماتناثر خلال هذا الكتاب من وسائله لإعلاء شأن الإسلام، وسبله لإعادة مجده القديم وعزه الدابر.

* * *

لم ينكر الكتاب ولا المؤرخون أن الامام جاهد لنشر الدعوة إلى الاسلام الصحيح، ولتطهيره مما طرأ عليه جهادا عنيفا لم يقم غيره بمثله، وأنه تحمل كثيرا من العنت والاضطهاد فى سبيل هذه الدعوة وأنه لم يشك مع ذلك أويتألم، لأنه كان قوى العزيمة عظيم الأمل فى نجاح مسعاه. كان الامام عظيم الأمل فى نجاح هذا المسعى، قوى الأمل فى تنفيذ خططه الاصلاحية، ولذلك أرسل أشعة بصره النافذ إلى ماحوله من الشعوب الاسلامية، غير أن بصره وقع على ضعف يدب فى أوصال هذه الشعوب وجهل يفتك بالعقول، وضلال يسد على الناس مسالك الطرق، وحيرة توقعهم تحت سلطان الأجانب. وآلم الامام مارآه وما وصل إليه حال المسلمين، وماوصلت إليه حضارة العرب، وماانتهى إليه مجد المؤمنين برسالة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. ودفعه الألم إلى بحث أسباب هذا الضعف الطارئ، وانتهى من بحثه إلى أن السبب فى وجود هذه العلل هو بعد المسلمين عن الدين، وأخذهم بكثير من العادات الشائنة التى لاتمت إليه بصلة. وعلى ضوء هذه النتيجة سعى الامام لنشر الاسلام الصحيح لأنه

خير علاج لهذه العلل والأدواء.

ويرى معالى مصطفى عبدالرازق باشا أن دعوة الشيخ إلى الاصلاح الديني تنتظم أمورا ثلاثة [١] :

١ — تحرير الفكر من قيد التقليد حتى لايخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان، ولايتحكم فيه زعماء الدنيا ولازعماء الأديان.

٢ — اعتبار الدين صديقا للعلم لاموضع لتصادمهما، إذ لكل منهما وظيفة يؤديها. وهما حاجتان من حاجات الفكر لاتغنى إحداهما عن الأخرى.

٣ — فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.

يقول معالى مصطفى عبدالرزاق باشا :

« ومنابع الاسلام فى سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه : هى الكتاب وقليل من السنة فى العمل.

« هذا هو الأصل الذى ينبغى أن يرد اليه الدين الاسلامى فى مذهب أستاذنا.

« ولما كان الثابت بالتواتر من السنة قليلا فقد صرح الشيخ فى تفسير سورة الفاتحة (إنه يجب أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب

---

١ — مقدمة العروة الوثقى طبعة المكتبة الأهلية فى بيروت صفحة ٢٨ .

والآراء فى الدين) » [1] .

وليس غريبا أن يسعى الإمام هذا السعى المتواصـــل ، ويجاهد هذا الجهاد العنيف إذا علمنا أنه تتلمذ على السيد جمال الدين الأفغانى الذى يعتبر المحرك الأول للشعور الدينى فى العصر الحديث ، ومشعل الثورات فى الشرق ضد الاستعمار والظلم . غير أن هناك فرقا بين المعلم وتلميذه ، فقد رأى جمال الدين أن الإصلاح لا يتأتى إلا بثورات شاملة تأتى على الفاسد ولا تبقى غير ما هو صالح للبقاء ، أما محمد عبده فكان يرى أن التعليم والتربية الصحيحة ، وغرس الفضائل فى نفوس الشعوب خير الطرق الموصلة إلى الاصلاح المنشود .

وكانت ميادين الإمام التى بذر فيها آراءه هذه تنحصر فى دائرتين : دائرة ضيقة محدودة شملت البلاد التى وجد فيها بالفعل ، وأثر فيها بشخصه كمصر ، والبلاد السورية وفرنسا وانجلترا وتونس والجزائر . أما الدائرة الثانية فبعيدة الحدود لأنها شملت البلاد التى لم يؤثر فيها بشخصه ، وإنما أثر فيها بمقالاته فى الصحف ورسائله إلى الاخوان والمريدين من أهلها ، والتى أثر فيها بفتاواه التى كان يبعث بها إلى السائلين فى مختلف البلاد والأنحاء كالهند والصين واليابان وسنغافوره وجاوه وسومطره وغيرها .

---

١ – مقدمة العروة الوثقى طبعة المكتبة الأهلية فى بيروت صفحة ٢٨ .

أما الطرق التى سلكها لبلوغ غايته ، وأما وسائله لنشر آرائه وآماله فكانت تنحصر هى الأخرى فى خمسة أمور أو وسائل عظيمة الأثر والفائدة .

١) أول هذه الوسائل إقناعه الشفوى الذى كان يلجأ اليه فى مجالسه الخاصة والعامة . وكان من المزايا التى أنعم الله بها عليه قوة الاقناع فلم يعالج موضوعا من الموضوعات إلا وكان الفوز حليفه ، والنصر رائده . ولم يترك سامعيه مرة إلا وقد آمنوا بالدين إيمانا لا حد له ، ووثقوا بما يدعو إليه وثوقا لا مزيد عليه . وكانت مجالس الامام عبارة عن حلقات درس يفد إليها الناس على اختلاف مشاربهم وتباين آرائهم ، وكانت الحلقات تزدحم بالوافدين عليها من مختلف الملل والأجناس حتى المسيحيين منهم ، وقد رأينا كيف كانت حلقات هذه الدروس تعقد فى الأزهر بمصر ، وفى جامع الباشورة والجامع الكبير ببيروت ، وفى كل مكان حل به ، ثم فى داره بعين شمس ، كل ذلك ليسمع المقبلون عليها آيات بينات ينزلها الله سبحانه وتعالى على لسان ذلك المجدد العظيم تحقيقا لقول نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » .

° ° °

٢) أما الوسيلة الثانية فتحريره فى الصحف الرسمية منها وغير الرسمية . بدأ

حياته الصحفية بجريدة الأهرام إذ بعث إليها بالمقالين اللذين أخذهما عن جمال الدين وأشرنا إليهما من قبل. ولم ينقطع الإمام عن الكتابة فى هذه الصحيفة وفى غيرها حتى عين محررا بالوقائع المصرية ثم رئيسا لتحريرها. وكانت مقالاته طوال هذا العهد تدعو إلى الاصلاح الاجتماعى، كما كانت تدعو إلى تنظيم دولاب العمل الحكومى، وتقوية عزائم القائمين بالشئون العامة، وتعليم الأفراد ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، ولكنها مع هذا لم تكن تخلو من مقالات تتصل بالناحية الدينية كمقالات حكم الشريعة فى تعدد الزوجات، وإبطال البدع من نظارة الأوقاف، وبطلان الدوسة، وتأثير الدين فى التعليم والعقيدة. فلما نفى إلى بيروت كتب فى مجلة ثمرات الفنون، فلما كان فى باريس كتب فى جريدة العروة الوثقى.

وامتازت مقالات هذا العهد الجديد زيادة على ماسبق بالدعوة إلى الاصلاح الدينى الذى نزعت اليه نفسه، وبالدعوة إلى تآلف الشعوب الاسلامية المختلفة واتحادها تحت راية الخلافة الإسلامية. نذكر من هذه المقالات على سبيل المثال مقالات الجنسية والديانة الاسلامية، والنصرانية والاسلام، والوحدة الاسلامية، وامتحان الله للمؤمنين، وسنن الله فى الأمم وغيرها. ونجح الإمام فيما قصد إليه من هذه الكتابات كلها فقد ترك للعالم خلفا صالحا تغلغلت جهوده فى كل ناحية.

كتب الامام ضمن ما كتب تحت عنوان «الوحدة الاسلامية»: (١)

«أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه

---

١ – العروة الوثقى صفحة ٢٤٦ وما بعدها.

من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارفت أرواحهم وائتلفت آحادهم ، ولكن وا أسفاه تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لاأمر فيها ولانهى . هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب .

« الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية من أشد أركان الديانة المحمدية ، والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين ، لايحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم ، ولا كتاب يثبت ، ولا رسائل تنشر .

« إن رعاة المسلمين فضلا عن علمائهم تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء ، ولولا وجود الغواة من الأمراء ، ذوى المطامع فى السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، وشماليهم بجنوبيهم ، ولبي جميعهم نداء واحدا : إن المسلمين لايحتاجون فى صيانة حقوقهم إلا إلى تنبه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع ، واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم الناشىء عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار » .

إلى أن قال :

« أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويا نسل الأقيال ، هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ لا ، لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم ، إن من أدرنة إلى بيشار دولا إسلامية متصلة

الأراضى ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن الخمسين مليونا ، وهم يمتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة . أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ؟ أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله : (إنما المؤمنون إخوة) فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب [1] .

لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا ، فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه . ألا إن هذا بعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة ، وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات » .

* * *

أما الوسيلة الثالثة فتأليف الكتب القيمة التى كان غرضه منها تقريب الدين من أفهام الناس ، وإظهاره على حقيقته ، وشرح أصوله وأحكامه

---

١ - بعد مضى أكثر من ستين عاما على كتابة هذا الموضوع تحقق ما كان يدعو اليه الاستاذ الامام ويجاهد فى سبيله ، فقد تم فى يوم الخميس ٨ ربيع الثانى من عام ١٣٦٤ - ٢٢ مارس من عام ١٩٤٥ توقيع رؤساء الوزارات فى الدول العربية على ميثاق جامعة الدول العربية التى نرجو أن يكون من ورائها الخير والرفعة لجميع الشعوب العربية ووسيلة لتحقيق أمانيهم القومية وحفظ السلام .

شرحا يتفق ومقتضيات العصر على أن يكون خاليا من كل غريب ودخيل ومن أشهر مؤلفاته « رسالة التوحيد [1] » التى انتشر خبرها فى الشرق والغرب ، والتى أعجب بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء . ويكفى أن نأتى بتقريظ الشيخ سعيد الخورى الشرتونى « الكاثوليكى » لنبين قيمة هذه الرسالة وما تركته من أثر قال :

« أيها الشيخ الفاضل

« بينا أنا فى لوعة من طول البعاد ، واليأس من اللقاء ، أتلقى أخبار مولاى من سيادة الحاج محيي الدين حماده ، إذ وردتنى هديتكم التى كشفتم بها عار العصر ، وجلبتم له بها الفخر ، وهى مؤلفكم الفريد فى علم التوحيد ، الذى لا ريب عندى أن الله يثيبكم عليه بكرامة الدنيا وسعادة الأخرى بعد طول العمر . ولم أتعجب مما وقعت عليه فيه من البدائع ورأيته من الجواهر ، لصدوره ممن كشف الله عن بصيرته ، وميزه بالاطلاع على أسرار المعقول والمنقول ، واختصه بفطرة شقيقة المروءة والكرم ، أخت كل مأثرة ومحمدة . وما أظن ذوب العسل المصفى أحلى عندى منه . أقرأه ولا أمل ، ثم أعيده ملتذا به ولا التذاذ السامع عندما يسمع من المغنى نغمة تطرب سمعه وتوائم ذوقه . فياشرف مصر الاسلامى بك ، ويافخر آدم بمثلك . فكأن الذى يطالع الكتاب المشار اليه يرى شخصا يشخص كل مايخالج

---

١ ـ قام معالى مصطفى عبدالرازق باشا ومسيو ميشيل بترجمة هذه الرسالة الى الفرنسية بعد أن وضعا لها مقدمة عن محمد عبده وتعاليمه .

الفكر ويدور فى الخاطر ، ولا يجد المتفكر طريقا لإخراجه بعبارة تحمل معناه — ما أنت فى كل ما تشرع فيه إلا رجل جديد عندنا مع طول معاشرتنا وكثرة مخالطتنا ، فلا غرو أن يكون دماغك مادة لكل بديعة ، ومخزنا لكل دقيقة . والخلاصة أن مثلك آية من آيات الله تشهد بقدرته ثم وجوده ، وتصدع بأن بين الناس فروقا بعيدة المدى .

هذا وأسأل الله أن يتولى مكافأتك على هذه الخيرية ، ويديمك شرفا للإنسانية ، وخير ركن للاسلام ، بمنه وكرمه .

بيروت ٦ ربيع أول سنة ١٣١٦

الداعى

« سعيد الخورى الشرتونى [١] »

ومن مؤلفاته « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، وهى عبارة عن مجموعة من المقالات أعدت لمجلة المنار ثم طبعت فى مجلد واحد ، وكان غرضه من كتابتها « إيقاظ المسلمين وإرشادهم إلى أسباب تأخرهم وضياع مجدهم وزوال ملكهم ، وإلى المخرج منه ، فهو لم يترك شيئا من هذه الأسباب إلا وقد بينه أحسن بيان ، مؤيدا بالبرهان ، فترجيح الاسلام على النصرانية فى حرية العلم ونشأة المدنية كان هو الغرض الأدنى المحرك للكتابة ، وإرشاد المسلمين المذكور هو الغرض الأعلى »[٢] .

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٧٨١ .

٢ - نفس المصدر صفحة ٧٨٧ .

وله مؤلفات أخرى «كرسالة الواردات» وهى فى التوحيد على طريقة الصوفية وأسلوبهم، كتبها فى أيامه الأولى. أيام كان لايزال متأثرا بالتصوف، فهى «تنم فى وضوح وجلاء عن آثار دراساته وتجاربه الصوفية، كما تظهر أيضا أثر دراساته الفلسفية التى تلقاها عن جمال الدين»[1].

ويدخل ضمن هذه الوسيلة رسائله التى كان يكتبها لأنصاره ومؤيديه فى أقطار العالم المختلفة ليشجعهم على المضى فى خطط الاصلاح، وليثبت قلوبهم على الايمان، وليعلمهم الصبر على المكاره، وليأخذ بيدهم فى الشدة، ومن أمثلة هذه الرسائل تلك التى بعث بها إلى «مكى بن عزيز» وكان من أصدقائه على الرغم من بعد المزار، يقول له الامام:

«ألا أيها الشيخ الجليل. إن الله قد اشترى منا حياة دنيئة لو طلبت من عاقل لجاد بها بلا عوض لقيامها على قواعد الأتعاب، وقوائم الأوصاب، بدايتها ضعف، ونهايتها عجز، ومابينهما خروج من أحدهما دخول فى الآخر، مافات من لذاتها يوجد الأسف على فواته، وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه، واللهف الدائم على تحصيل ما يؤمل منها، فليس فيها حال تخلو من آلام، وقد وعدنا دينا حقا أن يعوضنا عنها سعادة أبدية فى حياة

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٣١، ولمحمد عبده كتب أخرى كحاشية عقائد الجلال الدوانى، وشرح نهج البلاغة، وشرح مقامات بديع الزمان الهمزانى، وشرح البصائر النصرانية، وله مؤلفات أخرى لم يعثر على أصولها حتى اليوم وتعتبر من أقيم ما ألفه بشهادة الامام نفسه.

أبدية لايشوب لذاتها ألم ، ولا يمازج صفوها كدر ، وذلك عندما تسلم له السلعة تامة فى نهاية الأجل ، فإن لم نقبل بيعة الله فى ذلك كنا المغبونين ، وإن لم ندفع له سلعته خالصة كنا الخاسرين ، حياتنا ذاهبة إلى الفناء رغما عنا ، وليس لنا من إمكان للخلود فيها ، فانظر إلى رحمة الله فى شرائها منا ، وإجزال العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكا لنا ، وفى سعتنا أن نستبد به عليه ، ونمنعه مراده منه ، جلت عظمته ، ووسعت رحمته ، ألا فلنتق الله ولا نبخل عليه بما هو له ، ولا نغتر بإمهاله لنا ، ومطاولتنا عليه فشمر عن ساقك واحسر عن ذراعك ، واذهب إلى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين ، وتأليبهم على تلبية داعى الإيمان ، والله يتولى إرشادك فى جميع الأحوال »[1] .

° ° °

ولما كانت الدعوة إلى الاسلام وتعاليمه الصحيحة يجب أن تكون عالمية لاتقتصر على قطر دون قطر أو بيئة دون بيئة ، فقد حلق الامام فى آفاق أوسع من الآفاق السابقة ، وبدأ يتصل بشئون الفكر الخارجية . ويتتبع البحوث فى مختلف البلاد . ولذلك كانت الوسيلة الرابعة من وسائل دفاعه ودعوته نتيجة لهذا الاتصال المباشر والنشاط الجديد . أما هذه الوسيلة فردوده على الطاعنين فى الاسلام كلما اقتضى الحال ذلك أو لاحت الفرصة إليه . وأشهر هذه الردود رده على مسيو « جبرائيل هانوتو » وزير

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٥٦١ .

الخارجية الفرنسية ، فقد نشرت جريدة « الجورنال دى بارى » مقالا له فى أوائل عام ١٩٠٠ بعنوان (وجها لوجه مع الاسلام والمسألة الاسلامية) ، ونشرت الترجمة بعد ذلك فى جريدة المؤيد ، « وكان الغرض الأول الذى رمى إليه المسيو هانوتو من مقاله هذا : هو أن يحرك الحكومة الفرنسية والشعب الفرنسى إلى التحقق من وجود اختلافات بين وجهة نظر الشعوب الاسلامية فى المستعمرات الفرنسية ، ووجهة النظر المسيحية ، ولكى يحث حكومته على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتهم مع العالم الاسلامى »[1] . فكأنه كان يود أن تتحرش فرنسا بالمسلمين ، وأن يقيم بينهما نزاعا ينتهى بالقضاء على مالتلك الشعوب الضعيفة من حقوق وحريات . وبدأ مسيو هانوتو كلامه بقوله :

« لقد أصبحنا اليوم إزاء الاسلام والمسألة الاسلامية . .

« اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الإفريقية بسرعة لاتجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا ، ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب فى الوصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهى المدنية الآرية المسيحية ، ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى وصلوا إليه ، وأكرهوا على الرجوع إلى إفريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ، ولكن كان لايزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٨٢ .

(القسطنطينية) ومن جهة أخرى ببلدة (فاس) فى الغرب الأقصى معانقا بذلك الغرب كله) [١] .

ويقول فى موضع آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والإسلامى ، فرأى فى الاسلام العدو الألد ، والخصم الأشد . قال المسيو (كيمون) فى كتابه باثولوجيا الاسلام : إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مروع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولايوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمع فى القبائح ، وماقبر محمد فى مكة (؟) إلا عمود كهربائى يبث الجنون فى رءوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة ، والذهول العقلى ، وتكرار لفظة الله إلى ما لانهاية ، والتعود على عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحانى ، والليمانيا ، والماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات .

« أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول مسيو كيمون) ، وأن الواجب إبادة خمسهم (كما يقول أيضا) ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (وهذا أيضا قوله) . وهو

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤٠١ .

حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى . أليس كذلك ؟ . ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو (١٣٠) مليون مسلما ، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء (المجانين) للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم » [1] .

نشر هذا وأكثر منه فى المؤيد واطلع عليه الإمام فى القطار أثناء عودته إلى داره بعين شمس ، وما كاد يقرؤه حتى استشاط غيظا وامتلكته رعدة المحموم ، وبقى فى مكانه يتلوى من شدة الألم . وما أن وصل داره حتى تهيأ للرد عليه . وظهرت صحف الصباح وفيها بريق الحق يخطف الأبصار ، وبرهان الحقيقة يخرس الألسنة . وجاء الرد مفحما أعلى ذكره وأذاع شهرته فى العالم الاسلامى كله ، وجعله أقدر المحدثين فى الدفاع عن الاسلام . وكان الامام يرجو من رده المسكت المفحم وقف الساخرين من الدين ، والطاعنين فيه عند حدود لايتعدونها ، وإجبارهم على احترام الإسلام ومعتنقيه . وكان يرمى إلى إظهار ما فيه من محاسن ، وما تضمنه من خير للإنسانية عامة . وكان الإمام يرمى إلى تنبيه المسلمين إلى أخطائهم لتدارك مافات والعمل الصالح لما هو آت . قال فى رده :

« ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟

« هل كانت تلك المدنية هى التسافك فى الدماء ، وإشهار الحرب بين

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤٠٩ ، ٤١٠

الدين والعلم ، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل ؟ نعم ! ! ! هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام .

« ماذا حمل الاسلام إلى أوربا ، وماهى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس ، وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين ، واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعا يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا فى ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون .

« إنى أكيل لمسيو هانوتو إجمالا بإجمال ، والتفصيل لايجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به .

« إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ماجاورها ، وعمل رجال الدين المسيحى على إطفائها عدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا مانبت فى أرضهم بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة » [1] .

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤١٧ .

وقال فى موضع آخر : «يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الاسلام والمسلمين، ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف فى طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما أن يظهرا ضعفهما، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما.

«أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة، فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة. وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانجليز مثل «إسحق تيلر» وهو قس شهير ورئيس فى كنيسة :

«إنه يمتد فى أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والإقدام من أنصاره» [1].

وللإمام رد آخر كتبه تعقيبا على ما نشره (فرح أنطون) صاحب مجلة الجامعة الذى كان يرى أن المسيحية أوسع صدرا للعلماء والفلاسفة وأكثر تسامحا مع العلم من الإسلام، والذى كان يرى أن ضعف الاسلام فى هذه الناحية يرجع إلى اجتماع السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى يد الحاكم المسلم الذى لايستطيع التخلص من أثرة إحدى السلطتين وطغيانها على الأخرى. وقد استطاع الامام بدفاعه المجيد أن يرده إلى الحق والصواب وأن يثبت له العكس، مبرهنا على ذلك بما جاء فى كتب التاريخ، وبما

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٤٣١ و٤٣٢.

تحدث به العلماء والمؤرخون أنفسهم [١] .

* * *

ومن الوسائل العالمية التى لجأ إليهـــا الأستاذ الامام تحقيقا لفكرته السامية تأليف الجمعيات للتقريب بين الأديان . وأهم هذه الجمعيات أثرا فى نشر الدعوة إلى الاسلام « جمعيـة التأليف والتقريب » التى ألفها أيام كان مقيما فى بيروت ، والتى ضمت بعض الإنجليز واليهود وعددا كبيرا من رجال الشرق .

وقد فصلنا كل شىء عن هذه الجمعية فى فصل سابق ، ونحب هنا أن نقول إن أعضاءها لم يكونوا كلهم مقيمين فى مكان واحد ، ولكنهم كانوا منتشرين فى بلاد كثيرة ، وكان كل منهم يسعى فى دائرته ويتصل بالجمعية عن طريق لم تنقطع طول مدة بقائها .

وكان الامام يستعين على نشر أغراضه وبث أفكاره بالسفر قدر المستطاع ، وقد رأينا كيف سافر إلى كثير من بلاد الشرق والغرب مستطلعا أخبـار المسلمين دارسا أحوالهم . وهكذا جاهد الامام حتى وافاه الأجل المحتوم ، نضر الله ثراه ، وأفسح له فى جناته .

---

١ - من يحب الوقوف على تفصيل ما كتبه الامام فى هذه الناحية عليه بمراجعة كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للاستاذ الامام .

الفصل السابع

١ - شخصية الامام وأخلاقه ٢ - عقيدته وايمانه
٣ - مرضه ووفاته

شخصية الإمام وأخلاقه

كان محمد عبده قوة نفس وقوة بدن ، كان يرى الرأى فلا يحيد عنه وإن وقفت الدنيا كلها فى وجهه ، تسنده فى ذلك نفس قوية عزيزة لم تخضع لذل أو ضيم ، ولم يكن ليثنيه عن العمل المتواصل ، والجهاد العنيف قوة يخشاها أو سلطان يخاف منه ، أو تهديد يوجه إليه ، وكان رحمه الله لا يخشى غير الموت لأنه القضاء الذى لا راد له ، ولم يكن يخشاه خوفا من لقاء ربه وفزعا من يوم يحاسب فيه المرء على ماقدمت يداه فإنه قد أدى واجبه نحو ربه والناس ، بل كان يخشاه لأنه يسد عليه طريق الاصلاح ، ويحول بينه وبين تحقيق آماله ، وكثيرا ما كان يقول فى ذلك : «إننى لا أخشى شيئا سوى الموت لأنه يقطع علىّ خط السير » (١) .

ولم تكن قوة هذه النفس وعزتها راجعين إلى أصل قديم يفاخر به ، أو منصب يعتز بجاهه ، أو مال تنحنى له الرءوس ، ولكنهما كانا للتربية التى أنشىء عليها ، والخلق الذى تحلى به ، وقد أدركه السيد جمال الدين الذى

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٩٢ .

درج فى حجر السيادة، وترعرع فى بيت الامارة، وهو مجاور فى الأزهر ومنقطع إلى التصوف، يلبس قيصا يبدو من أعلا جيبه صدره الأشعر، وقدأرسل جبة كجبة الدراويش. فراعه من صاحب هذا القشف ما عنده من العزة والإباء. وحفظ الكرامة، ورقة شعور الشرف، وأكبر أن يكون هذا أثر التربية والتخلق فى بلاد سامها الظلم، وتحكم فيها الجور المذلل للإرادات المذل للنفوس، وكأنه سبق إلى نفسه أن هذا أثر وراثة لأحد آبائه الأولين، وأنهم لابد أن يكونوا من الملوك والحاكمين، فقال له مرة أومرارا: قل لى بالله أى أبناء الملوك أنت؟ »[1].

وهل أدل على ما كان لهذه النفس من قوة من ذلك الثبات العجيب والشجاعة البالغة فى تلك الأيام العصيبة التى قاسى فيها زعماء الثورة العرابية آلام السجن وعذاب الانتظار بين الحيرة والهدوء، واليأس والأمل.

لم يتطرق إلى نفس الامام فى تلك الأيام يأس أو قنوط، ولم يعتوره ضعف أوخور، ولكنه قضى أيام السجن يقدم الأدلة على كذب ماذهب إليه رجال الاتهام، ويكشف الأستار الخفية من أمر هذه الثورة. لقد كانت نفس الامام من القوة بحيث لم يصبه الهول والفزع اللذين أصابا غيره، وقد طلب النجاة بالأدلة القاطعة والمذكرات القيمة لاخوفا من العقاب ولكن لمواصلة الجهاد فى مصر، فإن لم تكن مصر مستعدة لتقدير تضحياته

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٩٥٠ .

وجهوده فليعقد آماله على بلاد خير من هذه البلاد ، بلاد تدرك غاياته وتقدر أعماله ، وهنا يجب أن ننصف الإمام فإنه كان على الرغم من هذا يفكر كثيرا فى أمر هذه الأمة ، ويراجع نفسه بعد أن تهدأ ثورة غضبه ، فيعاوده الأمل القوى فى إدراكها لخطط الإصلاح ، ولن يكون الأمل قويا راسخا يعود الى أعماق النفس المرة بعد المرة ثم يعود فيمكن لنفسه مالم تكن النفس قوية مؤمنة . يقول قاسم بك أمين :

« كان بعكس مايراه عموم المصريين فى أنفسهم ، عنده أمل لايزعزعه شىء فى إصلاح أمته ، كان عنده اعتقاد متين فى أن البذرة الطيبة متى ألقيت من أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها » [1] .

وهل أدل على قوة نفس الامام من ثباته أمام معارضيه ، وفيهم المتزلف إلى قصر الامارة يحتمى بقوتها وسلطانها ، وفيهم رجال الحكم بما يملكون من قوة وعتاد ، وفيهم أصحاب الصحف ومايملكون من وسائل الطعن والتجريح ، وفيهم العلماء ونفوذهم الدينى المتغلغل فى نفوس الطلاب والعامة .

ثبت الامام أمام الدسائس والوشايات التى حاولت التنكيل به وخرج نظيف الثوب واليد ، يعترف الكل بفضله وعلمه ونزاهته بعد أن خبروا معدنه وعوده فوجدوه أنقى وأصلب مما كانوا يظنون .

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثالث صفحة ٢٦٨ .

وثبت أمام رجال الحكم حتى توصل إلى تنفيذ كثير مما كان يرجو من إصلاح وتعمير .

وثبت أمام الصحافة المعارضة حتى اضطر أصحابها إلى إحناء الرءوس خشوعا لمن حاولوا النيل منه وكان أنبل مما يظنون . ألم يقل فيه صاحب المؤيد [1] وكان من معارضيه لأهواء سياسية خاصة :

قضى الله فينا بالذى هو كائن   فتم وضاعت حكمة الحكماء

« قضى الله أن يفدح الحادث ، وينزل الكارث ، وتقع المصيبة العظمى والفاجعة الكبرى ، المؤلفة للنفوس ، المبكية للعيون ، المقرحة للأكباد والجفون ، بعد ما خانت الراقى رقيته ، والحكيم حكمته .

وأقر الطبيب منه بعجز   وتقضى تردد العواد

قضى الله أن يرزأ العلم وأهله بوفاة عالم عصره ، وحجة زمانه ومصره أبلغ البلغاء إذا كتب ، وأفصح الفصحاء إذا خطب ، بل أقوى العلماء بيانا ، وأجودهم بالحكمة لسانا ، وأوسعهم فى معارض الكلام باعا ، وأوفرهم فى مفاهيم العلوم اطلاعا ، وأبعدهم فى نظر الأشياء مرمى ، وأشدهم فى المناظرات سهما » [2] .

---

١ - يحسن بنا أن نشير هنا الى أن الشيخ على يوسف كان يحترم شخص الامام ويقدر علمه وجهاده ، ويعترف بفضله ، غير أن الاهواء السياسية كثيرا ما كانت تقفه منه موقف الخصم ، ولكنه حتى فى جدله السياسى لم يستطع أن يسىء الى شخص الامام وكفاءته ، وقد رأينا فى الفصل السابق كيف صحب الامام فى زيارته الى الاستانة .

٢ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثالث صفحة ٢٧ .

ألم تقل فيه اللواء وصاحبها مصطفى كامل باشا أولمن أوغر صدر الخديو عليه بشهادة المرحوم أحمد شفيق باشا :

« فالفقيد فقيد البلاد ، فقيد العلم ، فقيد اليتامى ، فقيد البؤساء ، فقيد الاسلام والمسلمين ، وقد فقدت بفقده مصالح كثيرة عضوا عاملا ، وعالما نحريرا ، فالإفتاء يرثيه ، والشورى تبكيه ، والجمعية تندبه ، والأوقاف تتحسر عليه ، والأزهر يشهد له ، وذلك الجنين (مدرسة القضاة والمحامين الشرعيين التى وضع نظامها) حرمت مساعيه ، والله يرحمه ويحسن إليه »[١] .

وثبت الامام أمام العلماء واتهاماتهم حتى تبينوا أنهم كانوا على خطأ من أمرهم ، وأنهم كانوا يعيشون فى ظلام أعمى أبصارهم عن الحقيقة التى أيدها فيما بعد كثير منهم وقاموا يناصرونها بكل ما أوتوا من قوة .

من كان يستطيع أن يقف هذه المواقف كلها ، ثم يواصل السير رغم عقبات الطريق غير الامام الذى أوتى قوة النفس .

وأى شجرة مهما ارتفعت أغصانها فى السماء ، أوغاصت جذورها فى الأرض لتهتز فى العاصفة الهوجاء ، وتتساقط أوراقها فى الزوبعة الشديدة ، وقد تقتلع من جذورها وتطوح بها الريح هنا أو هناك ، غير أن محمد عبده بقى ثابتا لايتزحزح وإن كان كالشجرة قد تعرض للعاصفة التى لم تبق واحدا فى مكانه ، والزوبعة التى فرقت الناس كل يطلب النجاة بنفسه . ويرجع ذلك

---

١ — تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٣٥ .

كله إلى نفسه القوية التى احتقرت الدنيا فهان عندها كل شىء، وأكبرت الكرامة والعزة فسمت فى نظرها التضحية، وعظم عندها احتمال الأذى، والصبر على المكاره .

* * *

أما قوة جسمه فيدل عليها تركيب بنيتـه، ومتانة عضلاته، وقد روى أن الامام «كان فى سن الشباب يسير مع والده ليلا فى خلاء من الريف فهجم عليهما صائل من قطاع الطريق بيده نبوت مستدير الرأس فيه مسامير كبيرة من الحديد رفعه ليضرب به أحدهما فسبقه الولد بضربة خرّ بها صريعا ويظن أنه مات وأغذا هما فى السير»[1] .

ويقول السيد رشيد : «كاشفنى رحمه الله مرة بكتاب جاءه بغير توقيع يهدده فيه مرسله بالقتل إذا هو ظل مسترسلا فى عمل نسب إليه، ورأيتـه غير مبال به، ولا مكترث له، فقلت له إن لك أعداء لا يخافون الله، وإنك تجىء دارك فى الليل وهى فى الخلاء بعيدة عن العمران، فلو نظرت فى ذلك فقال : أوأنت تقول مثل هذا ؟ إننى لم أهنئ نفسى إلى الآن بأنه وجد فى وطنى من تجرأ علىّ بكلمة «أخطأت» أفأخاف أن يتجرأ أحد منهم على محاولة قتلى .

«وسألته مرة ماذا تصنع إذا هجم عليك لص فى الليل - أتطلق الرصاص من هذا المسدس - وأشرت إلى مسدس معلق بسرير نومه - فقال لا يجوز إطلاق الرصاص فى البيت فإنه يزعج النساء، وليس عندى للص إلا القبض

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ٩٦١ .

عليه والأخذ بقوف رقبته »[٢].

* * *

وإذا كانت الزعامة تتطلب قوة النفس وقوة الجسم، فإنهما فى حاجة كذلك إلى صفات أخرى كثيرة يتوقف على توفرها أوقلتها نجاح الزعيم، فكلما كان الزعيم خطيبا ذرب اللسان قوى الحجة، سريع البديهة، ذكيا وقاد القريحة، عارفا بأحوال الناس، مقدرا للظروف التى تحيط به أو بالجمهور الذى يحاول قيادته، كلما كانت الزعامة أقرب إلى القلوب وأكثر تغلغلا فى النفوس، وكلما كانت من نوع الزعامات التى تفرض نفسها على الجمهور لأن تأثيرها فى هذه الحالة يكون من قبيل الإعجاب والرضوخ.

وقد كان محمد عبده خطيبا يفحم سامعيه، جهورى الصوت، حاد البصر، بارعا فى الارتجال، مستمسكا بالعربية الفصحى فى الكتابة والخطاب، فصيح اللسان، بليغ العبارة، قوى الذاكرة إلى حد غير عادى، راجح العقل، شديد الذكاء، غير أن زعامته لم تكن مع هذا كله زعامة المحافل، أو زعامة المنابر والمجتمعات، ولكنها كانت هادئة تعمل فى صمت لاتخرج عنه إلا إذا دعتها الظروف إلى غير ذلك.

ولعل هذه الناحية من نواحى الامام هى التى جعلت بعض معاصريه

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٩٦٠ و ٩٦١.

ينكرون عليه زعامته ، ثم يغالون فى النيل منه فينكرون عليه جهاده ، أو يفسرونه تفسيرات تخرجه عن معناه الحقيق . ولقد تأثر كثير من شباب ذلك الجيل بتلك السعايات الكاذبة ، والتهم الباطلة ، وصدقوا ما اتهم به من زندقة وكفر ، ثم تناسوا بعد ذلك أمره ، ولم يحفظوا له من الذكر مثل ما يحفظ الشباب للزعماء وقادة الرأى . فلما انطوت تلك الصفحة الخالدة ، وفقدت الأمة رجلا حاول أن يعمل فى غير ماجلبة أو ضوضاء ، وخلا الميدان من مصلح حاول أن يرفع صوت مصر فى أرجاء العالم كله ، شعر شباب الأمة ورجالها بتقصيرهم فى حقه ، وبدأوا من ذلك الوقت يعيدون النظر فى أمره ويعطونه ما يستحقه من تقدير وإعجاب .

* * *

أما موقف الامام من رجال هذه الأمة وقادة الرأى فيها فكان همزة الوصل بين فريقين : الفريق الذى كان يدعو إلى القديم والمحافظة عليه كما نقل إليهم ، وقد اعتبر المنصفون من هذا الفريق محمد عبده مجاهدا فى سبيل الدين ، وناصرا له ، وداعية إليه ، وإن كان يسىء إليهم وإلى طريقة تفكيرهم ويرميهم بالقصور والعجز عن متابعة النهضة وما تتطلبه من حرية الرأى والفكر .

والفريق الذى كان يدعو إلى الاصلاح ، ومتابعة النهضة فى سيرها ، والاسراع فى البحث عن علاج ناجع لهذه العلل والأمراض التى فتكت بالعقول والأبدان . واعتبر هذا الفريق محمد عبده داعية إلى الاصلاح ،

ومناصرا لحركة التجديد وإن كان لايسرع إلى ذلك الإسراع الذى كانوا يرتقبونه ، ولايحاول مزج النهضة الأوربية التى استهوت الكثيرين منهم بالحركة الجديدة التى يناصرونها إلا بمقدار ماتتطلبه مصر الاسلامية من هذه النهضة . يقول الدكتور تشارلز آدمس :

« وجد محمد عبده أن المصريين ينقسمون فى موقفهم من الإصلاحات التى كان يسعى فى تحقيقها إلى طائفتين :

« فالمحافظون وكان يمثلهم الأزهريون وأنصارهم ، كانوا يعارضون أى تغيير معارضة قوية ثابتة ، لأنهم كانوا ينظرون إلى ما وصل إليهم من ذلك الماضى المجيد نظرة التقديس فينبغى ألا يمسه التغيير والتبديل .

« وطائفة أخرى هى طائفة الأحرار أوحزب المجددين ، وقوامهم على الأغلب أولئك الذين تعلموا على الأساليب الحديثة ، وهؤلاء كانوا لايطيقون تقديس القديم الذى يقيد حرية الفكر ، ويجعل التقدم محالا .

« أما محمد عبده فكان همزة الوصل بين القديم والحديث ، وكان فى رأس كل من الفريقين ، فقد كان علما يهتدى بنور علمه فريق المحافظين الذين كانوا يعدونه نصير الاسلام والمدافع عنه وإن كانت نزعته إلى التجديد لاترضيهم .

وكان المجددون يرون فيه الزعيم الذى يرجى من مبادئه وتعاليمه انبثاق الفجر لعهد جديد » [1] .

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٩٢ و ٩٣ .

ولم يكن محمد عبده فى موقفه هذا يطمع فى الاساءة إلى الفريق الأول أو التملق إلى الفريق الثانى ، ولكنه وقف الموقف الذى أملاه الواجب عليه ، والذى أملاه نداء خفى لم يتمهل فى تلبيته والإسراع فى تنفيذ ما أشار به ، ولم يكن حين لباه يجهل ما قد يعترضه من صعاب أوماقد يصادفه من عقبات . ولم تكن تلبيته سبيلا إلى منفعة أوسبيلا إلى وظيفة ، أوجريا وراء الراحة والاطمئنان ولكنها كانت على العكس من ذلك سببا فى معاداته ، والتنكر له ، والنيل منه ، والسعى الذى تحمل فيه الجهد والنصب .

وكان هذا النداء الخفى دليلا على صحة ماذهب إليه ، فقد ظهر فيما بعدمن أنصفوه ، وقادوا الحركة من بعده ، ولايزال كثير منهم أحياء يجاهدون للوصول إلى غاياتها المنشودة .

* * *

بقى علينا أن نذكر أن محمد عبده قد نال احترام المفكرين فى مصروفى العالم الخارجى ، وكانت شخصيته محببة إلى كل نفس أنكرت الصغائر ، وقدرت التضحية ، وعظمت الجهاد . فأما فى مصر فيبدو ذلك من كثرة عدد الذين كانوا يحضرون مجالسه ، أويستمعون إلى دروسه ، أويذهبون إلى داره ، ويبدو من كثرة عدد الذين صادقوه أوتتلمذوا عليه فأخذوا عنه دعوته ثم نهجوا نهجه ، وساروا على منواله ، وكان لهم أثر كبير فى نهضة مصر الحديثة . ويكفى أن نذكر هنا دليلا واحدا نكشف به عن المكانة الرفيعة التى كان الامام يحتلها من قلوب شيعته . . وقد رغبنا فى هذا الدليل

وحده لأنه من شخصية كان اسمها ولايزال أنشودة المصريين يتغنون بها في أفراحهم، ويهتفون بها فى شدتهم.

كان سعد زغلول يكتب إلى محمد عبده كتابة الولد لأبيه أو التلميذ لأستاذه، وطلب الامام أثناء وجوده فى بيروت أن يبعث إليه سعد ببعض أثاث داره، وأسرع سعد بإجابة هذا الطلب، وشكره الامام بخطاب رقيق فرد عليه سعد يقول بعد المقدمة:

« إنى وما أعمل من خير مما صنعت أيدى مكارمكم فلا أستحق شكرا ولا حمدا، بل إن كان هناك مايدعو إلى المديح فالحمد راجع إليكم، والشكر عائد عليكم، وإنى أعد الفخار كل الفخار فى خدمة جنابكم العالى، وأجد تنبيهى إلى القيام بأى خدمة نعمة سامية من حضرتكم لا أقدر على الوفاء بواجب شكرها، وعلى هذا فولاى يرى فى إسناد التفضل والتكرم والاحسان إلىّ زيادة تنازل منه لا أرى نفسى جديرة بها، وعهدى بالمولى القدير أن يتحرر بكراماته موقع الاستحقاق.

« وأظن أن حضرته يذكر أنى فى يوم من الأيام التى نزلت بها فى بيته ذاكرته فى هذا المعنى، ورجوت من مكارمه أن يجعل طلبه أى أمر منى بصيغة الأمر لا بلفظ الرجاء، فإنى أرى فى الأمر الأول فوائد ترتاح نفسى إليها لا أراها فى الثانى » (١).

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٧٠، ١٠٧١.

وأما الإعجاب الذى ناله فى الخارج فيبــدو من تقدير الذين قابلوه أو تحادثوا معه ، ومن ابتهاج البلاد التى كان يزورها بقدومه ، ومن الرسائل الخارجية التى كانت ترد إليـه ممن يريدون الامـام بأمر من أمور الدين ، أو يطلبون رأيه فى معضلة من المعضلات ، أو يرغبون فى الاستفادة من علمه ومعارفه .

وساعد الامام على نيل هذه المكانة ماتحلى به من كريم الصفات ، فقد كان رحمه الله حلو الحديث ، لطيف المعاشرة ، عرف بالحلم والصفح حتى عن المسىء ، ويرجع ذلك إلى سلامة صدره وصفاء قلبـه . يقول السيـد رشيد رضاء : —

«كان بعض كبار علماء الأزهر الوجهاء ، من أولى المناصب فى القضاء ، قد انحرف عنه ، وكان من قبل زميلا له فى طلب العلم ، نخاض فيـه ، حتى عرف بأنه من شانئيه ، فاتفق لهذا الرجل أن صدر عنه ماأغضب الرؤساء الثلاثة : الخديو ورئيس النظار واللورد كرومر . وضاقت عليه نفسه ، ولم يجد له وسيلة يلتحد إليها لإرضائهم أو استمالة بعضهم إليه إلا زميـله القديم ، فجاءه بعد إعراضه الطويل العريض ، وقص عليـه خبره ، فطيب قلبه وطمأنه ، ولم يلبث أن طاف على الثلاثة وكلمهم بمـا أرضاهم عنـه فى يوم واحد» [1] .

* * *

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٩٥١ ، ٩٥٢ .

وكان من أهم صفات الإمام إيثاره للمصلحة العامة ، ذلك الإيثار الذى قلما نجده فى هذه الأيام . ومن يستمع إلى شكوى الناس من موظفين أو طالبي توظف ، ومن فلاحين أو عمال ، ومن أغنياء أو فقراء لايسمع غير نغمة واحدة تتردد على ألسنتهم هى التحدث عن المحسوبية ومقدار ما جنته على البلاد من خسارة ، فهؤلاء الوزراء وكبار الموظفين ، ورجال الأحزاب المختلفة إنما يقربون أهليهم وأصحابهم ورجال أحزابهم ويخصونهم بكل خير . وأقل مايقال فى هذا إنه قد يدفع الشعب إلى التذمر إذا اشتد به الظلم . وطفح الكيل ، وطال به وقت الانتظار ، ولم يجد من يرفع عنه همومه وآلامه ويشعره بالكرامة والإنسانية ، ويشعر فقيره بمساواة غنيه فى كل ما له من حقوق وما عليه من واجبات نحو البلاد ، وأن خير البلاد ومغانمها يجب أن توزع بالعدل بين الناس وأن يكون أساس هذا التوزيع الكفاءة والمقدرة لا القرابة والنسب واسم العائلة .

وكان محمد عبده على عكس ذلك كله لايقرب إلا من يرى أنه أهل لهذا القرب ، ويستشهد الأستاذ حسين شفيق المصرى على صحة إيثاره للمصلحة العامة بقوله : « كنت فى أول عهدى بالسعى إلى الرزق كاتبا للحساب بالطريقة المعروفة بالدوبيا ، ثم عملت فى مكتب المرحوم « محمد بك فريد » رئيس الحزب الوطنى كاتبا للقضايا أيام كان يشتغل بالمحاماة ، وفى ذلك العهد أعلنت الجمعية الخيرية الإسلامية أنها تريد كاتب

حساب ، وحددت موعدا لامتحان طلاب تلك الوظيفة ، فكتبت إليها طلبا ، ودخلت ذلك الامتحان ، فكنت أنا وشاب آخر أول الناجحين ، طبقة واحدة ، فأعيد امتحاننا ، أنا وهو ، فكنا متساويين ، وقررت لجنة الامتحان عرض مسألتنا على مجلس الإدارة لاختيار أحدنا ، وخفت أن يتوسل مزاحمى إلى مجلس الإدارة بوسيط ، فوطنت النية على أن أجاريه فى هذا ، فقابلت المغفور له فريد بك وقلت له إنى قدرت هذا التقدير ، وسألته أن يكون وسيطى لدى المجلس وهو من كبار أعضائه ، وهنا تجلى ما لهذا الرجل العظيم من كريم الأخلاق ، ولم يستنكر أن أطلب منه أن يتوسط مع أن توسطه يخرجنى من مكتبه بانتقالى إلى الجمعية الخيرية ، ووعدنى وعد الصدق والسماحة ، وتحدث إلى الأستاذ الإمام فى شأنى أنى كزميلى فى درجة النجاح .

« ولكن أخلاق الأستاذ الإمام لم تكن غير مقيدة بالتفكير والبحث والعمل بما يقتضيه الواقع ، فقال له — إنهما متكافئان فى القدرة على العمل المرغوب ، وأفضلهما الذى يعرف لغة أوربية ، لأن عمل الجمعية يتطلب من كاتب الحساب أن يستطيع الترجمة للعلاقات التجارية المتصلة بالأجانب .

« ورأى فريد بك مارآه الإمام ، فعين للوظيفة الشاب الآخر ، وأخبرنى بهذا فوجدته عين العدل والإنصاف ، فأسفت على فوات هذه الفرصة وارتاحت نفسى إلى هذا التصرف الحكيم ، وزدت محبة فى الرجلين ،

وتعلمت من الشيخ محمد عبده أحسن درس في الأخلاق وضبط النفس والخضوع للحق والإنصاف » [١] .

وقد اعتبرنا هذا المبدأ الأخلاقى العظيم من أهم ماتحلى به الامام، ذلك لأن الخير الذى يعود من ورائه لايقف عند شخصه أومن يحيط به، ولكنه يتعداهم جميعا إلى الأمة كلها . وخير الأمة فى أن يناط بكل فرد من أفرادها العاملين عمل يتقنه، ويكون قادرا عليه، عالما بدقائقه .

وهناك من صفات الامام الشخصية مايضرب به المثل كوفائه لأصدقائه وإخوانه وفاء لم يعهد مثله فى غيره، وليس أدل على ذلك من أن الصديق الذى كان يحس قربه منه، أو عطفه عليه، وحدبه الدائم على شخصه كان فى مأمن من غوائل الأيام، وتقلبات الزمان، ومكائد الناس، ذلك لأنه لم يكن ليتخلى عنه فى يسر أوعسر . يحميه بجاهه، ويمده بماله، ويقويه بإيمانه، ويشد أزره بإخلاصه إن كان فى حاجة لشىء من هذا كله، فإن لم يكن فى حاجة لشىء منه فالحديث الحلو، والنصرة الدائمة، والعطف الخالد، والمساعدة الأدبية التى لاتنقطع .. وكان أصدقاؤه يقابلونه ودا بود ووفاء بوفاء .

وكان الامام عزيز النفس مع تواضع جم، وكان الناس يظنون عزة نفسه أنفة وكبرياء، وكان الحاسدون والجاهلون يروجون لهذه الفرية

---

١ ـ مجلة الاثنين والدنيا العدد ٢٥٦ صفحة ٤٦ بقلم الاستاذ حسين شفيق المصرى .

التى لم يدفع إليها إلا ترفعه عن التملق ، وإعراضه عن معارضيه وإن كانوا من العظماء .

وكان لفرط صفاء قلبه ونقاء سريرته ، وحبه للناس يحسن الظن بهم ويرفعهم مكانة يظن أنهم أهل لها ، قادرون عليها ، وكان بعض الناس يعيب عليه ذلك وخاصة إذا ظهر عجز أحدهم أوكفره بحقوق المنعم عليه . ولم يكن للإمام حيلة فى ذلك فقد جبل على الخير ، وكان يفعله عملا بما جاء فى الخبر « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله كنت أنت من أهله »(١) .

وكان رحمه الله معتصما بحبل الصدق لايحب الدهان والتملق ، ولكنه يسلك طريقه الى غايتـه معتمدا على صدقه وإخلاصه ، وكان منصفا فى الرأى كإنصـافه فى الحكم ، يكره المكابرة ويعترف بالحق وان كان على نفسه . وكان اذا مال الى جانب الحق فى رأى من الآراء ثبت عليه لايتحول عنه مهما يكن الأمر . ولم يكن يرجعه عن عناده إلا ثبوت خطئه فى الرأى الذى ارتآه ، ولذلك كان لايقـدم على عمل قبـل الروية والتبصر .

وأما جوده وسخاؤه فقد سار ذكرهما فى الآفاق . لم يمنع يده بالعطاء عمن رآه فى حاجة الى ما يقيم أوده ، أو عن سائل جاء يطلب معونته ، فقد كان فى ماله نصيب للسائل والمحروم . ومات الامام وفى صندوق كان يحفظ فيه

---

١ - رواه الخطيب فى رواية مالك عن ابن عمر وابن النجار عن على رضى الله عنهم .

الأوراق المـاليه والأمانات صرر من النقود مكتوب على كل منها اسم من يراد إعطاؤه اياها .. وفى بكاء جوده وسخائه يقول حافظ بك ابراهيم :

« بكى عالَم الاسلام عالِمَ عصره ... سراج الدياجى هادم الشبهات
ملاذ عيـايلٍ ثمـال أرامل ... غِيـاث ذوى عدم إمام هداة
فلا تنصبوا للنـاس تمثال (عبده) ... وان كان ذكرى حكمة وثبات
فإنى لأخشى أن يضلوا فيومئوا ... الى نور هذا الوجه بالسجدات
فيا ويح للشورى اذا جد جدها ... وطـاشت بهـا الآراء مشتجرات
وياويح للفتيا اذا قيـل من لها ؟ ... ويا ويح للخيرات والصدقات
بكينا على فرد وان بكاءنا ... على أنفس لله منقطعات
تعهدها فضـل الامام وحاطها ... بإحسانه والدهر غير مواتى » (١)

* * *

واشتهر الامام بالمروءة والنجدة فلم يتنكر لمتألم جاء يبثه آلامه وهمومه ، ولم يغلق بابه دون متظلم جاء يشكو اليه ظلامته ، وكان فى سعيه حق لصاحب الحاجة ، ومن جاهه حمى للبائس والمسكين .. « لم يخيب رجاء أحد ، الا أن يكون مبطلا ينتصر على ذى حق ، أو ظالما يلبس ثوب مظلوم » (٢) .

وليس أقوى للدلالة على مروءته « من خروجه قبل أن تخرج الشمس من غمدها وجيبه ممتلىء برقاع امتلأت بحاجات الناس فلا يرجع الى داره

---

١ ـ ديوان حافظ ابراهيم الجزء الثانى صفحة ١٤٧ و ١٤٨ .
٢ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ٩٦٩ .

إلا بعد أن يرجع الدهر عن معاكسة من وضعوا آمالهم فيه لخارب فى سبيلها وأنالهم ماشاءوا وأنف المعاكس راغم ، وكم نظر الله إليه فى جوف الليل وهو يمد يده بالحسنات الى الفقراء والمساكين ويعول أنفسا ماتت بموته »(١) .

ولم يكن الامام يرجو من كل سعيه هذا أى جاه أومال .

وقد روى فى بعض دروسه أن طالبا من طلاب الازهر جاءه فى يوم من الأيام ورجاه أن يعينه على الامتحان وحاول أن يقدم له فى سبيل ذلك شيئا من المال على سبيل الرشوة ، وعلق الامام على تلك الواقعة فقال والألم يحتدم فى نفسه :

« لقد خضت غمرات هذه الحياة ومابلغت العشرين ، وها أنا قد نيّفت على الخمسين ولا أعلم أنى طمعت فى يوم من أيام حياتى فى شىء مما زواه الله عنى ، كما أنى نظرت الى زخرف هذه الحيـــاة نظر المتشهى المتمنى الذى يشتد فى إثرها عدوا ويقتل نفسه وراءها صبرا . ولقد مرت بى فى كثير من أيامى الماضية ساعات كان لى فيها من الدالة على أصحـــاب هذه البلاد وذوى الجاه والسلطان فيها مايملأ بيتى فضة وذهبا ولا أكتمكم أنى كنت أعالج من مجاهدة هذه الشهوات ومدافعتها مايجب أن يعالجه كل من نشأ نشأتى بين قوم شرهين طامعين . وكنت أحسب أن قد انتشر لى بين الناس من الذكر بالعفة والشرف وإباء النفس مايثلج به صـــدرى

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى صفحة ٦٩ .

وتطمئن اليه نفسى . فلما رأيت من حال هذا الشاب مارأيت علمت أنه لايزال يوجد فى الناس من يظن بى ظن السوء ، ويتوهم أنى من سفلة الناس وجهلائهم الذين لايطلبون الوظائف إلا ليرتشوا ولايرتشون إلا ليظلموا » .

وقد جمعت جريدة الصاعقة أخلاقه وشمائله فى هذه الكلمات : « كان رضى الله عنه شريف النفس عالى الهمة ، طاهر الذيل ، تقى القلب ، واسع الصدر ، رحب الذراع ، طويل الباع ، جم البر ، كثير الخير ، قوى الايمان عريض الحكمة ، ثاقب النظر ، سريعا الى المكرمات ، معينا فى الملمات ، ماجلس مجلس سوء ، ولاعصى الله فى عدو له ، ولارأى الى الخير سبيلا إلاسلكه ، ولابابا للإصلاح إلا ولجه . وكان كرم الله وجهه يرى وغبار الموت على وجهه أن الحمام بعيد عنه فإذا سئل فى ذلك قال ما كان الله ليقبضنى اليه قبل أن أنتهى مما بدأت فيه من الخير لدينه ، فدعونى من أرجاف المرجفين ، وتخرص المتكهنين فإن أمامى عملا عظيما لابد لى من إتمامه » (١) .

رحم الله الامام فقد جمعت نفسه أخلاق أمة ، وكان مرآة صادقة لهذا الشعب الوفى الكريم .

---

١ ـ نفس المصدر صفحة ٦٨ و ٦٩ .

إيمان الإمام وعقيدته

لم يكن الإمام بين الزعماء المصلحين أول من تعرض للاضطهاد ، وقوبلت جهوده من بعض الناس بالسخرية ، ولا كان الإمام بينهم أول من رمى بالتهم ، وانتشرت حوله الأكاذيب والوشايات ، ولا كان أول من تصدى له أعداء الفكر وحاربه دعاة الجمود ، ولكنه كان واحدا من هؤلاء ، عارضه أعداؤه فى كل عمل قام أو حاول أن يقوم به ، ووقف الجاهلون أمامه حجر عثرة فى كل مشروع أدبى بدأه أو فكر فيه ، وأساء الحاقدون عليه الظن بكل عمل خيرى وفقه الله إلى فعله ، ومسخ دعاة الجمود كل مبدأ تعليمى نادى به أو سعى فى تنفيذه .

وعزاؤنا فى كل مالاقاه الإمام أنه كان كما قلنا واحدا من هؤلاء المصلحين الذين تحدث عنهم التاريخ . وكم حوى التاريخ بين سطوره من قصص أمثال هؤلاء المضطهدين مايقف بالفكر حائرا بين تصديقه والشك فيه . وهؤلاء الأنبياء أنفسهم قد لاقوا من العنت والاضطهاد مايهد عزائم الرجال ، ويفت فى عضد أشجع الشجعان لولا عناية الله بهم وقوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم . وها هو ذا التاريخ قد امتلأت قصصه بأخبار كثير من رجال الفكر الحر الذين قدموا إلى الموت طائعين أو مكرهين لأنهم رأوا مالم تره الدولة ، وجاءوا بما سما على عقول الجماهير ، وامتلأ التاريخ بأخبار الحروب التى شنت على دعاة الإصلاح فتلطخ من أجلها جبين

الإنسانية ، وبأنباء المحاكم التى فتحت أبوابها للتحقيق فى تهم يعلم رجال القضاء قبل غيرهم تلفيق هذه التهم وبعدها عن الصواب . حدث هذا كله ، غير أن محقق التاريخ تعقبوه مستقصين أخباره ، باحثين عن الحقيقة التائهة بين سطوره . واستطاع أولئك المحققون بما بذلوه أن يعطونا فى كل قصة أو نبأ رأيهم ورأى الناس فى العصور المتعاقبة ، وإذا الرأيان ، رأى المحققين ورأى الأجيال المتعاقبة يتفقان على أن المصلحين المضطهدين كانوا على حق فيما دعوا الناس إليه ، وأنهم لم يقدروا ولن يقدروا إلا بعد أن تنقضى أيامهم ويصبحوا فى ذمة التاريخ .

ولهذا الاضطهاد الذى يلقاه المصلحون أسباب كثيرة ، ودوافع مختلفة . يقول الاستاذ الكبير محمد كردعلى : « ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض فى سيرة المناهضين للمصلحين على اختلاف الأعصار ، يجد أنهم جروا على غير مايعتقدون ، وطلبوا بمقاومة المصلحين إرضاء العامة ، ونيل الحظوة لديهم ، واستتباع الجاهلين من الملوك والسلاطين ، وقليل جدا من كان الإخلاص رائدهم فى أعمالهم ومآتيهم .

يقاوم فى العادة الخامل النابه لتكون له مكانة كمكانته ، ويتحامل الجاهل على العالم ليعرف بين قومه بأنه قسيمه فى صناعته ، ومثيله فى فضيلته ، ويطعن الجاحد الممخرق على من يحب أن يعبدالله بعقل ، ويبحث فى عالم الكون والفساد بروية ، ليتظاهر بأنه بعيد الغور شديد الغيرة ،

وما أقواله إلا رياء ، وما أفعاله إلا وساوس وأهواء »[1] .

وحورب محمد عبده لكثير من هذه الأسباب فقد كان مقربا من سمو الخديو « عباس حلمى » عند أول عهده بالحكم ، وكان يجتمع به سرا وعلانية فى القاهرة والإسكندرية للنظر فى الشئون العامة والوسائل التى يمكن أن تنهض بها الأمة ، ويرتقى بها الأفراد ، وآلم هذا كثيراً من المحيطين بالخديو أو الذين كانوا يطمعون فى التقرب منه ، وأدى بهم هذا الألم إلى الوشاية بالإمام والسعاية ضده .

وكان الإمام مجدا فى سعيه لإصلاح الأزهر ، وتطهير الدين مما لصق به من البدع والخرافات ، وآلم هذا كثيرا من رجال الدين الذين خشوا على مكانتهم بين العامة ، وخافوا على مرتباتهم ، واستكثروا أن يظهر شاب كان فى أول أمره كارها للعلم ، راغبا عنه ، موليا وجهه وجهة أخرى غير وجهته . ثم إذا به من بعد ذلك يسفه آراءهم . وينعتهم بالجهل والقصور .

وكان الإمام سياسيا اشترك فى الثورة العرابية . ثم نفى مع من نفى من زعمائها . وقاسى بذلك مايقاسيه الوطنيون على أيدى رجال الاستعمار . ووقف الإمام نفسه بعد النفى على خدمة مصر بل الشرق الإسلامى كله ، وتوجيه أنظار المسلمين إلى مقدار العنت الذى يقاسونه . ومقدار الأضرار التى

---

١ ـ القديم والحديث للاستاذ الكبير محمد كرد على رئيس المجمع العلمي العربي ووزير معارف حولة دمشق سابقا صفحة ٥٤ .

تعود عليهم من الاحتلال . وتسليم أمورهم لأمم لاتدين بدينهم . ولا تربطها بهم رابطة اللهم إلا رابطة المنفعة والاستغلال ، وآلم هذا كله ضعيفي الوطنية . والمتملقين والمنافقين . وأصحاب المطامع الذين وجدوها فرصة للطعن فيمن يريد أن يضيع عليهم الفرص . ويحرمهم من آمالهم وإن كان تحقيقها على حساب الوطن والشعب .

وكان الإمام رجلا ديّنا خيّرا حر العقيدة والرأى يحاول أن يعبد الله على أساس من الفكر والعقل ، لأن الدعوة الأولى من دعوتى الإسلام « لايعول فيها إلا على تنبيه العقل البشرى ، وتوجيهه إلى النظر فى الكون . واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع إلى ماحواه الكون من النظام والترتيب . وتعاقد الأسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود ، عالما حكيما قادرا ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان »[1] .

حاول الإمام أن يعبد الله بيقين يسنده العقل كما وضح ذلك فى تعليقه على الآية الكريمة « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون »[2] فهو يقول : « إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وأن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن

---

١ - الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية للامام صفحة ٤٩ .

٢ - قرآن كريم سورة آل عمران آية ١٦٦ .

ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن . لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله ونفسه بالعلم والعرفان فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته .

« ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده ، فلا يأخذه بالتسليم لأجل آبائه وأجداده ، ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بقوله : (صم) ، لايسمعون الحق سماع تدبر وفهم ، (بكم) لاينطقون به عن اعتقاد وفهم ، (عمى) لاينظرون فى آيات الله وفى أنفسهم فهم لايعقلون »[١] .

حاول الإمام ذلك والدعوة إليه فقال الذين يتظاهرون بالورع والتقوى ، ولا يدركون من أسرار الكون أكثر من الملموسات التى بين أيديهم ، والذين لايدركون من عظمة الخالق عز وجل أكثر مما قرأوه فى كتب حشوها باطل ، ولا يتفق أكثر ما جاء بها مع ما اتصف به الدين من تنزيه ، وما أنزل الكتاب لأجله من الهداية والرحمة . قال أولئك الناس إنه مجتهد ، وإنه مبتدع ، وإنه لذلك خرج على الدين ، ومن خرج على الدين وجب أن يوضع فى عداد الكفار . وكأن الاجتهاد فى رأيهم جريمة . وكيف لايكون كذلك وقد تجاهلوا أن الإسلام « صرف القلوب

---

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحه ١٢٣ .

عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميا لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التميز والفطرة سيان، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه [1] ».

ولم يجد أعداء الإمام على اختلاف مشاربهم، وتباين نزعاتهم تهمة يمكن أن يلصقوها به فينتشر أثرها مثل تهمة الكفر والإلحاد. والغريب أن تسرى هذه الفرية بين الناس فيصدقها بعضهم كأنها حقيقة واقعة. وكأن الأمر لم يكن اتهاما باطلا من قوم جبلت نفوسهم على الغيرة والحسد، أو من قوم تسربلوا بأكفان الماضى وعاشوا فيه لاتبرحه عقولهم وأفكارهم.

ومن هؤلاء الذين صدقوا هذه الفرية الكاذبة والتهمة الباطلة. شباب لايعلم كثيرا ولا قليلا عن الإمام، إما لأنه لايميل بطبعه إلى قراءة شىء يتعلق بالناحية الدينية وانشغاله عن ذلك بشئون السياسة أوشئون الثقافة الحديثة، وإما لخوفه من القراءة لهذا الرجل وتتبع أفكاره وآرائه فيتهم فى عقيدته كما اتهم الرجل نفسه. وصدق الفرية عامة يسهل التأثير فيهم ثم هم فوق ذلك أكثر رغبة فى الاحتفاظ بالقديم، قليلو الرغبة فى مجاراة

---

١ - رسالة التوحيد للاستاذ الامام صفحه ١٥٨ و ١٥٩

الجديد مالم يثبت لهم نفعه أو يرغموا عليه . وصدقها كذلك معارضون يترقبون التهم لترويجها كسبا لقضيتهم الخاسرة أولا وأخيرا .

ومن الغريب أن تلصق هذه الفرية برجل كان شأنه أجل وأعظم من مئات مجتمعين بل من ألوف . فقد واجه محمد عبده عالما إسلاميا مفكك الأوصال ، واهي القوى ، يضرب فى ظلمات من الجهل لايدرى معها الى أين ينتهى به الطريق . وواجه عالما مستذلا يخضع لسلطان دولة تخالفه فى الدين ، أورؤساء واقعين فى قبضة النفوذ الأجنبي ، أوملوك ظلمة تتحكم فيهم الشهوات والمطامع . ونادى الامام على صفحات العروة الوثقى بمقالات كأنها شعل من نار بإحلال التآلف بين دول ذلك العالم الاسلامى المشتت ونظمها فى وحدة تستطيع أن تصد هجمات المغيرين ، وتعيد للإسلام عزه الغابر ومجده القديم .

وواجه محمد عبده حياة اجتماعية لا رابط بينها ، وخلقية بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ، وفكرية تثير الأسى والألم . انتشر التنابز بين الناس والأمم والدين يدعو إلى الوحدة والإخاء ، وعم الفساد وكثر إتيان المحرمات والدين ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وانتشر الجهل فضلّ الناس سبيل الرشاد ، ونادى محمد عبده بالرجوع إلى الإسلام الصحيح فهو المنقذ من كل فساد .

أما هذا الإسلام الصحيح الذى دعا إليه فيدل عليه تفسيره لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .

فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (١) ، فقد وضح ذلك بقوله : « إطاعة الله هى الأخذ بكتابه كله ، وفيه ما رأيت من النهى عن الاختلاف والتفرق فى الدين . وإطاعة رسوله بعد وفاته هى الأخذ بسنته .

« والأمور الاعتقادية والتعبدية يجب إرجاعها إلى هذين المصدرين ، أو بعبارة أخرى ينبغى إرجاعها إلى ما كان عليه السلف الصالح بلا زيادة ولا نقصان .

« أما أولى الأمر الذين جاء ذكرهم فى الآية فهم أهل الرأى والبصيرة ، وهم الذين يسمون فى عرف الإسلام أهل الشورى ، وأهل الحل والعقد ، وهم العلماء وأرباب الرياسة الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة .

« ويجب أن ترد إلى هؤلاء جميع الأمور القضائية والإدارية والسياسية ، بما فى ذلك إعادة النظر فى الشريعة التى يقيمونها على القواعد الشرعية فى حفظ المصالح ودرء المفاسد بحسب حال الزمان والمكان » (٢) .

وكيف يعود الناس إلى هذا الاسلام الصحيح . وكيف يستعيدون أصول العقائد التى بغيرها لا يكون المسلم مسلما حقا ؟ كان لابد لهذا من

---

١ ـ قرآن كريم سورة النساء آية ٥٩ .

٢ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ١٦٧

إذكاء اليقظة الفكرية ، بنشر التعليم بين العامة ، وبالاشتغال بالدراسة العلمية الحديثة لتستطيع الأمم الإسلامية مباراة غيرها من الأمم ، وليس فى روح المدنية الحديثة ، أوفى ثمرات العلم الحديث مايناقض الاسلام الصحيح ، إذا أحسن فهمه ، وأحسن بيانه ، وإن ضرورة تصوير الاسلام على صورة تتجانس مع العلم الحديث تستلزم أيضا استعادة ما فى الاسلام من أصول جوهرية ، وليس ما كان منـــه قاصرا بطبيعتـه على زمن ما أو مكان ما » (١) .

والامام هو الذى يقول : « ولو أخذنا بهذا المبدأ الذى يقضى بالرجوع إلى الاسلام فى أبسط صوره وأهم أركانه ، لوجدنا أساسا يربط المسلمين جميعا ، وتتفق عليه كلمتهم ، ويصبح دين الناس كافة » .

والإمام هو الذى وقف « لهانوتو » فكسر شوكته ، وأرجعـه إلى صوابه ، وأفهمه أن الإسلام دين الأولى والآخرة ، وأنه مبعث الفضائل ، ومنبع الحضارة التى تتشدق بهـا أوربا فى العصور الأخيرة . وهو الذى تربص « بفرح أنطون » فأعاده إلى الحق ، وألزمه الحجة ، وعلمه فضل الاسلام على الشعوب .

وكان الإمام يرى أن الاسلام دين الفطرة ، والدين الذى سيعم نوره الكون ، ويكون له المستقبل ، وأن الأمم التى ابتدعت المدنية التى طغت فيها

---

١ - الاسلام والجديد فى مصر صفحة ١٠٤ .

المادة على الفضيلة والشرف ، وبلبلت أفكار الناس ، وغزت منطقة إيمانهم . . كان يرى أن هذه الأمم ستذوق من فتن مدنيتها ومفاسدها السياسية ما يضطرها إلى طلب المخرج منها ، وأنها ستجدّ فى البحث عن هذا المخرج فلا تجده إلا فى الإسلام . إسلام القرآن والسنة ، لا إسلام المتكلمين والفقهاء ، وهو يقول فى ذلك : « قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به إلى مايرون وترى ، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ، ويعرف حدود سلطته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ويكشف ما مكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ، وقفل راجعا ، وأخذ أخذ الراسخين فى العلم » (١) .

وإذا كان الامام قد نادى بالإصلاح ، ومشايعة فضائل المدنية الحديثة فلم يكن ذلك إلا لعلمه بأن الإسلام لا يتعارض مع هذه المدنية وفى ذلك يقول : « إن الاسلام لن يقف عثرة فى سبيل المدنية أبدا ، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها ، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهلها . وهذا الجمود سيزول ، وأقوى دليل على زواله ، بقاء الكتاب

---

١ — الاسلام والنصرانية صفحة ١٣٦ و ١٣٧ .

شاهدا عليه بسوء حاله، ولطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه، ويدعون إليه ويؤيدونه، والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم»[1].

وكان الامام يؤمن بالكتاب ويؤمن بخلوده فيقول: «هذا الكتاب المجيد الذى كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لابد أن يعود نوره إلى الظهور. ويمزق حجب هذه الضلالات، ويرجع إلى موطنه الأول فى قلوب المسلمين ويأوى إليها، العلم يتبعه وهو خليله الذى لا يأنس إلا إليه، ولا يعتمد إلا عليه»[2].

ويعود فيعطينا فكرة أوضح عن هذا الكتاب المبين فيقول: «كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الماضية والمستقبلة: نقب عن الصحيح منها، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها»[3].

وهو لا يؤمن بهذا الكتاب وخلوده إلا لأنه يؤمن بالخالق عز وجل، وأنه هو الذى أوحى به الى عبده ورسوله، وأن الخالق سبحانه وتعالى واحد لاشريك له فى الأرض ولا فى السماء، «ولو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته

١ - الاسلام والنصرانية صفحة ١٣٥.
٢ - نفس المصدر والصفحة.
٣ - رسالة التوحيد صفحة ١٤٤.

لاشريك له فى وجوده ولا فى أفعاله » (١) .

لقد كان إذن مؤمنا أشد الإيمان ، ويوضح مايوجبه الإيمـان فيقول : « فالذى يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لايشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر ، متفرد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير ، ومايتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه » (٢) .

وكان محمد عبده يعتقد أن الدين هو المنقذ من كل فساد ، الهادى من كل ضلال ، وهو القبس الذى اهتدى بضوئه الحائر فى العصور الماضية والذى سيهتدى بضوئه كل حائر فى العصور المقبلة وفى ذلك يقول : « ألا إن الدين مستقر السكينة ، وملجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله . وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة ، وإلى من دونه فى المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية » (٣) .

ولقد جاء بهذا الدين الحق نبىٌّ كريم بعث رحمة للعالمين ، وفيه يقول الامام بعد أن بين كيف كان العرب فى حاجة ماسة إلى الرسالة : « أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التى

---

١ - رسالة التوحيد صفحة ٤٣ .

٢ - نفس المصدر صفحة ١٢٨ .

٣ - نفس المصدر صفحة ٥٢ .

أظلت رءوس جميع الأمم ؟ نعم . كان ذلك ولله الأمر من قبل ومن بعد »(١) .

ثم يقول بعد الكلام عن مولد النبي الكريم ونشأته : « فما كتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون . رفيعا والقوم منحطون ، موحدا وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون »(٢) .

ثم يقول في النهاية : « فثبت بهذه المعجزة العظمى - إعجاز القرآن - ، وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لايعرض عليه التغيير . ولا يتناوله التبديل : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه . فيجب التصديق برسالته ، والاعتقاد بجميع ماورد في الكتاب المنزل عليه والأخذ بكل ماثبت عنه من هدى وسنة متبعة ، وقد جاء في الكتاب أنه خاتم الأنبياء فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك »(٣) .

قد يقول قائل إن هذا الذي استشهدنا به قول لا أكثر ولا أقل ، وما أكثر القول وأقل العمل . وهناك كثير من الناس يظهرون غير مايبطنون ولكن مارأى هؤلاء المعترضين في الدلائل الناطقة على أن الامام كان رجل عمل قبل أن يكون رجل كلام ؟ .

---

١ - رسالة التوحيد صفحة ١٣٤ .

٢ - نفس المصدر صفحة ١٣٥ .

٣ - نفس المصدر صفحة ١٥١ .

سافر محمد عبده إلى «ميت غمر» ليتفقد مافعلته النار بأولئك المنكوبين، وليقف بنفسه على مقدار الخسائر، وصحبه شاعر النيل المرحوم «حافظ بك ابراهيم». فلما عادا قال حافظ للسيد رشيد رضا: «كان عندى شكوك أوشبهات فى كثير من أمور الدين، فاتسعت لى الفرص فى صحبتى للأستاذ الإمام فكنت أسأله عنها فيكشفها بما ينفعنى وينشرح له صدرى، وكان يبيت بالقرب من مبيتى حيث نكون ضيوفا فينغص علىّ نومى بصلاته فى آخر الليـــل، ثم يطرق باب حجرتى عند الصباح لأجل صلاة الفجر، ويناديني بقول الشاعر — يا راقد الليل إلى كم تنام — فقلت له يامولاى: إنى لاأستطيع أن أحمل الاسلام كله فى سفرة واحدة، حملت هذه المرة عقائده، وسأحمل فى الثانية ماشئت من صلاة وصيام»[1].

وقد أشار حافظ فى مرثية التأبين إلى تهجده بقوله:

«وكم لك فى إغفاءة الفجر يقظة ... نفضت عليها لذة الهجعات
ووليت شطر البيت وجهك خاليا ... تناجى إله البيت فى الخلوات
وكم ليلة عاندت فى جوفها الكرى ... ونبهت فيها صادق العزمات
وأرصدت للباغى على دين أحمد ... شباة يراع ساحر النفثات
إذا مس خد الطرس فاض جبينه ... بأسطار نور باهر اللمعات
كأن قرار الكهرباء بشقه ... يريك سناه أيسر اللمسات»[2].

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٤٢.
٢ — ديوان حافظ الجزء الثانى صفحة ١٤٦.

ويقول السيد رشيد رضا : « وحدثني الأستاذ السيد محمد البيلاوي نقيب السادة الأشراف لهذا العهد قال : كنت مرة في دار صديقنا أحمد باشا تيمور بداره المجاورة لنا بالحلمية فذكرنا الأستاذ الإمام وكان في المجلس رجل يكرهه ، فطعن فيه وهو لا يعرفه ، فقلنا ماتنقم منه ، قال إنه لا يصلي ، قال السيد : فقلت له نحن نشهد أنه يصلي وقد صليت أنا معه ، وبينا نحن نتكلم معه دخل علينا فلان ـ وذكر خادما كان يتردد على أحمد باشا تيمور يخدم عنده مدة ويغيب مدة ـ فسأله أين كنت ؟ قال كنت عند « علي باشا رفاعة » ، قال : ولما تركته ؟ قال : فررت من ضيف ثقيل اسمه الشيخ محمد عبده ، قال : وما ذا رأيت من ثقله ؟ قال : أنا خادم السلاملك فكانوا يسهرون سهرا طويلا ثم ينامون فلا يمضي على نومهم إلا مدة قليلة حتى يقوم هذا الشيخ ويطلب الوضوء ثم يصلي إلى أن يطلع الفجر فيصليها ، فيؤرقني فلا يدع لي من الليل مدة أستريح فيها . فلما سمع الرجل الطاعن حديثه قال : من أين جئتم بهذا الرجل ؟ فقال صاحب الدار : إننا منذ شهور كثيرة لم نره حتى فاجأنا الآن ، فاستغفر الرجل ربه وأناب » [1] .

وهذا توفيق آخر ، وما أكثر التوفيقات في حياة الامام ، ولعل الله أراد بهذه الحادثة إكرام الرجل كما نصر دينه وجاهد في سبيله .

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١٠٤٢ .

مرض الامام ووفاته

ظهرت فى أوائل عام ١٩٠٥ نتيجة فلكية تعرف « بنتيجة الزرقاوى » يتنبأ فيها صاحبها بحوادث العام وماقد يصيب البلاد خلالها من خير أوشر ، ومما جاء فيها :

« ألا يارحمة الرحمن صبي   على قبر حوى روح الإمام
وياذا الأزهر اندب ليث غاب   فمن يفتى إذا الأستاذ نام » [1] .

وما كاد العام ينتصف حتى روعت مصر بفقد إمامها فى الملمات ، وناصرها فى الشدة ، وخلا العرين من صاحبه فاستبيحت حرماته . وأدرك حتى أعداؤه أنهم خسروا بوفاته قوة لاتعوض .

وأشار حافظ فى قصيدة الرثاء إلى هذا النبأ فقال :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه   لأنت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفا وعطلت منبرا   وأذويت روضا ناضر الزهرات
وأطفأت نبراسا وأشعلت أنفسا   على جمرات الحزن منطويات
ونبأه علم النجـــوم بحادث   تبيت له الأبراج مضطربات

° ° °

كان محمد عبده ربع القامة ، ممتلىء الجسم فى غير ضخامة ، قوى البنيـة ،

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثالث صفحة ١٤ .

شديد العضل ، وكان معتزا بقوته التى عرض لها ما أضعفها وكان سببا فيما انتابه من أمراض . أما قصة هذا العارض فتتلخص فى ظهور خراج تحت إبطه أيام الشباب لم يبال به الإمام حتى كبر وتحول الدم فيه إلى صديد . وفى يوم من الأيام انتابت الامام من جرائه حمى أفقدته وعيه أربعين يوما كاملا راقبته خلالها العناية الإلهية لأمر كان سره لايزال مطويا فى صفحات الغيب ، وقدر لمحمد عبده أن ينجو من خطر كان محدقا به تعد النجاة منه والحياة بعده من النوادر التى تقرب من خوارق العادات كما كان يقول له الأطباء كلما قص عليهم سيرة هذا المرض . وترك الامام فراشه ولكنه مع ذلك لم ينج من تأثير سم الصديد الذى كان يعاوده فى موعده من كل عام . وقد أشير عليه فى السنوات الأخيرة بسكنى ناحية جافة فاختار عين شمس ، وفيها تحسنت صحته وتجدد نشاطه .

وبقى الامام لايحس أثرا لمرض آخر حتى كان سفره إلى السودان فى يناير من عام ١٩٠٥ ، فقد شعر وهو فى طريقه إلى القطر الشقيق بأول بوادر المرض ، وأجمع من تحدثت إليهم من أفراد العائلة بأنه لم يكن قبل سفره يشكو أو يتألم من شىء ، غير أن أقوالهم اختلفت فى اليوم أو الساعة التى شعر فيها لأول مرة بذلك المرض الذى لازمه حتى وفاته ، فمن قائل إنه أحسه قبل قيامه من محطة القاهرة إلى السودان ، ومن قائل إنه أحسه أثناء وجوده على الباخرة من الشلال إلى وادى حلفا ، ولكنه على كل حال لم يعد حتى كان المرض قد دب فى جسمه وبدأ يعمل عمله . تقول جريدة الأفكار

البرازيلية : «كانت صحة الإمام جيدة فى الغالب ، إلا أنه بدأ يشكو الضعف منذ زار السودان ، فتسلط عليه المرض واضطره أحيانا كثيرة إلى ملازمة الفراش »[1].

وأخذ المرض يشتد على الامام بعد عودته ، ويقوى يوما بعد يوم ، حتى أنه لم يجد مندوحة عن عرض نفسه على كثير من الأطباء الذين أجمعوا على نصحه بالإقلال من الأعمال العقلية ، وإجهاد الفكر ، وضرورة الراحة التامة ، والمحافظة على تناول أنواع خاصة من الطعام .

وكانت المعدة والأمعاء موضع الداء ، ثم انتقل الألم إلى الكبد ، وهنا اختلف الأطباء فيما إذا كانت المعدة هى الأصل ثم تأثرت الكبد منها ، أو أن الكبد بتمدده ضغط على المعدة فمنعها من تأدية وظيفتها ، ولكنهم اتفقوا على الرغم من هذا الخلاف على ترك العمل بتاتا والتعجيل بالسفر إلى الخارج وزيارة أطباء أوربا المشهورين لعل الله يكتب على أيديهم الشفاء .

ووافق الامام ، فلما حال ازدحام أول باخرة مسافرة بعد هذه الموافقة دون السفر ، اضطر إلى أن يمكث أياما أخرى حتى تهيأ الفرصة ثانية بقيام الباخرة التالية . وصبر الإمام على احتمال آلام المرض كما صبر على احتمال الأذى من قبل ، ولكنه لم يصبر عن العمل . فكم من ليلة باتها يتلوى

---

١ - جريدة الافكار البرازيلية العدد ١٣٥ الصادر فى سان باولو يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٩٠٥ .

على الفراش من شدة الأسقام والأوجاع حتى إذا كان الصباح تحامل على نفسه وخرج كدأبه وعادته ينظر فى هذه الأعمال الكثيرة الخاصة بالفتاوى ومجلس الشورى ومجلس الأوقاف الأعلى وأعمال الجمعية الخيرية وأوقاف الحنفية واللجنة الخاصة بوضع نظام لمدرسة القضاء الشرعى . صبر الامام على الألم ولكنه لم يصبر عن النظر فى حاجات العفاة وطلاب المساعدة عند الحكام . واشتدت عليه الأوجاع ولكنه مع هذا بقى « يشتغل على فراشه عند سكون نوبة الألم ، ولم يكن من ذلك الشغل شىء لنفسه ، ولا لأهله وولده ، ولكنه للناس ، وهل كان الناس يشفقون عليه ادخارا له أو تأدبا معه ، أو عملا بالذوق الذى يفخر به أهل هذا البلد ؟ كلا إنهم كانوا يكلفونه النهوض بأثقالهم وقوفا على سريره وهو مضطجع أو مستلق عليه ، وكان يعمل ماقدر ، ويعتذر عما يعجز طالبا الإنظار والإمهال إلى أن تحسن الحال »[1] .

وهل كان يفكر فى نفسه أو أهله وولده من يقول وهو على فراش الموت وقد شعر بدنو الأجل :

« ولست أبالى أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها إذا مت ماتت واضمحلت عزائم

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١٠٤٥ .

فيارب إن قدرت رجعى قريبة   الى عالم الأرواح وانفض خاتم

فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا   رشيدا يضىء النهج والليل قاتم [١] .

وكانت الأعمال الكثيرة المضنية فى وقت حاجة الامام الى الراحة سببا فى إنهاك قواه واشتداد المرض عليه ، وسببا فى التعجيل بعمل الترتيبات اللازمة لسفره الى الاسكندرية استعدادا للسفر الى أوربا ، وقرر الدكتور طلعت بك قبل السفر بيوم أو يومين أن الامام مصاب بداء السرطان ثم وافقه طبيب آخر ، غير أن أصدقاءه والمحيطين به كتموا عنه الخبر ، وسافر الامام الى الاسكندرية فى ١٠ ربيع الاخر من عام ١٣٢٣ هـ — يونيه من عام ١٩٠٥ ، وهناك زاره أطباء الثغر الذين أجمعوا على ماقال به أطباء العاصمة . وقد جاء فى تقرير الدكتور بشاره زلزل :

« زرت الأستاذ منذ خمسة أيام فحزنت جدا للحالة التى رأيته عليها . ومع ما كان فيه من خطر الحالة وشدة المرض أخذ فضيلته يشرح لى سير مرضه بالدقة شرحا طويلا ، ثم بحثته جيدا فوجدت ورما كبيرا عالقا لجهة الكبد السفلى وقد طغى على البطن بكبر حجمه ، وظهر لى من جسمه وصلابته ومن علامات كثيرة أنه ورم سرطانى لاشك فى أنه كان عنده من مدة بعيدة . وحين مشاهدتى له كانت حركة القلب منتظمة والنبض معتدلا نوعا ولا أعلم ماجد بعد ذلك (لأن تلك الزيارة الطبية كانت الأولى والأخيرة) ولكنى

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٢٦ .

تعجبت من بقاء مدارك الأستاذ عالية، وعواطفه قادرة على كثرة الملاطفة مع هذه الحال التى لاتسمح لغيره ببقاء شىء من ذلك [١]».

وكان الامام طول مدة وجوده فى الاسكندريه ضيفا على صديقه ومريده «محمد بك راسم» الذى أعد له دار أخيه بالرمل وجعلها تحت تصرفه. وكان الامام يطلب السفر رغبة منه فى سرعة الوصول إلى طريقة ناجعة تخلصه من هذه الآلام المبرحة، وكان الأطباء ينصحون المحيطين به بعدم السفر لأن الحالة تنذر بالخطر.

واضطر الأصدقاء الذين لازموه ليل نهار أن يحجبوا عنه الحقيقة متعللين بضعف جسمه وحاجته إلى الراحة والتريض قبل أن يتعرض لمشاق الطريق. وشاع خبر اشتداد وطأة المرض على الامام وتأجيل سفره لهذا السبب فازدحمت الدار بالوافدين للسؤال عنه من أفراد البيت المالك ونظار الحكومة والعلماء والأدباء والأعيان وموظفى الحكومة وأفراد الهيئات المختلفة. ولكن ماذا تفعل الوفود والرسائل، وماذا يفعل الأطباء وطبهم أمام القضاء المحتوم، إنهم لايستطيعون رد القضاء ولن يستطيعوه.

وما هى إلا أيام حتى نعى البرق لجميعة الاسلام والمسلمين بموت الامام الذى لبى نداء ربه فى الساعة الخامسة بعد الزوال من ثامن جمادى الأولى

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثالث صفحة ١٤٩.

سنة ١٣٢٣ هـ الموافق ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ م [١].

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى حمل نعش الفقيد من محطة الرمل إلى محطة السكة الحديد يحف به الوقار والهيبة، وقام به قطار خاص فوصل محطة القاهرة قبل الرابعة. وفى تمام الرابعة سارت الجنازة الرسمية حتى وصلت الأزهر حيث صلى على الفقيد، ومن هناك حمل النعش ثانية إلى مقابر المجاورين ليوضع فى مقره الأخير.

وكان النعش يسير بين بكاء آلاف الناس بكاء مكبوتا تمنع ظهوره رهبة الموت وجلاله، والشعور بفداحة الخطب الذى لايعوضه بكاء أو أنين.

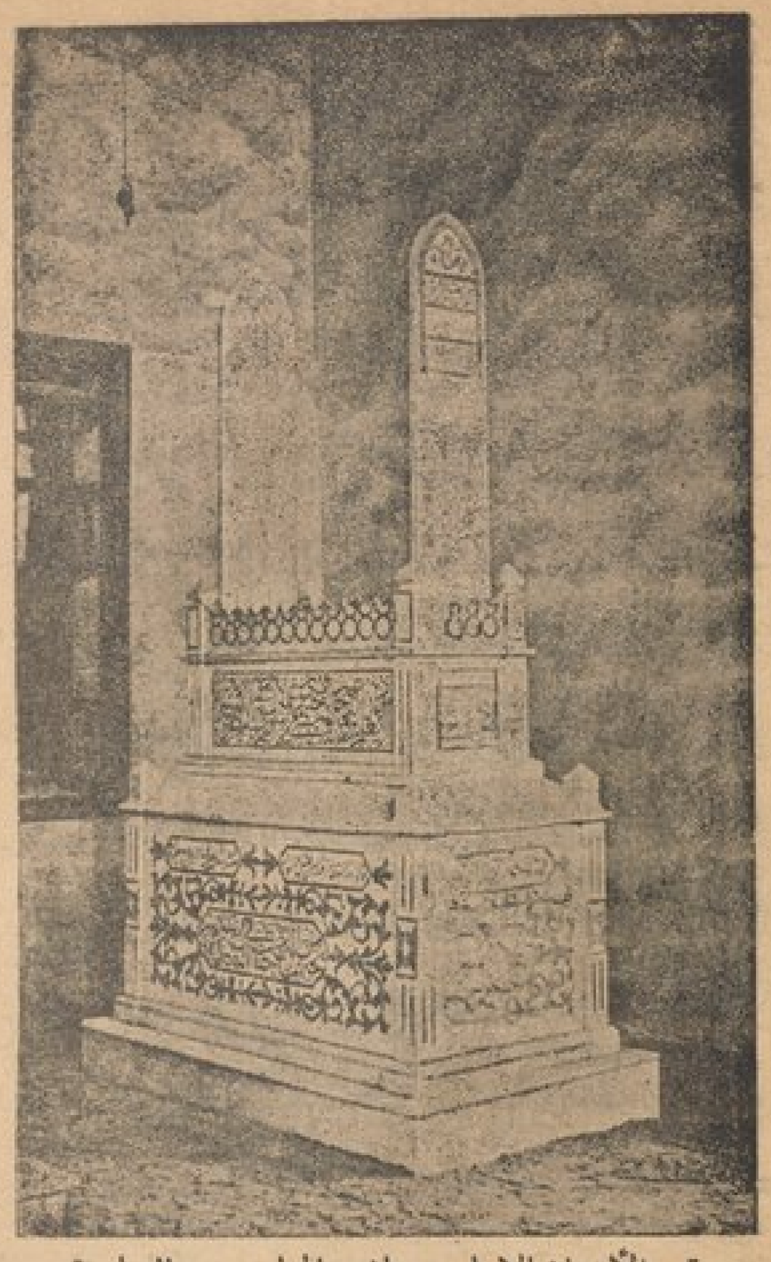
قالت جريدة الأهرام: « فلما وصلت الجنازة إلى الأزهر أذن المؤذنون من كل المساجد دفعة واحدة فزاد الخشوع وزادت العبرة فى جنازة كبيرة لم تر مصر أكبر منها لاشتراك الشعب كله بجميع طوائفه بها، ولم تسمع فيها ضجة الفقهاء والعميان ولكن ذلك السكوت الذى كان سائدا كان أدعى الى العبرة وأظهر لهيبة الموت وأوعظ للنفس » [٢].

وقالت جريدة الممتاز: « لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، حم القضاء فلا مرد لحكم القهار، مات بالأمس مولانا المفتى فمات العلم والأدب

---

١ - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٤٦ .

٢ - نفس المصدر الجزء الثالث صفحة ١٣ .



قبر الأستاذ الإمام بمدافن المجاورين بالعباسية

« تصوير الأستاذ الفنان أبو بكر سعودى »

والفلسفة والحكمة والهمةوالعمل والرأى والتدابيروالشجاعة والأناة وعزة النفس، وفقد الاسلام والمسلمون ركن نهضتهم وحامل علم رقيهم، وانطفأ المصباح الذى كان يضىء الخافقين، وحال الموت بيننا وبين القمر المنير فى سماء مصر الذى كان يرسل أشعته نورا إلى العالمين فيهدى كل سائر فى هذه الدنيا، ويسترشد به الشيخ، ويزداد العاقل تبصرة، والجاهل علما، والشباب موعظة، والحكيم عبرة، والرجل خبرة. ولكن: قتل الانسان ما أكفره.. عاش مولانا المفتى ٦٥ عاما معلما مهذبا مرشدا طبيبا للنفوس، مصلحا لأدواء العمران فنغصنا عيشه، وقتلناه بأعمالنا أشد قتلة » [١].

وفى هذا المعنى تقول جريدة العمران: « ونعتقد أن الأستاذ الفقيد وإن مات مطعونا بأسنة تلك المقاومات موت شهيد فى سبيل الدين إلا أن مبدأه لم يمت، وإن كانت المسيحية قد استضاءت بعد تلك العصور المظلمة بأنوار الاصلاح الذى قام به « لوثيروس » فإن الاسلام لابد عاجلا أو آجلا من أن ينتعش بروح هذا الفقيد وقوة تعاليمه التى بثها فى صدور تلاميذه، ووضع بعضها فى تفسيره القرآن الحكيم، والتاريخ يروى لنا حوادث كثيرين كفقيد اليوم نشدوا الاصلاح فلاقوا من الاضطهاد الشىء الكثير، إلا أن مبادئهم لم تضع بل نمت بعد موتهم وتقوت وانتفع الناس بها فخلدت لهم

---

١ - تاريخ الأستاذ الامام الجزء الثالث صفحة ٨٠ .

الذكر العاطر على مر الدهور ، وسيأتى زمان يسود فيه رأى الأستاذ ، وشريف مبادئه ، ويذكر المسلمون هذا العزيز فيسمونه المصلح العظيم بعد أن كان يدعوه العقلاء فى حياته الامام الحكيم ، [1] .

وشارك المسيحيون المسلمين فى الشعور بالفجيعة فأبنته جرائدهم كجريدة مصر ومجلة الشرق والغرب ومجلة المحيط والمقتطف والهلال وغيرها . ولم تكن الفجيعة بوفاته فجعية مصر ولكنها كانت فجعية الشرق كله . ترى ذلك واضحا جليا فى مراثى جريدة الحاضرة وجريدة الصواب وكانتا تصدران فى تونس ، ومرآة الغرب فى نيويورك ، والمناظر والافكار فى سان باولو بالبرازيل ، ومجلة اجتهاد التركية الفرنسية ، وجريدة جهره نما وتربيت الفارسيتين ، وقد اشتركت الصحف الأجنبية التى تصدر فى مصر كالإجبشيان غازيت الإنجليزية ، وإيجبت والبروجريه الفرنسيتين ، وكايرون اليونانية فى ذكر مناقب الفقيد ومآثره والتعبير عن شعورها بعظم الخسارة التى منيت بها مصر والشرق .

ولم يقتصر هذا الشعور على الصحف الأجنبية التى كانت تصدر فى مصر وغيرها ولكنه تعداها إلى الصحف التى كانت تصدر فى غير مصر كجريدة الطان فى باريس ، والتيمس والديلى كرونكل فى لندن .

وقد عبر حافظ بك إبراهيم عن حزن العالم بفقد الإمام فى قوله :

---

١ ـ تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثالث صفحة ٧٧ .

« بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقت عيون الكون بالعبرات
فنى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع ، وفى الفرس نادب
وفى تونس ماشئت من زفرات
بكى عالم الاسلام عالم عصره سراج الدياجى هادم الشبهات »

* * *

وكان أصدقاء الامام قد قرروا يوم الوفاة تأجيل التأبين الذى كان يقام عادة عند المقبرة إلى اليوم الأربعين . فلما قرب الموعد الذى حدد ورأى أولئك الأصدقاء كثرة عدد الراغبين فى التعبير عن حزنهم وإظهار تقديرهم استحسنوا أن يعين المؤبنون والراثون ، فكان «حسن باشا عاصم» لإلقاء تاريخ حياة الإمام ، « وحسن باشا عبد الرازق » لبيان مكانته واشتغاله فى مجلس الشورى ، والأستاذ الشيخ « أحمد أبو خطوة » للتحدث عن اشتغال الفقيد بإصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، « وقاسم بك أمين » لبيان أخلاقه وفضائله وأمانته ، وقام « حفنى بك ناصف » و « حافظ بك إبراهيم » فألقى كل منهما قصيدة عصماء . وبدأ حافظ رثاءه بقوله :

« سلام على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى والقبر بينى وبينه على نظرة من تلكم النظرات »

وقال حفنى بك ناصف :

«لمَ لاتجيب وقد دعوت مرارا يكفى سكوتك أربعين نهارا
كثر التخبط والحقائق حجبت عنا وأمسى المسلمون حيارى
يتساءلون وقد عرتهم سكرة عما عراك وما همُ بسكارى
فاجل الصواب لنا كما عودتنا يققا ومزق دونه الأستارا
ما كان عهدى حين يقصدك الورى عند اشتداد الخطب أن تتوارى
فيمَ احتجابك فى فلاة بلقع لا دارة فيها ولا ديارا
الكون عن مسعاك ضاق نطاقه فعلام تتخذ المقابر دارا ؟»

ولكنها سنة الله فى خلقه، ولكل أجل كتاب، والسفر وإن طال لابد له من نهاية .

وهكذا جاهد الإمام وصابر، وسعى وناضل، فلما أن استوفى أجله جاءه الموت الذى كتب على الذين من قبله والذين من بعده، وانتهى به طوافه إلى ذلك الذى كان يخشاه، ويخاف أن يسد عليه طريق العمل .

وما كان الامام ليرد غائلة الموت، ولكنه الأمل فى إحياء كلمة الدين وإعلاء شأن المسلمين، وهكذا :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوما على آلة حدباء محمول

أما آماله وتعاليمه، وأما آراؤه ورسالته فهى الشعلة المتجددة التى يستنير بضوئها العالم الإسلامى الآن .

الفصل الثامن

النهضة الفكرية الإسلامية

حاولنا خلال الفصول السابقة من هذا الكتاب أن نعطى للقارئ صورة صادقة للاستاذ الامام وجهوده فى حياته ، ولكننا لازلنا نحس نحوه واجبا لابد من أدائه . هذا الواجب هو التحدث عنه منذ وفاته حتى اليوم ، وتوضيح ما إذا كان محمد عبده قد استطاع بعد كل هذا الجهاد المتواصل أن ينجح فيما قصد اليه ، وأن يترك من بعده خلفاء يسيرون على الدرب فلا يخطئون ، أم هى شعلة أوقدها فى الصدور سرعان ماانطفأ لهيبها وأصبحت دعوته كأن لم تكن .

سألت نفسى هذا السؤال ثم نظرت خلال السنوات التى مرت منذ وفاته حتى اليوم فرأيت أن لواء الدعوة التى نادى بها قد حمله من بعده خلفاء نهجوا نهجه فحققوا آماله . وقد دعا محمد عبده دعوته أول مادعا فى بيئة ضيقة محدودة هى بيئة الخاصة من تلاميذه ومريديه ومن جذبهم اليه علمه وفضله ، فلما حمل أنصاره اللواء من بعده أخذوا يوسعون دائرة الدعوة

شيئا فشيئا ، وأخذ عدد الذين يؤمنون بها يزداد يوما بعد يوم ، وأصبح من الصعب أن نعثر الآن على واحد ممن نالوا قسطاً من التعليم والثقافة ولا نجده متأثرا من قريب أو بعيد بتعاليم الامام سواء فى التفكير الإسلامى أو فى النواحى الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية .

• • •

وإذا نحن أردنا أن نلقى بعض الضوء على مقدار الأثر الذى تركه محمد عبده فى التفكير الاسلامى كله من الناحية الدينية ، كان علينا أن نتجه بأفكارنا إلى التعليم الدينى فى الأزهر وغيره من معاهد العلم لنتعرف الاتجاه الذى كان يتجهه ، وعلى ضوء هذه المعرفة نستطيع الالمام بهذا الأثر .

كان اتجاه التعليم الدينى قبل محمد عبده ينحو الى تقييد الفكر ، والأخذ بما قال به الأقدمون ، وعدم الخروج عما جاءت به الكتب القديمة من آراء وتعليقات ، ومعنى هذا أنه كان يتجه إلى الحد من حرية الفرد فى تفكيره ، وإلزامه باتباع طريق أو طرق معينة ، فالفرد فى ذاك الوقت كان مستعبدا لتفكير من سبقه ، مقيدا بأقوال الأقدمين .

فلما جاء محمد عبده حاول الخروج على هذه النزعة القديمة ، والقضاء على ذلك التقيد الممقوت ، كما حاول فتح الباب أمام المجتهدين ، أو بمعنى آخر : اشعار الفرد بقيمته الذاتية واستقلاله ، ونظر محمد عبده إلى رجال الديانات فى الامم الأخرى فرأى نشاطهم فى أنواع العلم على اختلافها ، وضروب الأدب على تنوعها ، وصنوف الفن على تباينها حتى لقد زاحموا العلماء

والأدباء والفنيين . وأدرك أن إصلاح الأزهر والتفكير الاسلامى لن يكون - كما يقول الدكتور طه حسين بك - « حقيقة واقعة مثمرة إلا إذا قام الاصلاح على هذه القاعدة التى لاقوام للاصلاح بدونها ، وهى أن الدين لاينبغى أن يحول بين أهله وضروب النشاط المختلفة للعقل والشعور والجسم ، بل لن يستطيع الدين أن يحيى آمنا إلا إذا أباح لأهله أن يأخذوا بحظوظهم من هذا النشاط على اختلافه وتنوعه »[1] .

كان محمد عبده حريصا على « أن تعود للاسلام مكانته العالية فيؤثر فى نفوس المسلمين ، وعلى أن يكون الأزهر مهدا وملجأ ومنبعا لهذا النور الاسلامى الجديد الذى يجب أن يغمر البلاد الاسلامية كلها فيجتث منها أصول الشر ، وينكس فيها أعلام البدع ، ويعيد فيها إلى القلوب ما كان لها أيام السلف من نضرة وطهارة ، ثم يتجاوز هذه البلاد إلى بلاد الديانات الأخرى فيدعو إلى دين الله فى دعة ولين وإقناع بالحجة والموعظة الحسنة »[2] . ولن يأتى ذلك إلا إذا أحسن الناس استقلال التفكير والتحرر من كل القيود والرجوع إلى الدين فى بساطته الأولى ، إلى ذلك الدين الذى جاء به القرآن والسنة وكان منعة وعزة لأسلافنا الأولين .

وحاول محمد عبده تحقيق هذا كله فخرج عن المألوف فى الدراسة وفى اتباع الفكرة ، فليست الفكرة الراجحة لديه هى الفكرة التى قالها مؤلف بالذات أوجاءت فى كتاب بعينه . بل هى التى رجحت

---

١ - فى الصيف صفحة ٥٥ . ٢ - نفس المصدر صفحة ٥٣ .

لديه باعتبار مقاييس التفكير العام للانسان ، وباعتبار المبادىء العامة للدين الاسلامى .

وتلامذته هم الذين اتبعوا هذا الأثر ، ونهجوا هذا الطريق ، ولم يقفوا كما وقف المتقدمون والمعاصرون للشيخ محمد عبده عند حد النقل أو التفكير .

وكان السيد رشيد رضا أول الذين أخذوا عنه ، واقتفوا أثره فى تعليمه ومبادئه . وهو سورى الجنس ، تلقى علومه فى طرابلس بسوريا ، ثم جاء مصر عام ١٨٩٧ م واتصل بالأستاذ الامام فكان مستودع أسراره ، والداعية له ، والمدافع عنه فى كل معركة من معارك جهاده . كتب بشأنها فى المنار والصحف اليومية كتابة من لايعنيه إلا الحق والمصلحة . وكان الامام والشيخ رشيد على اتفاق فى العقيدة والرأى فى جميع ماينشره « المنار » إلا مسائل الدولة العثمانية وسلطانها فانها كانت من السياسة التى يبغضها .

وكان الشيخ رشيد فى أول أمره ميالا إلى التصوف ، مشتغلا بالعبادة وأخذ النفس بالتقشف والزهد ، وتعليم القرآن للعامة من أهل قريته ، وبيان ماجاء فيه من آيات الترهيب والانذار ، مغلبا الخوف على الرجاء ، والزهد فى الدنيا على القصد والاعتدال فيها . وكان أكبر مايشغل باله صحة العقيدة وصدق العبادة ، فلما قرأ العروة الوثقى وضع نصب عينيه مثلا أعلى فهى التى غيرت مجرى حياته كما يقول .

ولما كانت الحركة التى أنشأها محمد عبده علقت أهمية كبرى على السنة الصحيحة لتكون مصدرا أساسيا من مصادر الاسلام فى صورته الجديدة ،

فقد بدت كفاية الشيخ رشيد فى علوم الحديث حتى أن « جولد زيهر » قال : « إن مقدرة رشيد فى نقد الأحاديث المختلفة وما أظهره من الكفاية العظيمة فى ذلك تذكرنا أحيانا بالنقدة من علماء الحديث المتقدمين »[1] .

ويبدو مقدار تأثر الشيخ رشيد بتعاليم محمد عبده وأفكاره فى انشائه لمجلة المنار التى جعلت غايتها الأولى علاج أمراض الأمة وضعفها بنشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التى فشت فيها كالجبر والخرافات ،[2] ونشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية وإقامة الحجة على أن الاسلام باعتباره نظاما دينيا لايتنافى مع الظروف الحاضرة ، وأن الشريعة أداة عملية صالحة للحكم[3] ، وكل هذا من تعـاليم الامام وأفكاره .

ويبدو تأثره بأفكار محمد عبده فى تفسيره آيات القرآن الكريم ومحاولة اتمام مابدأه محمد عبده على صفحات المنار ، وفى انشائه لجمعية « الدعوة والإرشاد » تنفيذا لخطة الامام العملية فى التربية والتعليم ، وعملا بالمبادىء الاساسية التى نادت بها حركته من بعده ، فقد كانت ترى أن المسلم مكلف بتقوية روابط الاسلام بين اخوانه فى الدين ، وحضهم على أداء فرائضه واتباع أحكامه الخلقية ، والعمل على نشر الاسـلام بين المسلمين ، ولايأتى ذلك إلا بنشر

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ١٧١ .

٢ ـ تاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول صفحة ١٠٠٣ .

٣ ـ نفس المصدر الأول صفحة ١٧٢ .

التعليم نشرا عاما بين الناس ، وكان الشيخ رشيد يقول إن إنشاء المدارس خير من انشاء المساجد ، لأن صلاة الجاهل فى مسجد لاخير فيها ، ولكن فتح المدارس يقضى على الجهل فتؤدى الفرائض الدينية والأعمال الدنيوية على وجهها الصحيح (١) .

وحمل لواء الدعوة بعد الامام كثيرون ممن جذبهم إليه كما تنجذب الفراشة إلى النور الساطع ، كالشيخ « أحمد أبى خطوة » ، والشيخ « عبدالكريم سلمان » ، والشيخ « سيد وفا » ، والشيخ « حسونه النواوى » ، والشيخ « عبدالرحمن قراعة » ، وإن كان أثرهم لم يبد واضحا كل الوضوح .

وممن تأثروا بالإمام ونشروا دعوته وساروا سيرته : الشيخ « الزنكلونى » فقد اقتفى أثر تفكير الامام فى التفسير فكساه تلك الجدة المحببة الى النفوس ، ووضحه للناس على أساس أن الاسلام هو الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان ، ومعالى مصطفى عبدالرازق باشا الذى نهج نهج أستاذه فى دراسة الفلسفة مادام القرآن قد رفع من شأن العقل ، ووضع له من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتميز بين الحق والباطل ، والضار والنافع . ويبدو تأثره بالشيخ عبده فى جعله الفقه الاسلامى هو الفلسفة الاسلامية الصحيحة ، فنأى بذلك عن اتباع رأى المستشرقين كما نأى عن اتباع رأى الفقهاء ، وبذلك دل على استقلاله فى الرأى والتفكير . وقد برهن اشتغال على عبدالرازق بك فى القضاء الشرعى على مقدار تأثره

---

١ ـــ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ١٨٦ .

بالإمام ، كما دل كتابه « الاسلام وأصول الحكم » على مقدار استقلاله فى التفكير وعلى عدم التقيد فى مسائل العلم بأقوال السلف .

ومن الذين تأثروا بالشيخ عبده : الشيخ « عبدالمجيد سليم » الذى سار فى الفتاوى سيرة الشيخ عبده من حيث تمييز الفتاوى بروح الاستقلال والتحرر من أغلال التقليد ، وجعل الاسلام ملائما لحاجات المدنية الحديثة ، والشيخ « محمود شلتوت » الذى يعتبر من أكبر أنصار محمد عبده والداعين له فى الوقت الحاضر ، فهو لايدع فرصة إلا وينتهزها للحديث عن محمد عبده وتعاليمه ، سار سيرته فى التفسير والفقه فكان بذلك برهانا على أن تعاليم الامام لم تمت ولكنها تعمل عملها حتى اليوم .

ومن أكبر تلاميذ الاستاذ الامام فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى اهتم بمسائل الفقه واعادة تنظيم تلك الجامعة الاسلامية العظيمة على نطاق واسع يتفق وحاجات العصر ، ولعل مذكرات الشيخ المراغى فى القضاء وفى الأحوال الشخصية والمواريث ، وأحكامه فى المحكمة العليا الشرعية ، وفتاواه فى لجنة الفتاوى بالأزهر تدل كلها على مقدار تشبعه بروح الاستقلال فى التفكير طبقا لمبادئه العامة ومبادىء الاسلام .

ومن وراء هؤلاء جميعا مئات من الشباب غزاهم تفكير محمد عبده . ودراسة الفلسفة فى الجامع الأزهر مقر التعاليم الدينية عنوان على أن تفكير الشيخ عبده تمكن من نفوس الأزهريين فى الجيل الحاضر الذى حاربه سلفهم وتصدى لمعارضته . بل هم أول من تصدى له .

النهضة الأدبية

وإذا كان هذا هو الأثر الذى تركه محمد عبده فى التفكير الاسلامى كله على الرغم من ذلك التحفظ الذى كان يظهره رجال الدين ، وعلى الرغم من تلك المساعى التى كانت تحول بين النابهين منهم وبين الإصغاء لذلك الدوى الجديد فان أثر تفكيره فى أصحاب المناصب والأدباء الذين تزعموا الحركة الأدبية والفكرية كان أسرع سريانا فى النفوس .

ومما يلاحظ فى أصحاب المناصب والأدباء الذين التفوا حول الامام فحضروا عليه دروسه فى الأزهر ، أو ترددوا على داره فى عين شمس فاستمعوا لدروسه الخاصة ، أو عملوا معه فى الجمعيات والهيئات التى عاونها بجهوده ، وأمدها بتشجيعه ، ونفذ فيها إصلاحاته ، يلاحظ فى هذه الطبقة من رواد مجالسه ومريديه أنهم جميعا - أو العدد الوفير منهم - قد درسوا فى الأزهر ثم تجاوزوا فيما بعد ما اعتاد الأزهريون أن يعنوا به ويصرفوا جهودهم فيه

وكان من هؤلاء ابراهيم بك اللقانى وهو من رجال المحاماة والأدب المعدودين . حوكم مع محمد عبده بعد حوادث الثورة العرابية ، وزامله فى النفى وأقام معه فى بيروت حتى سمح له بالعودة . ومنهم ابراهيم بك الهلباوى الذى أصبح فيما بعد نقيبا للمحامين وواحدا من الخطباء المعدودين . ومنهم ابراهيم بك المويلحى ولكنه لم يكن صادقا كل الصدق فى تشيعه لمحمد عبده .

وكان حسن باشا عاصم من أخلص المريدين الذى عاونوا محمد عبده

وآزروه وشايعوا أفكاره وعملوا على تمكينها فى النفوس ، فلا ينسى تعضيده له فى الجمعية الخيرية الاسلامية ، ومعاونته فى الجهود التى بذلها فى سبيل النهضة الأدبية ، كما لا ينسى ماقدمه من مساعدة لإصلاح المحاكم الشرعية ، وقد تحمل عاصم باشا فى سبيل هذه المشايعة كثيرا من العنف ولكنه كان راضى النفس مرتاح البال لأنه كان يعمل مع رجل آثر المصلحة العامة على كل مصلحة شخصية .

ومن هؤلاء حفنى بك ناصف الذى يقول عن أثر دروس الامام فى نفسه ونفس زملائه : « كنا نجد فى أنفسنا من سماع خطبته أن الواحد منا جدير بإصلاح مديرية أو إصلاح مملكة »[1] . وقد نجح حفنى بك فى حياته نجاحا كبيرا فكان سكرتيرا لوفد العلماء المصريين الذين ندبوا لحضور مؤتمر المستشرقين فى فينا عام ١٨٨٦ ، ثم اشتغل رئيسا للتفتيش فى وزارة المعارف والقضاء فى المحاكم الأهلية ، وكان أستاذا للبلاغة فى مدرسة الحقوق ومحاضرا للأدب العربى فى الجامعة المصرية وله مؤلفات كثيرة .

وكان من هؤلاء أحمد فتحى زغلول باشا الذى أوفدته نظارة المعارف فى البعثة العلمية الأولى إلى أوربا حيث درس القانون ، وقد ارتقى فى مناصب الحكومة حتى عين وكيلا لنظارة الحقانية وله مؤلفات كثيرة هو الآخر .

وغير هؤلاء كثيرون كأحمد تيمور باشا الذى « كان فى شبابه ممن

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢٠٣ .

جذبتهم دروس الامام حتى أصبح من تلاميذه المتحمسين . حضر دروسه فى دار العلوم ، وشاقته هذه الدروس فحضر أيضا جميع دروسه فى الأزهر واستفاد على وجه خاص بما كان يلقيه الامام من محاضرات فى البلاغة اعتمد فيها على كتابين للجرجانى .

« ثم حضر تيمور باشا ما كان يلقيه الشيخ من الدروس الخاصة فى مسائل الفلسفة ، واتصل بالامام اتصالا قويا ، وأسرته تعاليمه حتى أنه اشترى دارا فى عين شمس مجاورة لدار الامام ليعيش بالقرب منه ، وليزداد حظه من مصاحبته »(١) .

وكان مصطفى لطفى المنفلوطى مجاورا فى الأزهر أيام الامام ، وقدمكنه ذلك من حضور دروسه فى البلاغة . « وتظهر آثار صلات المنفلوطى بالشيخ عبده فى الحملة التى شن غاراتها على المفاسد التى دخلت على الاسلام ، وفى دعوته الى الاصلاح ، تلك الدعوة التى اصطبغت بالصبغة التى نجدها كثيرا فى كتابات الشيخ عبده ، وقد عبر عن محبته لأستاذه واحترامه له فى كثير من قصائده »(٢) .

وهذا حافظ بك ابراهيم الذى يقول : « كنت ألصق الناس بالامام أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وألتقط ثماره »(٣) قد تأثر هو الآخر بتعاليم الشيخ عبده وأفكاره وعبر عن هذا كله فى قصائده ، وفى كتبه « ليالى سطيح » وغيره .

١ - الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢٠٦ .
٢ - نفس المصدر والصفحة .
٣ - نفس المصدر صفحة ٢٠٧ .

وكانت مقالات الجريدة الرسمية وثمرات الفنون ببيروت والعروة الوثقى فى باريس وغيرها من الصحف التى نشرت له وأذاعت أفكاره — المدرسة التى تلقى عنها كل هؤلاء وغيرهم دروس الأدب والبيان وفن الكتابة فى العصر الحاضر .

« وفى الحق أن النهضة الأدبية الحديثة لم تبلغ غايتها إلا بعد الحرب العظمى ، ومع هذا فإن حركة الشيخ عبده زادت من قوة العوامل التى كانت موجودة من قبل ، وكان لها حظ قوى فى بعث روح النهضة ، فهى لم تمدها بالكتاب والعلماء القادرين فحسب بل أنها خلقت جوا صالحا يمكن أن ينشأ فيه عهد من الكتابة جديد ، وأن الجهود التى بذلها الشيخ عبده فى سبيل تحرير العقول فى مصر من أغلال التقليد ، وفى التوفيق بين دين الاسلام وثقافته ، وبين ما وصلت اليه المدنية الحديثة ، سهلت على الأدب العربى فى عصرنا الحاضر سبل التجديد دون أن تنفصم الروابط التى وصلت بين حاضره وماضيه فى الاسلام . وليس من شك فى أن الجيل الحديث من كتاب المسلمين يدينون بهذا الفضل للاستاذ الامام »[1] .

---

١ — الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢١٠ .

النهضة الاجتماعيه

وكان أكثر ما آلم محمد عبده وأقلقه هو هذا الضعف الذى دب فى كيان الأمة فنظرت اليها غيرها من دول الغرب نظرتها إلى الفريسة ، وأحاطت بها كما يحيط الجشع بالغنيمة انتظارا للساعة التى ينقض فيها فلا يترك منها شيئا ولا يذر . وكان أكثر ما آلمه هو هذا الانحلال الخلقى الذى أصاب كل فرد حتى هانت عليه نفسه وكرامته ، وهذا الانقسام الذى دب بين الصفوف فلم يعد للفرد على الفرد حق ولا واجب ، ولم تعهد للجماعة على الأفراد عهود والتزامات .

فلما جاء محمد عبده وقلب نظره فى الوجود وراح يبحث عن موطن العلة ليشخص العلاج رأى أن شفاء هذه الأمة من أمراضها الاجتماعية لا يتم إلا بشىء واحد هو أن يعيد لوحدتها تماسكها ، وأن يجمعها على رأى واحد ، ويوجهها إلى غاية واحدة . وما الحياة الاجتماعية الا إيجاد الروابط بين الفرد والفرد والجماعة والفرد . وإذا كانت العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء جميعا وثيقة قوية ، وإذا كانوا جميعا يعملون للخير العام ارتفع مستوى الحياة الاجتماعية بينهم ، وعظم شأنهم ، وعلا مقامهم .

وكان محمد عبده يرى أن إيجاد هذه الروابط وتوثيق هذه العلاقات لا يأتى إلا عن طريق التربية والتعليم لأنه - كما يقول الدكتور محمد البهى - كان يعتقد أن الدولة إذا عنيت بتثقيف الفرد وتربيته وتهذيبه كونت أمة

لها كرامتها، ولها عزمها ومشيئتها، وإذا وجدت مدرسة الفرد وقدمت لأبناء الأمة جميعا لونا واحدا من التوجيه العقلى ضمنت اتحاداً بين الأفراد وتضامنا بين الطبقات المختلفة لايهتز لأول عاصفة خارجية ولايدع مجالا واسعا لنفوذ أجنبي. وبفضل الاتحاد والتضامن، وبفضل الوحدة فى التوجيه تقل المساومة فى الشؤون العامة للدولة أوتنعدم ويطغى المعنى الجماعى فى الفرد على ناحية الأنانية فيه.

« ولكى يكون التوجيه واحدا يجب أن يكون ذا طابع قومى، ولأجل أن يكون التعليم للتثقيف والتهذيب معايجب أن يكون الدين الركن الأساسى فيه. والاسلام وإن كان عالميا إلا أن التدين به من مظاهر الأمم الشرقية. والأمة المصرية أمة شرقية، والاسلام إذن من مقومات وجودها، وهكذا ينتهى الشيخ عبده إلى أن الاسلام مادة أساسية فى التعليم المصرى وفى التوجيه القومى للأمة المصرية [1] ».

وإذاً فقد كانت الناحية التعليمية من أهم المسائل التى تعرض لها محمد عبده حتى أنه فى شهر مايو من نفس العام الذى توفى فيه أملى رسالة طريفة باللغة الفرنسية بسط فيها آماله وآراءه فى التربية والتعليم، وأدلى بمقترحاته فى إصلاح نظم الادارة والقضاء فى مصر، وفى ديسمبر من ذلك العام نشر مسيو « دوجرفيل » هذه الرسالة بعنوان « وصية سياسية للمرحوم محمد عبده مفتى الديار المصرية ».

وقد تناول الامام فى جزء من هذه الرسالة نقد سياسة التعليم التى كانت

---

١ - جريدة منبر الشرق العدد الصادر فى ٢٣ مارس من عام ١٩٤٥ .

تتبعها الحكومة فى ذاك الوقت . كما نادى بتعميم المجانية ومكافحة الأمية وإنشاء جامعة مصرية تكون مهمتها اعداد بيئة ثقافية عالية ، وإذاعة روح البحث العلمى الخالص .

لقد توفى محمد عبده فى يوليو من عام ١٩٠٥ ولكن آماله وتعاليمه لم تمت . فهاهم الذين درسوا حياته وتفهموا اتجاهاته قد حققوا قبل مضى أربعين سنة على وفاته أكثر ما كان يسعى اليه ، فهذه سياسة التعليم قد تغيرت وأصبح الغرض منها إعداد رجال لمكافحة الحياة وشق الطريق معتمدين على أنفسهم ونشاطهم ومقدرتهم بعد أن كان الغرض منها إخراج موظفين لدواوين الحكومة .

وهذا تعميم المجانية قد عم جميع المدارس الابتدائية وبذلك فتح الباب أمام الجميع كى يعلموا أولادهم بعد أن كان التعليم يكاد يكون وقفا على القادرين والموسرين .

وأما مكافحة الأمية وقيام وزارتى المعارف والشؤون الاجتماعية بتنفيذ هذا المشروع فاكبر دليل على أن تعاليم الامام وآماله بقيت حية تعمل عملها فى تفكير المصلحين واتجاهاتهم خلال هذه الأربعين سنة حتى كتب لها أن تتحقق فى عهد الفاروق العظيم مجدد الحيوية والنشاط فى الأمة .

وأما دعوة محمد عبده إلى إنشاء جامعة مصرية فقد دعابها من بعده سعد زغلول ، وقاسم أمين ، وحفنى ناصف ، وأحمد لطفى السيد ، ومصطفى

عبدالرازق وغيرهم وكانوا جميعا من تلاميذ الامام ومريديه الذين نشروا آراءه ونهجوا نهجه.

وكانت هناك إلى جانب هؤلاء التلاميذ والمريدين شخصية نبيلة كريمة مدت يدها إلى أيديهم لتشد من أزرهم وتقويهم، وتذلل الصعاب وتعينهم، أما هذه الشخصية النبيلة الكريمة فهى المغفور له صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول، وكان يومها نجما ساطعا فى مقدمة نجوم البيت المالك.

وليست الجامعة المصرية وحدها المدينة لفؤاد العظيم بهذه الروح العلمية الجديدة التى بثها فى نفوس الشباب، فهناك الجامعة الأزهرية قد حاطها كذلك بعنايته ورعايته، وهذا النهوض الشامل للتعليم العالى والخصوصى بصفة عامه أثر من آثاره.

وكان من مزايا الملك الراحل طيب الله ثراه إلمامه التام بكل ناحية من نواحى الحياة فى مصر، ومعرفته بأقدار الرجال، وإدراكه لجهود المجاهدين. ولذلك لم يغب عنه ما كان لمحمد عبده من جهود فى سبيل الأمة المصرية خاصة والاسلامية عامة، ولم يفته ما كان لمحمد عبده من آمال ومطامع، ولذلك شجع عليه رحمة الله تخليد ذكرى هذا الامام، فعندما قابله عبدالسلام الشاذلى باشا يوم ٥ أكتوبر من عام ١٩٣١ [1] بسراى المنتزه ومعه

---

١ ـ كان عبد السلام الشاذلى باشا فى ذاك الوقت مديرا للبحيرة وفيها بلدة الامام، وأراد تكريم الامام باحياء ذكراه فى بعثة تحمل اسمه، وقد اختار لعضوية هذه البعثة الدكتور محمد البهى أستاذ الفلسفة والدكتور محمد عبدالله ماضى أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين الآن. والدكتور البهى هو الذى حدثنا عن النطق السامى للملك الراحل طيب الله ثراه وليس من شك فى أن تلاميذ الامام ومن اتجهت أفكارهم اليه وإلى آرائه يشكرون للشاذلى باشا عمله ويقدرونه قدره =

العضوان المختاران لبعثة تخليد ذكرى الامام محمد عبده تفضل فذكر كثيرا من عبارات الاستحسان لهذا العمل ، وامتدح الشاذلى باشا وطلب منه الاستمرار على تخليد هذه الذكرى ثم قال موجها الكلام لعضوى البعثة : إنى أريد أن أرى علماء الأزهر كعلماء الدين فى أوربا لهم بجوار تعاليم الدين إلمام واسع بفلسفه الكون والحياة . وقد كان الشيخ محمد عبده مثالا واضحا للعالم الدينى الذى أريده للأمة . وقال : إنى أريد أن يلم علماء الدين بأساليب الحياة ، ويحرصوا على كرامتهم كما يحرصون على التمسك بمبادىء الدين ونشره للناس عامتهم وخاصتهم ، وهذا النطق السامى للملك الراحل يصور إمامنا الشيخ عبده ويوضح قيمته بعد وفاته ، ويبين أن هذه القيمة تزداد على مرور الزمن وتوالى الايام .

وكان إنشاء الامام للجمعية الخيرية الإسلامية اتجاها عمليا نحو تنفيذ مبادئه وأفكاره التعليمية ، لأنه كان يقصد منها إلى تربية العقول وتهذيب النفوس وإخراج ناشئة قوية فى العلم والخلق .

ومن أهم الأفكار الجوهرية التى برزت فيما كتبه الشيخ محمد عبده وصحيفة المنار ضرورة تربية البنات وتعليمهن تعليما لايقل عن تعليم الذكور ، واصلاح الحياة الاجتماعية والعادات التى تمس حياة المرأة فى البلاد الاسلامية ، وكان الشيخ عبده وأنصاره يرون أن الاسلام لاتتجلى محاسنه باعتباره دينا أنزل للناس كافة فى شىء أكثر مما تتجلى فى تكريمه

للمرأة والاعتراف بمالها من مقام . فالاسلام يقرر مساواة المرأة بالرجل في جميع الأمور الجوهرية »(١) .

وممن تأثروا بدعوته هذه قاسم بك أمين أحد أنصاره ومريديه ، وقد جعل الدفاع عن المرأة والمطالبة بحقوقها ورفع مستواها ميدانه الذي برزت فيه مواهبه وسطع اسمه كزعيم لحركة الاصلاح النسائي في مصر . وكانت المرحومه ملك حفني ناصف في طليعة المجاهدات في سبيل تحرير المرأة ، وقد تأثرت بتعاليم الامام وأفكاره عن طريق والدها المرحوم حفني بك ناصف وهو من شيعة الشيخ محمد عبده وأفاضل رجاله . وقد نشأ ابنته ورباها على الأساليب والآراء التي كانت تأخذ بها هذه الجماعة في تفكيرها الراقي الحر .

ولعل الاتحادات النسائية وماتتمتع به المرأة الآن من حرية وحقوق مدنية كلها بالفضل إلى ملك ومن قبلها إلى قاسم أمين وكانا قبسا من النور الذي شعه محمد عبده من قبل .

ولم تكن الناحية التعليمية ولا الناحية النسائية الناحيتين الوحيدتين اللتين حظيتا بقسط وافر من جهود الامام فهناك ناحية البر قد خصها هي الأخرى بنصيب كبير من جهوده . وكان غرضه تعويد الناس على البذل والعطاء والتعاون على تخفيف وطأة الحياة ونكبات الايام . ولعل روح البذل والعطاء الموجودة الآن ، والاسراع نحو المساهمة في أعمال الخير تستمد وحيها من تعاليم الامام .

---

١ - الاسلام والتجديد في مصر صفحة ٢٢١ .

النهضة السياسية

وإذا اتجهنا بتفكيرنا إلى الناحية السياسية لتتعرف أثر الامام فى الحركات الوطنية والاستقلالية التى شهدتها البلاد خلال السنوات التى أعقبت وفاته وجدنا أن هذه الناحية لم تخل هى الأخرى من بعض الأثر. فقد كان محمد عبده فى أول أدوار حياته وهو دور الأعداد والتكوين مندفعا وراء تيار الحمية والتهييج السياسى، ذلك لأنه كان مؤتما بزعامة جمال الدين مهتديا بهداه، ولكن ليس معنى هذا أن الامام كان ميالا بطبيعته إلى هذه الخطة فى معالجة شئون السياسة، فالتعليم والاصلاح كانا فى نظره الطريقة الوحيدة لبلوغ الأهداف القومية، وهما وإن كانا أبطأ أثرا فإنهما أكثر هدوءا وأكثر ضمانا لبلوغ هذه الأهداف.

لقد دعا محمد عبده الشعب إلى التميز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، وكان يرجو أن يوفق إلى هذا عن طريق تربية الشعب وتثقيفه ليكون أكثر معرفة ببواطن الأمور فأكثر عدلا فى حكمه، معتدا برأيه، شجاعا فى المطالبة بحقه، عزيزا فى تنفيذه للقوانين والواجبات.

وليس من شك فى أن الفترة التى قضاها فى مجلس شورى القوانين كان لها أثر كبير فى نفوس أعضائه، فقد جعل همه الأول وغرضه الأساسى من قبول الانضمام لعضوية هذا المجلس بث روح الجد والاهتمام بالبحث

فى الأمور العامة ومصالح البلاد ، وتربية الرأى العام فى الأمة ليكون ذلك اعدادا لنفوس طائفة من الناس للفصل فى الأحكام بالشورى ، فاذا ارتقت هذه الملكة فى الهيئة الحاضرة فى المجلس فإنها تنتقل منها إلى الهيئات التى تخلفها ، ويكون ذلك جرثومة من جراثيم الاصلاح فى البلاد . وهذا هو عين الاصلاح السياسى لأنه فى هذه الحالة يكون مدعم الأساس ، قوى البنيان ثابت الأركان .

غير أن الفترة التى أعقبت الحوادث التى انتابت البلاد فى ذاك الوقت ، والتجارب التى اكتسبها الامام خلال هذه الفترة جعلته يرتاب فى السياسة ، بل يميل إلى شدة المبالغة فى هذا الارتياب وعدم الاطمئنان إلى الاشتغال بها ، ولكنه مع ذلك لم ينج من مزج التربية والتعليم بشىء من السياسية لأنه كما يقول الشيخ رشيد : « كان يرى أن انسانية المرء لاتتم إلا إذا عرف الأمور التى تتصل بحرية بلاده واستقلاله اتصالا وثيقا ، وكان يحث على حب الوطن ويبين ضرورة اتفاق الناس على مصالحهم الوطنية من غير جناية على الهداية الاسلامية » (١) .

وليس من شك بعد هذا أن تعاليم الامام وآراءه السياسية قد أثرت فى كثير من المحيطين به والمؤيدين له ، يتضح ذلك من أن أول حزب سياسى فى مصر وهو حزب الأمة الذى أسس عام ١٩٠٧ أى بعد وفاة الشيخ عبده بعامين كان أول حزب سياسى وضع له نظام ودعم ببرنامج مفصل يتناول

---

١ — الاسلام والتجديد فى مصر صفحة ٢١١ .

مرافق البـــلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعا . ولا يعنينا هنا التيارات السياسية والعوامل التى دعت إلى تأسيس هذا الحزب لأننا لسنا فى معرض تاريخ الأحزاب السياسية فى مصر . ولكن يعنينا من الأمر أن أكثر رجاله كانوا من شيعة محمد عبده، بل إن رئيسه «حسن باشا عبد الرازق» كان من خلصاء الإمام وأصدق أنصاره ، فهو بعمله هذا كان ينفذ الخطة السياسية العملية التى أوحت بها تعاليم الشيخ عبده ، فقد تضمن البرنامج المفصل لهذا الحزب كما يقول تشارلز آدمس : « كثيرا مما كان يدعو اليه الشيخ محمد عبده ، فقد كان مما اشتمل عليه الدعوة إلى تعميم التعليم الاولى بنوعيه الحر والاجبارى ، وترقية التعليم العالى ، ونشر مبادىء الحكم النيابى بالتدريج بواسطة المجالس ، من المجلس النيابى الى مجالس المديريات والمجالس المحلية » [1] .

وهذا سعد زغلول الذى حمل المشعل فأنار للأمة طريقها ، وأيقظها من سباتها ، وحرر نفوس أبنائها من الذل والخضوع كان واحدا من شيعة محمد عبده وحوارييه ، وكانت صلته بالشيخ عبده فى أول أمره من أقوى الصلات : لم يكن تلميذا فحسب بل كان مريدا يخضع إلى توجيه شيخه خضوعا لا يشوبه شىء من التردد . فكان بذلك يستفيد من علمه وعمله ، ومن اخلاقه وشمائله ، ومن فصاحته وبلاغته وكلامه ، وبذلك شب كاتبا خطيبا ، أديباً

---

١ ـ الاسلام والتجديد فى مصر صفحه ٢١٤ .

سياسيا ، وطنيا اسلاميا كما يقول تشارلز آدمس .

فإذا كان سعد زغلول قد بث روح الحمية الوطنيـة فى نفوس أعوانه وأنصاره ، وهؤلاء بثوها فى نفوس الشبـــاب ، وهؤلاء سوف يلقنونها للأجيال القادمة جيلا بعد جيل ، فان مرد هذا كله الى الشيخ محمد عبـده وتعاليمه التى تشرب بها سعد ولقنها من بعده لأبناء الأمة جميعا .

* * *

نخرج من هذا كله الى أن محمد عبده كان فى حيـاته شعلة أضاءت ، وقبسا من نور سطع ، وفكرة سرت ، فلما مات لم تنطفىء الشعلة ، ولم يخب ضوء القبس ، ولم تمت الفكرة لأن من جاءوا بعده من تلاميذه ومريديه ساروا سيرته واقتفوا آثاره ، ولأن الإشعاع الذى بعثه فنفذ الى جميع الجهات أضاء للناس طريقهم وقادهم فى نفس الطريق الذى دعا الى السير فيه . ونخرج إلى أن هذه النهضات الدينية والأدبية والاجتماعية والسياسية إنما تستمد وحيها من ذلك الينبوع الأول ألا وهو الأستاذ الإمام وتعاليمه .

الخاتمـــة

لقد طوى الثرى كثيرا من ملايين البشر وغيبهم فى ظلمات القبور ، وقطع ما بينهم وبين الأحياء من أسباب . وقضى النسيان على كثير من الذكريات الحبيبة . وطمس مر الأيام كثيرا من الرموز التى شيدها أصحابها لتدل عليهم وترمز اليهم ، حدث كثير من هذا كله . . كثير لا يحصره العد ، ولا يدركه العقل . ولكن هناك من الناس من لا تزال ذكرياتهم باقية على الرغم من انتقالهم إلى دار الفناء . وهناك من الناس من لا تزال آثارهم مخلدة تشهد بعبقريتهم ونبوغهم وجهادهم فى سبيل البشرية ، وكفاحهم من أجل غايات شريفة . وهاهى ذى الكتب المقدسة نفسها خير شاهد على ذلك ففيها كثير من قصص المجاهدين الذين استحقوا الخلود وكان حقا علينا أن نردد ذكراهم كل صباح ومساء . والتاريخ كذلك مزدحم بأخبار كثير من هؤلاء الناس الذين لا يزالون أحياء برغم الموت ، والذين لا تزال ذكرياتهم خالدة على الرغم من تقادم العهد ، والذين لا تزال آثارهم قائمة تشهد بعبقريتهم ، ونبوغهم ، ومقدار ما بذلوه من تضحيات .

وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من هؤلاء الذين كتب لهم الخلود على الرغم من مقاومة المقاومين ، وتجاهل المتجاهلين ، ذلك لأنه جاهد فى سبيل الله ، وفى سبيل الدين . ومن الذكريات الباقية ذكرى الأستاذ الامام

ذلك لأنه أحد الذين وقفوا نفوسهم وسعيهم على خدمة الأمة ورفع القيود التى فرضها الجهل والاستعمار ، ومن الآثار الباقية آثار الامام لأنها آثار فكرية شملت كل ناحية من نواحى الحياة المصرية اسلامية كانت أو أدبية أو اجتماعية أو سياسية .

* * *

والواقع أنى بعد كتابة ما كتبته عن الأستاذ الامام . وبعد الانتهاء من هذا المؤلف الذى أقدمه للقراء تحية متواضعة لذلك الرجل العظيم الذى غاب عنا بجسمه ولكنه لم يغب بروحه وتعاليمه ، أرى أنى لم أوفه حقه ، ولم أحط بجميع نواحيه . ويعلم الله أن ذلك لم يكن عن تقصير فى خدمة تاريخ ذلك الرجل ، ولكن لأن تاريخه نفسه متفرع الجوانب متعدد النواحى ، فحياته فى طفولته أو دور الإعداد ، والفترة التى تصوف فيها على يدى الشيخ درويش خضر ثم دراسته فى الأزهر ، وحياته كعالم وصحفى ، وحياته فى منفاه أو فترة الحمية والثورة ، وحياته كرجل اجتماعى ومصلح ، ثم فلسفته وآراؤه وتعاليمه ، ومبادئه ونزعاته ، كل ناحية من هذه النواحى فى حاجة إلى كتاب خاص قائم بذاته يلم بكل صغيرة وكبيرة من أطراف هذه الناحية .

وكان الهدف الأول الذى قصدت اليه من اخراج هذا الكتاب عن الاستاذ الامام أن أقدم سيرة مجملة لحياته ترسم الخطوط الأولى لأولئك الذين يرغبون فى تتبع آثار زعمائهم ، والالمام بتاريخ مجاهديهم الذين

وقفوا حياتهم على الاصلاح العام ، ثم قصدت أخيراً إلى أن يكون عملى هذا اعترافاً بما كان لدراسة حياة هذا الرجل العظيم من أثر كبير فى حياتى العامة ، وتذكيراً لأولئك الذين يحاولون شق الطريق إلى المستقبل دون النظر إلى الماضى الذى قد تتلقى منه العبرة والموعظة الحسنة .

وإذا كانت السنوات الطويلة قد مرت قبل أن يعرف الشباب من أمر الرجل شيئاً يغريهم بأن يحبوه ويقدروه حق قدره كما يقول معالى مصطفى عبدالرازق باشا ، وقبل أن يتجه الكتاب والأدباء إلى إحياء ذكرى ذلك المجاهد الكبير ، فإن السنوات الأخيرة قد شهدت انبعاثاً جديداً ونشاطاً ملحوظاً أغرى كثيرين بالتعرف على سيرته ، ودراسة حياته ، والوقوف على آثاره واتجاهات فكره .

* * *

والواقع أن الاستاذ الامام قد أنصف فى هذه السنوات الأخيرة قولا ولكنه لم ينصف عملا ، فقد كتب عنه أدباء مصر وكتابها المقالات الطويلة مقالة تلو مقالة وكلهم مابين معجب به ، أومقدر لجهوده ، أوذاكر فضله . ولكنهم مع الأسف الشديد لم يفكروا جدياً فيما يجب عمله لتخليد ذكرى هذا الرجل الذى جمع فضائل العلم والعمل والصلاح والاصلاح ، وقد بلغ كثيرمن مريديه وتلاميذه أعظم المناصب ولكنهم مع ذلك مروا بذكراه عابرين ، إذا استثنينا الجهود التى بذلها معالى مصطفى عبد الرازق باشا فى هذا السبيل .

« وقد آن للأمة وقد صار لها زعماء تنقاد لهم ، ومجلس نواب يسيطر على حكومتهم ، وكتاب بلغاء يدعون إلى المصلحة العامة ، وخطباء مصاقع يهزون قلوب الخاصة والعامة ، أن تراجع مناقب هذا الامام التى فصلناها فى هذا التاريخ ، وتقرر مايجب عليها من إحياء ذكره ، والاهتداء بإرشاده . وبناء أسس التربية والتعليم الدينى والمدنى على أسس قواعده ، وتتعاون أحزابها وحكومتها على تنفيـــذ ماقررته فى الوقت القريب المناسب له ، فإنها لهى القواعد الحكيمة التى تحفظ لها عقائدها وأخلاقها ، وتكوين بيوتها (عائلاتها) ونماء ثروتها ، وترسخ دعائم استقلالها ، وتجعلها قدوة للبلاد العربية والشعوب الاسلامية ، التى اعترف عقلاؤها لهذا الأستاذ العليم ، وأستاذه الفيلسوف الحكيم بالزعامة المدنية والسياسية والأمامة الدينية والتوفيق بين الجامعتين الملية والوطنية » (١) .

رحم الله الامام ورحم حافظ ابراهيم الذى قال :

« لقد جهلوا قدر الامام فأودعوا تجاليده فى موحش بفـــلاة
ولو ضرحوا بالمسجدين لأنزلوا بخير بقاع الأرض خير رفاة
تباركت هذا الدين دين محمد أيترك فى الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات » (٢)

---

١ - السيد رشيد رضا - تاريخ الاستاذ الامام الجزء الاول صفحة ١٠٧٠ .
٢ - ديوان حافظ الجزء الثانى صفحة ١٤٤ .

تصـــويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٦	تؤتونى	تأتونى
٣٤	٤	لايفهمون	لايفهموه
٣٧	١١	لم يستطيع	لم يستطع
٤٤	١	استغفاره لله	استغفاره الله
٥٠	١٩	عربت إلى	عربت من
٥١	٣	آفاته	آفاقه
٥٤	٥	إنما كان	إنما كانت
٥٤	١٤	هذا العصا	هذه العصا
٧٦	٥	محضا	محض
٧٧	١٢	معاونيه	معاونوه
١٠٩	١٥	الطريق	الطرق
٢٨١	١٥	اللذين	الاذان
٣٠٢	هامش ٢	سورة آل عمران	سورة البقرة
٣١٩	٨	ولما	ولمَ

وهناك بعض أخطاء مطبعية لايجد القارئ الكريم صعوبة فى إدراكها وردها إلى الاصل.

